صلاح أحمد إبراهيم

(تكريماً له)

المكتبة

زيران 1993

صلاح احمد ابراهيم

غابة الأبنوس

وقصائد أخرى

تقديم الأستاذ **الطيب صالح**

تصميم الغلاف واللوحات الداخلية بالألوان :
الأستاذ **عثمان وقيع الله**

الناشر : إدِفرا - باريس

تقديم

ربما يكون صلاح أحمد ابراهيم هو أكثر الشعراء السودانيين « سودانية » في شخصه وفي شعره . فهو قد وُلد ونشأ في مدينة أم درمان ، التي نقول عنها إنها العاصمة «الوطنية » للسودان ونعتبر أنها خلاصة ما يمكن أن يُسمّى بـ « الحضارة السودانية » . ليست أم درمان الآن كما كانت منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ، فقد تغيّرت بها الأحوال وأصابتها عوامل التغيير ، وإن كان ما يزال فيها بقية من طابعها القديم . كانت في ذلك العهد قريبة من هيئتها التي كانت عليها كحاضرة للدولة المهدية ، فقد أنشأها الإمام المهدي على الضفة الغربية للنيل ، مبتعداً بها عن الخرطوم التي كانت حتى في تلك الأيام « افرنجية » الطابع . وجاءت القبائل من الشرق والغرب والشمال والجنوب فأقامت فيها . ولما عمرت ، بدأ الناس ينزحون إليها ، في هجرات هادئة متدرّجة ليست عنيفة كهجرات الناس هذه الأيام إلى المدن . امتزج الناس مع مرور الزمن ، وامتصّت المدينة مؤثرات وافدة من الوطن العربي والإسلامي : من مصر والمغرب والحجاز وغرب أفريقيا وحتى من الهند وأبعد، فتكوّن نسيج جذّاب فريد من نوعه .

ولمّا فتح الإنجليز بلاد السودان ، اهتمّ الحكم الجديد اهتماماً خاصاً بمدينة أم درمان ، إذ كانت مركز المقاومة

لوجوده ، فكأنه أراد أن يروِّضها ويستلَّ سخيمتها ، فأنشأوا فيها من المدارس أكثر مما أنشأوا في أي مدينة أخرى في السودان ، فأتيحت لأهل أم درمان فرص لم تُتَحْ لغيرهم ، وكانوا أسبق إلى الأخذ بهذه المعارف الجديدة التي جاء بها المستعمرون . لكن المدينة استوعبت كل ذلك بطريقتها الهادئة المتحضرة ، فتغيَّرت وكأنها لم تتغير . وكان الوافد إليها من أنحاء السودان الأخرى ، يجد فيها شيئاً مختلفاً ، ولكنه مألوف له في الوقت نفسه ، ليس بعيداً عن إدراكه كل البعد . كل وافد يجد في أم درمان أهلاً وعشيرة ، ويجد أن أحوالهم وأسلوب عيشهم أحسن من حاله وعيشه ، ومع ذلك فهي حياة يألفها ولا تجعله يحسّ بالنفور والوحشة .

تلك هي أم درمان التي نشأ فيها الشاعر ، في أسرة ذات علم ودين ، تمتدّ جذورها إلى شمال السودان . وفي هذه الأسرة الأمدرمانية المحافظة ، نشأت فيما بعد اتجاهات ثورية تحررية ، ولكن في نطاق هذا النسيج الفريد . فأخت الشاعر ، فاطمة أحمد ابراهيم ، من الأعضاء البارزين في الحركة الشيوعية في السودان ، وكانت أول سيدة تدخل البرلمان . وهي مناضلة صلبة ، لم تفتر همتها طوال عهد النميري وكانت في طليعة من تصدّوا لذلك العهد . ورغم ذلك فهي في حياتها سيدة عادية كسائر السودانيات ، وهي مؤمنة متمسكة بشعائر دينها ، ولا ترى في ذلك تناقضاً مع ولائها السياسي .

تشرَّب صلاح أحمد ابراهيم هذا الروح الأمدرماني المتحضّر . وكانت مدارس أم درمان في الأربعينات والخمسينات ، حين بدأ الشاعر تعليمه ، هي خير مدارس السودان ، يُعَلِّمُ فيها أساتذة أفذاذ لمعت أسماؤهم بعد ذلك في مجال الحياة العامة . كانت توجد جماعات فكرية وأندية أدبية ، وتحفل المدينة بالليالي الشعرية التي كان يقيمها أحياناً شعراء كبار يفدون من مصر خاصة مثل علي الجارم وعباس محمود العقاد . بل إن مدينة أم درمان اعتنت بالمسرح أيضا حتى في ذلك الزمان ، ونشأ فيها مسرح سوداني أصيل ومتطور ، وكانت تفد إليها الفرق من مصر . وكانت الأندية تعمر بالنشاطات السياسيَّة . ويمكن أن يتخيَّل المرء أن الشاعر وهو في تلك السن المبكرة ، مع حساسيته المتفتحة وعقله الذكي وحاسة حب التعرف على الدنيا المحيطة به ، وهي حاسة لا مفر للشاعر منها ، لا بد أنه خاض في غمار ذلك كله . إستمع إلى أغاني سرور وخليل فرح وابراهيم عبد الجليل وزنقار وغيرهم ، ورأى أو لعلَّه عرف العبادي وود الرضى وغيرهما وشارك في حفلات الأعراس الأمدرمانية التي لم يكن لها مثيل في أي مكان آخر في السودان . ولا بد أنه كان يراقب بعيني الشاعر ، سواء أكان يعلم أنه سوف يكون شاعراً أم لا ، ويختزن التجارب وينتظر .

ثم دخل جامعة الخرطوم عام ١٩٥٤ ، وقد كانت تلك نقلة

كبيرة للناس الذين يجيئون من أطراف السودان في الأقاليم ، أمثالنا . وكان يبدو لنا أن « أولاد أم درمان » ينخرطون في ذلك المكان الغريب بيسر كأنه شيء اعتادوا عليه من زمن . هنالك على أي حال ، كما يمكن أن يتخيل المرء ، انفتحت له آفاق أوسع . كان قد قرأ القرآن الكريم وحفظ أجزاء منه على يدي والده ، وقرأ بعض المتون وقرأ النحو والصرف ، وألمّ بالشعر الجاهلي والأموي والعباسي وبعض الشعر الحديث من السودان ومصر وبلاد الشام والعراق . ولكن هذا مكان مختلف ومناهج أخرى . كانت جامعة الخرطوم في تلك الأيام ، كما أرادها الإنجليز ، مكاناً لتعليم النخبة من السودانيين ، على غرار الجامعات البريطانية ، تدخلها قلة قليلة من المحظوظين ، بعد جهد شاق ومنافسة عنيفة . كانت فيها عيوب التعليم النخبوي بالطبع ، ولكن بالمقابل كانت فيها كل حسنات تعليم الصفوة . هنالك تعرض الشاعر لتأثير أساتذة أجلاء في اللغة العربية ، أذكر منهم الدكتور عبد المجيد عابدين والدكتور محمد النويهي والدكتور عبد العزيز اسحق ، وهم مصريون ، والدكتور عبد الله الطيب وهو من نوابغ السودانيين ، والدكتور إحسان عبّاس وهو فلسطيني ولعله كان أعظم أثراً على الشاعر من غيره ، وما تزال تجمع الشاعر به صداقة حميمة إلى اليوم .

ولا بد أن الأدب الإنجليزي الذي كان يُدَرَّسُ بعناية فائقة في جامعة الخرطوم تلك الأيام ، فتح عيني الشاعر على دنيا

واسعة جديدة عجيبة . أحبَّ الشعراء الرومانسيين الإنجليز ، كما لا بد أن يفعل الإنسان المرهف الحس في تلك السن الغضّة . أحبّ كيتس ووردثورث وكولردج وبايرون وشلي ، وخاصة شلي .

وهكذا ترى أن صلاح أحمد ابراهيم خرج من صفوة السودانيين الأمدرمانية ، ودرج في مدارسها وكانت صفوة مدارس السودان ، واشتدّ عوده في جامعة الخرطوم ، وهي جامعة « للصفوة » على غرار الجامعات البريطانية . فهل صار « نخبوياً » في فكره وشعره ، وهل لاذ إلى برج عاجي ينظر من عليائه إلى الحياة والناس ؟

أبداً . صحيح أن صلاح لا يمكن أن يسمى بحال من الأحوال شاعراً « جماهيريًا » ، فشعره مصقول أنيق فيه عناية كبيرة بالـ « شكل » (Form) . وهو شعر مثقّف لا بد لقارئه من ذخيرة ثقافية ليفهمه كما يجب ، ويستمتع به على أحسن وجه . ولكن الشاعر ، لأنه من أم درمان ، ولأنه نشأ في تلك البيئة التي وصفتها لكم ، استوعب كل هذه المؤثرات بسهولة شديدة ، فكأنها أشياء كان يعرفها أصلاً . وتلك على أي حال سمة قديمة في وادي النيل ، وفي السودان الشمالي بصفة خاصة . فأنت لا تجد في هذا الديوان ، كما تجد في شعر الفيتوري مثلاً ، وحتى في شعر محمد المهدي المجذوب ، وهو شاعر يمكن أن يقارَن بصلاح أحمد ابراهيم في « سودانيته »

- لا تجد دلائل على العنف ، رغم أن بعض مواضيع القصائد عنيفة ، ولا على هذا الصراع الحضاري الحاد ، ولا على أي إحساس غامر بالمرارة . ها هنا قصائد ألجّم « الشكل » فيها حدة المواضيع التي عالجها الشاعر وأضفى عليها على وجه العموم طابعاً تأمُّليًا . ولعل أكثر موضوع عنفاً من المواضيع التي تطرقت إليها قصائد هذا الديوان ، هو موضوع قصيدة « عشرون دسته » . ففي عام ١٩٥٦ ، وكان السودان حديث عهد بالاستقلال ، أضرب مزارعو مشروع « جودة » الزراعي على النيل الأبيض وامتنعوا عن تسليم القطن لإدارة المشروع التي لم يعودوا يثقون فيها ، وقد كانوا إسميًا شركاء في المشروع ، فاعتقلتهم سلطات الحكومة وزجّت بهم ، وهم زهاء مائتي رجل ، في سجن ضيق ، فماتوا جميعاً اختناقاً . وقد أحدثت هذه الواقعة الأليمة هزة عنيفة في ضمير الشعب السوداني .

فاضت قريحة الشاعر بقصيدة صوَّر فيها المأساة تصويراً دقيقا وهاجم فيها الجناة وعلى رأسهم سلطة الدولة ، هجوماً صريحاً . وقد بدأها هكذا :

لو أنَّهم
حزمةُ جرْجيرٍ يُعَدُّ كي يُباعْ
لِخَدَمِ الإفرنجِ في المدينة الكبيرةْ
ما سَلَخَتْ بشْرَتَهم أشعَّةُ الظَّهيرةْ

وبان فيها الإصفرارُ والذبولْ
بل وُضعُوا بحذرٍ في الظلِّ في حصيرةْ
وبلَّلت شِفاهَهُمْ رَشَّاشَةٌ صغيرةْ
وقبَّلت خدودَهم رُطوبَةُ الأنداءْ
والبهجةُ النضيرةْ .

هذه مأساة حقيقية ، صاغها الشاعر بحذق في قالب مؤثر . ومع ذلك فإنني حين أقرأ القصيدة أحسّ بالحزن أو إذا شئت « الأسى » ولا أحس بالغضب . هل لأن الشاعر بدأها بهذه العبارة الحزينة « لوأنهم ... » ؟ أو أنّ ذلك بسبب خاصية في طبعي ، فأنا أكثر ما أحسّ بالحزن وليس بالغضب .

ثم انظر إلى قصيدته عن حرب الجزائر التي أسماها « أغنية التروبادور للجزائر » ، وهي قصيدة رائعة بكل المقاييس . هذا ما أعنيه بسطوة « الشكل » على « الموضوع » . فمنذ البداية يخلع الشاعر على جسد القصيدة عباءة « التروبادور » ، الشعراء المغنّين الجوّالين في العصور الوسطى . فكأنّ عاشقا يجلس بالليل تحت شرفة حبيبته التي هي الجزائر هنا ، يبثّها أشجانه . ليس ذلك فحسب ولكنك تجد في مطلع القصيدة هذه الأبيات :

وأنتِ يا حبيبتي في شهركِ الأخيرْ
تَحرَّكَ الجنينُ ، أشفقي عليه من إجهاضْ
حتى إذا اشتدَّت عليكِ قبضةُ المخاضْ

هُزِّي إليكِ يا حبيبتي بِجِذْعِ نَخْلةِ الشُّعوبْ
تُهْدي إليكِ كيف تطلبين رُطَبَ القُلُوبْ
وَمُهَجَ الرِّجالْ ....

ها هنا بالطبع ، إشارة صريحة إلى الآية الكريمة في سورة « مريم » : (وهُزِّي إليكِ بِجِذْعِ النَّخْلةِ تُساقِطْ عليكِ رُطَباً جَنِيًّا) وسورة مريم عندي هي Pieta القرآن ، يكتمل فيها العنصر الذي يُسمَّى في الدراما الإغريقية Pathos أي « الأسى » . لذلك فإن هذه القصيدة يشيع فيها روحٌ رومانسي وروح من الأسى . ويظلّ هذا الإحساس يلازم القارئ ، أو يلازمني أنا على أي حال ، حتى حين تزداد الأبيات عنفا :

يا ليتني رصاصةٌ تُطلقُها الجزائرْ
أو شمعةٌ ساهرةٌ تُؤْنِسُ لَيْلَ ساهرْ
أو « كلمةُ السِّرِ » تقودُ ثائراً لثائرْ ..
أو خنجرٌ طيٌّ فدائيٍ خَفيٍّ ماكرْ
أغيبُ في مُهْجَةِ جاسُوسٍ وجَنْبِ غادرْ ...

يجب أن أسارع إلى القول بأنني لا أعتقد بأن هذا الطابع « التأمّلي » يقلّل بأي حال من قيمة الشعر . بل على العكس ، إنه يزيده عمقاً وقوة . فهذا الشاعر ، فوق كل شيء ، شاعر « صلب » . ولكن شعره ليس انفعالا وقتيًا لأحداث مرهونة بزمان ومكان ، بل هو مشاركة مهمة في رفد نهر الشعر والفن في « صيرورته » اللاّمتناهية . وحسبك أن هذه الأبيات

عينها ، تنطبق في يومنا هذا ، على السودان ، والأمّة العربية ، بل على الإنسانية كلها وهي حبلى بجنين يتشكّل في رحم الغيب . كذلك أقول إن الشاعر ليس دائما هكذا ، فهو في مقالاته الصحفية ، يغضب أحيانا غضباً جامحاً ، ويقسو أحياناً قسوة موجعة . ولكنه فيما يبدو ، حين يجلس ليكتب الشعر ، تنزل عليه « سكينة » هي سكينة الفن في محرابه الجليل .

صلاح أحمد ابراهيم « سوداني » بشكل كامل ومطلق ، وأنا لا أعرف شاعراً يعشق السودان كما يعشقه صلاح أحمد ابراهيم . الفيتوري وآخرون يحبّون السودان أيضا ، ولكن كأنهم لا يحبّون السودان الحقيقي ، ولكنهم يحبّون « مثال » السودان في عقولهم . وحتى محمد المهدي المجذوب رحمه الله ، وقد قتله حب السودان ، كان يبدو أحيانا كأنه يتمنّى لو انعتق من أسر ذلك الحب . ولكن صلاح أحمد ابراهيم يحبّ السودان جملة وتفصيلا . وهو حب مبنيّ على معرفة دقيقة وليس على مجرد « وهم » . وفي هذا الديوان ، وفي ديوانه الثاني « غضبة الهبباي » أدلة كثيرة على دقة معرفته بالسودان . ربما لأنه نشأ في أم درمان فقد وجد السودان كله مجتمعاً هنالك ، في متناول يديه .

بعد ذلك سافر ، ودرس وبحث ، وتعمّقت معرفته . وهي معرفة تشمل كل شيء ، البيئة والتاريخ والشعر والفن والمديح واللهجات وحفّاظ القرآن ومشايخ « الخلاوى » وشعراء الدوبيت ،

لذلك فهو حين يطرق موضوعاً ما ، فإنه يوفيه حقه من التفاصيل الدقيقة ، ويجعلك تحس أنك تقف مع الشاعر في مكان بعينه وفي زمان بعينه ، رغم أن القصيدة تحلّق بك بعد ذلك في آفاق أبعد . ولنأخذ قصيدته « استسقاء » . هنا ، تجد الشاعر يذكر « النّال » و « الأنيس » وهي أعشاب تنمو في البادية ، بعد هطول المطر ، ويذكر « التّبر » وهو زهر أصفر اللون ، ويذكر « الدُّعاش » وهي كلمة موحية ، تعني تلك الرائحة العجيبة التي تتنفّس بها الأرض المرْويّة ، بطينها وأعشابها . ويذكر « المطامير » ، وهي مخازن الغلال في جوف الأرض ومجرد ذكرها يوحي بالخصب ورغد العيش . يقول :

ومثلما يَنْفَشُّ مَغْبونٌ علينا أمْطِري

على بلادنا اللُّهْثَى وعُشْبِنا اليَبيسْ

وكلمة « يَنْفَشُّ » يستعملها السودانيون كناية عن تنفيس الصدر من الغضب . وقد قال الحردلُّو قبلاً وهو يصف هطول المطر في أرض « البُطانة » في الشرق :

الخَبَر الأكيدْ قالوا البُطانة اتْرَشَّت

وساريةً تَبقْبِقْ للصّباحْ ما انفشَّتْ .

ويقول صلاح أحمد ابراهيم في هذه القصيدة :

وحينما « تَرْزِم » باصطِخابْ

نسجدُ شاكرينَ يا سحابْ .

وكلمة « يرزم » التي هي هدير الرعد ، تحدث في القلب

صقعة حين يتذكر الإنسان قول حاج الماحي :

كُلْ ليلةْ نازْلين فوقْ عُمَدْ

حسْ طارْنا « يرزمْ » كالرُّعَدْ .

فهذا إذاً شعر ، يفعل ما يفعله الشعر العظيم دائما . إنه يخاطب حواسك جميعاً ، السمع والبصر والشم واللمس ، ويطلق لخيالك العنان ، ويعطيك صوراً تنادي لك صوراً أخرى ، ويربطك بما أنت فيه الآن ، وبما هو كامنٌ في وجدانك ، من حيث تدري ولا تدري . ثم إذا وصف لك منظراً فكأنك هنالك بالفعل ، تشاهد بأمِّ عينيك . خذ مثلاً قوله في وصف بعض أعراض ذلك الجفاف والقحط :

قد جَفَّ طينٌ قاعِهِ على هَوَانْ

كَتُفْلِ قهوةٍ جَفَّ على فُنْجَانْ

وفي المكان

آثارُ أقدامٍ كثيرةٍ وشِلْوُ قِرْبَةٍ وعظْمتانْ

لتُرْبَةٍ عطْشانةٍ شُقُوقُها جِراحْ

تَنْزو بغير دمْ

أبخِرةٌ كأنها حِمَمْ .

هذه دِقَّة مبعثها الحب ، فالشاعر عاشق للمكان ، كلِفٌ به ، يعشق طينه الذي جف وتشقق ، وشلو القربة وعظام الحيوان الذي هلك من الظمأ . وفي قصيدته « في الغربة » يبوح الشاعر صراحة بهذا الحب :

أتمثَّلُ أُمّي ، إخواني ،
والتَّالي نصفَ الليل طِوالَ القرآنْ
في بلدي ،
حيث يُعَزُّ غريبُ الدار ، يُحَبُّ الضَّيفْ
ويُخَصُّ بآخر جُرْعةِ ماءٍ عزَّ الصَّيفْ
بِعَشا الأطفالْ ،
« بِبَليلِ » البِشْرِ وبالإيناسِ إذا ما رقَّ الحالْ .

نعم ، هذا هو « الوطن » الذي عرفناه وأحببناه ولم نزل نبكي عليه . وصلاح أحمد ابراهيم سيد المحبين جميعاً ، فهذه أبيات موجعة إلى حدّ البكاء . وسوف تجد في ديوانه « غضبة الهبباي » شعراً أكثر إيلاماً . وفي هذه القصيدة يقول صلاح قولته الشهيرة :

والنِّيلُ بَعيدْ ،
النِّيلُ بَعيدْ .

ونحن نعلم ان النيل بعيد ليس بمعنى المسافة المادية فقط ، ولكن بمعنى « الحُلم » الذي ما يفْتأ يزداد « نؤيا وبعداً » كما قال التجاني يوسف بشير . وكأنما الخطوب التي ألّت بنا منذ عهدنا بالاستقلال ، والأعوام التي مرّت ، كل عام يجيئنا ببلوى جديدة تهتف بنا : « النيل بعيد ... النيل بعيد ... النيل بعيد ... » . ولكنه هتاف لن يفتَّ من عضدنا ، ففي طبعنا ذلك التفاؤل القديم ، الذي عبّر عنه شاعرنا الآخر في قوله وهو

يخاطب جمله مستحثاً :

« أسْرِعْ ، جَودِعْ ، امسيتْ ، والمواعيد فاتّنْ »

لكن لا يتبادر إلى الذهن أن حبَّ الشاعر لوطنه كل هذا الحب ، يحصر أفقه ويُعمي عينيه . فقصائد هذا الديوان تطرق مواضيع متنوعة وتمتدّ من كينيا إلى الجزائر إلي الصحراء الغربية . لكن هذا الحب هو نقطة الانطلاق إلى العالم . فهو عربي عميق العروبة ، ولكنه ينطلق إلى العروبة بمعناها الواسع ، من عروبة السودان نفسه ، وكأنه يتعمّد أن يقول « إن عروبتنا قديمة وأصيلة وليست شيئا طارئا علينا » . لذلك فهو يستعمل ، كأنما عن عمد ، كلمات من العامية السودانية ، كلها كلمات فصيحة ، ويستعمل صوراً شعرية في سياق جديد ، ترتبط في الوقت نفسه بالتراث الشعري السوداني الذي يرتبط بدوره أوثق ارتباط بتيار الشعر العربي من قديم الزمان . ثم هو مسلم عميق الإسلام بهذا الروح السوداني ، الذي يغلب فيه التسامح وسعة الصدر والبعد عن التزمت . وقد أُثِر عن صلاح أحمد ابراهيم قوله نحن عرب وأكثر . هذا الشيء الإضافي ، هو تلك الروافد التي أخذتها مدينة أم درمان من النوبة في الشمال والبجا في الشرق والزنوج في الجنوب وغزلتها كلها في نسيج فريد ، قديم جديد . ولا يملك الإنسان إلاَّ أن يصدق الشاعر ، حين يعلن عن « مذهبه » ببساطة في هذه الأبيات :

فأنا قلبي مأوى الضعفاءْ

وأنا حبي خبزٌ للمحرومين وللتعَسَاءْ
وأنا مَن كَفَّيَّ
ألواحُ نَجاةٍ وقواربْ
وأصابعُها تمتدُّ حِبالاً للهاوي تمتدُّ دُروباً للهاربْ
أبوابي ليس بها حُرَّاسْ
يفتحُها حبي للناسِ ، لكلِّ الناسْ .

نعم . الشاعر يصف نفسه ، ويصف مدينته أم درمان ، ويصف السودان كما نحب جميعاً أن يكون السودان .

بقي أن أذكر ، أن في حياة الشاعر وفي شعره ، جانباً سياسياً مهماً لا يمكن أن يغفله الدارس لشعره . ولكنني هنا لا أكتب نقداً ولا دراسة ، وكل ما أردته من هذه الكلمات ، أن أعبّر عن مدى حبي للشاعر وشعره . وأنا أصلاً أؤمن بأن أحسن النقد ما كتب عن محبّة . لذلك أكتفي بالقول إن صلاح أحمد ابراهيم ، لأسباب عدة ، ألقى بنفسه في خضمّ العمل السياسي منذ صباه الباكر ، وجذبته أفكار اليسار الماركسي . ولكنه ، كما كان حتما أن يحدث لشاعر في مثل حساسيته واتساع آفاقه ، انفلت من إسار ذلك الالتزام السياسي ، بل إنه تصدّى بجرأة عظيمة في مقالاته الصحفية وفي بعض قصائده لنقد الحزب الشيوعي ، وأمينه العام بالذات ، عبد الخالق محجوب . كانت جرأة عظيمة لأن الحزب الشيوعي في تلك الأيام كانت له سطوة وجبروت . وقد عمل الشاعر فترة طويلة

في وزارة الخارجية وتقلّد مناصب عدة ، كان آخرها منصب السفير في الجزائر . وقد استقال من ذلك المنصب ، حين أعدم النميري الشفيع أحمد الشيخ وعبد الخالق محجوب وآخرين بعد المحاولة الإنقلابية التي قادها هاشم العطا . وأنا أعتقد أنه لم يفعل ذلك فقط لأن الشفيع أحمد الشيخ كان زوج أخته فاطمة ، ولكن من ناحية المبدأ ، رغم أنه كان على خصومة فكرية حادة مع عبد الخالق محجوب ، ولم يكن مؤيداً لذلك الإنقلاب . ثم استقرّ في باريس منذ ذلك الحين ، يعيش حياة بسيطة لم تخلُ من العنت في بعض الأحيان ، يقرأ ويكتب ويتعرّف على الثقافة الفرنسية أكثر فاكثر ، ويطوي جوانحه على ذلك الحب الدفين للسودان الذي ملك عليه أقطار نفسه .

هذا شاعر كبير ومتميّز من شعراء العربية في هذا العصر . وأنا لا أقول ذلك جزافا فهذا رأي اقتنع به الناس جميعاً الآن . وهذا الديوان عبارة عن مائدة عامرة لا تنفد خيراتها . لقد نُشر منذ أوائل الستينات والشاعر بعد غض الإهاب ، ومع ذلك فهو ناضج مكتمل . نفد الديوان واحتجب طويلاً ، لذلك فهذه مناسبة تدعو للفرح ، أنه يصدر من جديد في ثوب قشيب . ويضيف إلى سعادتي أن صديقنا العزيز ، صاحب المواهب الفذة المتعددة ، الشاعر الناثر الرسّام الخطّاط عثمان عبد الله وقيع الله قد صمم له الغلاف ووضع له الرسوم

واللوحات الداخلية . فاجتماع موهبتين كبيرتين كهاتين في عمل واحد ، هو بحد ذاته حدث كبير .

وبعد ، فإن الشاعر قد اختار لديوانه هذا العنوان الرشيق المُوحي « غابة الأبنوس » . إن الأبنوس شجر ينمو عندنا في الغرب وثمة بلدة تسمى « بابنوسه » . وهو حطب يجمع بين المتانة والجمال . كذلكم هذا الشعر . وهو حطب أسود اللون ، ولكنه سواد تخالطه ألوان كثيرة تتراءى للعين ، وتشع في اتجاهات شتى ، فكأن الضوء يتكسّر وينعكس على لوح من البلُّور . إنه خشب جذّاب ، ناعم الملمس إذا صُقل ، ولكنه صلب يستعصي على الكسر .

وقد أفصح الشاعر عن شيء من هذا ، في أبيات حدا بها الركبان في السودان :

أنا من إفريقيا : صحرائها الكبرى وخطِّ الإسْتواءْ
شَحَنتْني بالحَرارات الشُّموسْ
وَشَوَتْني كالقرابينِ على نارِ المجوسْ
لَفَحتْني فأنا منها كَعُودِ الأبَنوسْ .

نحن في السودان نحتفي بهذه الأبيات بصفةٍ خاصة ، ونردّدها ونشدو بها ، لأننا نحسّ بأنها « تلخِّصنا » وتعرب عن ما نظن أنه « هويتنا » – كما يُقال هذه الأيام .

الطيب صالح

وكلمة من الدكتور إحسان عباس ...

« شاب وديع هادئ ، ولكن وداعته وهدوءه يحجبان ثورة عاتية والتزاما عنيداً بالمبدأ وكفاحاً لا يهدأ . وهو إلى ذلك واسع الثقافة ، عميق الفكرة ، متأنٍ في الحكم والإنشاء . اتّخذ التعبير الأدبي أداة من أدوات الكفاح ، وتتميّز آثاره جميعا في النقد والقصة والشعر بالإحكام ، وتتّسم بالجد الغائي ، وتنحو نحو الإجادة والتجويد . وقد كان الشعر أولى المجالات الفنية التي ارتادها منذ عهد الحداثة . غير أن مجموعة « غابة الأبنوس » تمثّل آخر ما بلغه فنه من تطور وتكامل . »



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

الشعر في السودان



د. عبده بدوي

٤٠ ـ جمادى الآخرة / رجب ١٤٠١هـ ـ مايو (ايار) ١٩٨١م.

... صلاح أحمد ابراهيم، فقد التفت الى العذاب الذي يعانيه الفلاحون، وبخاصة حين حاول بعض مزارعي مشروع «جودة» التأكد من أن ما يعطونه من أثمان القطن صحيح، فكان أن زجّت السلطة بمائتين منهم في مكان ضيق، بحيث لم يصبح عليهم الصباح الآ وهم موتى.. وكان أن صرخ الشاعر في قصيدة منها:

لو أنهم.. حزمة جرجير يعدّ كي يباع
لخدم الافرنج في المدينة الكبيرة
ما سلخت بشرتهم أشعة الظهيرة
وبان فيها الاصفرار والذّبول
بل وضعوا بحذر في الظل في حصيرة
وبللت شفاههم رشاشة صغيرة
وقبّلت خدودهم رطوبة الأنداء
والبهجة النضيرة!
لو أنهم فراخ
تصنع من أوراكها الحساء
لنزلاء الفندق الكبير
لوضعوا في قفص لا يمنع الهواء
وقدم الحب لهم والماء
لو أنهم..
لكنهم رعاع
من الزريقات
من الحسينات
من المساليت (١٠)
نعم رعاع
من الحثالات التي في القاع
من الذين انغرست في قلوبهم براثن الاقطاع
وسملت عيونهم مراود الخداع
.. وفي المساء
بينا كان الحكام في القصف وفي السكر

---

(١٠) أسماء قبائل

وفي برود بين غانيات البيض ينعمون بالسّمر
كانت هناك
عشرون دستة من البشر
تموت بالارهاق
تموت باختناق.

وقد نجح صلاح أحمد ابراهيم في تقديم نماذج من البسطاء في السودان، وهي غالبا نماذج فقيرة مجهدة، وقد يتعرض لكتلة بشرية كقوله :

كل فتى كالحبشّي الحي في انطوائه، حتى اذا ثار طغى فأغرقا
وكالبشارى يقوده الصغير بالمعروف، إمّا اغتاظ دقّ العنقا
أعرفهم الضامرين كالسياط، الناشفين من شقا
اللازمين حدّهم، الوعرين مرتقى
أعرفهم كأهل بدر شدّة، ونجدة، وطلعة، وخلقا

وقد يتعمق في واحد من قبيلة الهدندوة بشرق السودان اسمه «أوشيك»، بحيث يجعلنا نتعاطف معه، ونلعن الظروف التي ولغت في دمائه، وفي عرض ابنته، ونعجب في الوقت نفسه لأنه حوّل كل هذا الحزن الى «دراما صغيرة».

«أوشيك» دون أن يكلّ يرصد الآفاق
من دغش الصّبح الى انحباس الضوء في السماء
مفتشا عن غيمة فيها سلام الماء
يرفع ساقا ويحط ساق
كوقفة الكركي في المياه
مرتكز الظّهر على عصاه
أهلكت المجاعة الشياه
دبايوا (١١)

(١١) كلمة السلام عليكم بلغة الهندوة

يفتل من ساعاته الطوال
حبال صمت تافه حبال
ويرقبُ السماء
لو أنها تعصر في لسان أرضه قطرة من ماء
لو أنها تبلل الرجاء
أهلكت المجاعة الشياه
لو يرحم الإله
زوجته ذات الزّمام الضخم والملاءة الحمراء
قضى عليها الداء
فزفرت أحشاؤها دماء
وفوق صدرها «أوهاج» (١٢) مثل هرة صغيرة عمياء
يمد في غرغرة الدّماء
يدين كالمحارتين للأثداء
.. وابنته «شريفة»
جاءت الى المدينة القاسية المخيفة
تقدم التّفاح للرجال
لكل من جاء من الرجال
رائعة رائعة.. يقول لي صديق
يا نهدها استقلّ، كاد أن يطل من ثيابها الرهيفة
وهي تضوع بالشذا، تموج كالقطيفة
تموء بالحروف مثل قطة أليفة
«يا سمسم القدارف» (١٣)
تقدم البيرة واللفائف
والطشت والابريق
ترفع أو تخفض المذياع
حتى اذا أنهكها الامتاع
أطفأت مصباحها بعد انتصاف اللّيل
مرّ على خيالها «أوشيك»
وشعره الوديك
كأنه شجرة الزقوم (١٤)

---

(١٢) ابنها الرضيع
(١٣) مطلع أغنية شعبية، وقد حاكى لهجة المدندوة التي تحول الضاد الى دال.

(١٤) انظر غابة الأبنوس ص ١٤ وما بعدها، وقد جاء في مقدمة القصيدة الأخيرة «ان حياتنا السودانية في الشمال والجنوب والشرق والغرب تعج بالمآسي والفواجع، وما اختيار هذه الصورة من شرق السودان الآ محض مصادفة»

منشورات الجامعة اللبنانية
قسم الدراسات الإنسانية
٢

السودان والحركة الأدبية

الجزء الثاني

بقلم
حليم اليازجي



بيروت ١٩٨٥

التوزيع: المكتبة الشرقية، ص.ب ١٩٨٦، بيروت - لبنان

... وان كان ادريس جماع قد مجد امته ببعث ماضيها ، فان صلاح احمد ابرهيم مجد أمته في حاضرها ، مجد فيها الأنفة المتمثلة في نفسية اشخاصها العاديين ، الأباة بطبيعتهم الصادقين بفطرتهم ، الثائرين بصادق حسّهم ، فهم ملاذ الغريب وسياج الضعيف.

كل فتى كالحبشي الحي في انطوائه
حتى اذا ثار
طغى فاغرقا
وكالبشاري[٤٩٩] يقوده الصغير بالمعروف
اما اذا اغتاظ دقّ العنقا
اعرفهم الضامرين كالسياط
الناشلين من شقا
اللازمين حدّهم الوعرين المرتقى

.

ذوي الأنفس الرائقات العذاب
عليها من الحق نور مبين
فضائلهم دون سح نجم
بلا ضجة أو أذى أو ظنون

واختيار صلاح احمد ابرهيم «غضبة الهبباي» عنوانًا لديوانه هو تعبير عن ثورة عارمة تطيح بكل المفاسد. والهبباي ريح سودانية اذا ما اشتدت اقتلعت ما تلقاه في طريقها. وغضبة الشاعر ثورة على الفقر والمرض والفوارق الطبقية والعرقية. ودعوة الى المساواة بين الرجل والمرأة واستنكار للحرب بين أهل الشمال وأهل الجنوب. ويؤذيه أن يرى أهل بلاده يستكينون لهذا الواقع المؤلم.

انا منهم وبهم ولهم وخدامهم
لو هم يأمرون

٤٩٩. نسبه الى قبيلة البشاريين في السودان.

يعذّبني انهم في العذاب
ويؤرقني انهم نائمون

فني بلاده تموت النساء في الشارع والناس ينظرون، تموت من الأعياء والجوع والعطش.

امرأة كباشية
بجمار مقروح وحطب
ماتت في الشارع نصف الشارع في «العباسية».

هذه المرأة يحمل صلاح أحمد ابرهيم آلامها الى المنتصف الثاني من القرن العشرين، فني الزمن الذي تحلّق فالتيناتلشكوفا في الفضاء البعيد يستشري تسلّط الرجل في السودان على المرأة وكأنها ليست انسانة، بل هي دولاب في عجلة عمل تخشى على الدوام مزاحمة الضرة:

والكلب في وجاره
أهنأ منها عيشة لأنها كنملة
كالثور في محراثه كبغلة
كالجمل الدائر في معصرة الزيت
كمعزة الحليب في الزريبة
باركة على الرحى عاكفة على اللهب
على دخان الروث والتهام
أو في الشملة صارخة من العصا
راجفة من الطلاق من صنع الضرة

والحرب بين الأخوة هي حرب المنافع الطبقية في الداخل والخارج. الحرب بين الشمال والجنوب حرب آسنة تقطع الودّ بين الأشقاء على مذبح المصالح الأنانية للطبقات الحاكمة، وزوال المصالح كفيل بعودة الصفاء ولذا تراه في قصيدته «ملوال»[٥٠٠] يدعو البسطاء في كلا الاقليمين الى الوقوف ضدّها.

٥٠٠. وهي القصيدة التي ثار فيها الشاعر على الحرب الدائرة بين أهل الشمال وأهل الجنوب. «وملوال» اسم يكثر بين الجنوبيين ولعلّه تحريف الاسم «عمانويل».

فكّر معي ملوال أي مجد سوف نتشيه معًا
على ضفاف النيل
أي مجد لو صَفَتْ نياتنا نحن الاثنين
يتيه في مروجنا الخضراء مثل ابيس
الإله يملأ العين
يسر القلب يهز السماء بالقرنين.

ويلتقي في شعر صلاح احمد ابرهيم الموضوع العادي المطروق بالموضوع العميق المبتكر ، فعينه عدسة لاقطة وقلمه يستجيب لنداء وجدانه وعقله. وكثيرًا ما اعتمد الأسلوب المحلي دون ان يلقي في ذلك عضاضه أو حرج يحدّثك عن الرشوة بلسان البسطاء ، وعن الفساد بلغة المتندرين من أهل بلده مثال قوله في التجار الذين يفسدون الأنظمة ثم يَشْكُون من فسادها.

رأيته ينفث في وجه الأصول والقوانين الدخان من سجاره
رأيته يسير تنحني له الجدران في الوزاره
رأيته يرتّب الأمور ليله ويغتني نهاره
رأيته يحلب قلب الشعب ثم يدّعي الخسارة
رأيته يهرِّب الأموال للخارج في جساره

تابع حياة القرويين في مناطقهم وصور صراعهم مع الطبيعة ومع جشع الانسان ، قاسى معهم الجفاف وانتظر هطول المطر ، وبارك الانتاج ومجد الذراع المفتول. قابل بين جد الكادحين وابتزاز الأثرياء لأموال الفقراء ، فان لم يكن بالسلم فبافتعال الاقتتال والحرب لانتزاع الثقة من قلوب المؤمنين بالغد الباكر القريب.

في الخارج كان يموت نهار
في الخارج ابواق تعوي ويثور غبار
واناس مكدودون كأنهم الأشباح يجرون خطاهم نحو الاحجار
مجهولون بلا سيماء
مذهولون ومنكفئون من الاعياء
في المقهى المذياع يجلجل بالانباء

الحرب تدق الأبواب
الحرب الثالثة الحمقاء على الأبواب
أدفن رأسك تحت تراب
سيان تقول، الأمر لديك بلا أمل سيان
في الغرفة كان الرعب، وكان الحقد وكان العار
دهاليز في العتمة أين تقود
تعود الى حيث بدأت حياته
في العتمة أنت تكونت وتفتت
في العتمة انت رأيت ولم تصرخ
أهلاً بنهار[٥٠١]

ويعرِّي الحكم العسكري من مقومات الخلق والدراية ويصمه بالأنانية والجهل والحقد ويشبهه في قصيدته «اوديب ملكًا» بالوباء الأصفر الذي تنتقل عدواه مع الريح، ولكن المصيبة عابرة، والشعب باقٍ.

هكذا اجتاح الوباء الأصفر القهار «طيبا»
هكذا عضت عليها لعنة الاثم وهزتها المصيبة
وفشى الموت يحث الناس يغنيهم بضربات رتيبة
قرض الشبان والشيب، فلا حوش نجا دون ضريبة
أوَخلا نائح «طيبه» تحت المنخل الجانح تحت الفزع الناطح
«تجري» شحبت حتى روابيها الخصيبة
فيك يا سفاح لا في الناس أسباب الخطيئة
فانح ان شئت فكم طاغية زال وظل الشعب باقٍ[٥٠٢]

وكثيرًا ما استعان الشاعر بالأساطير لتوضيح صوره كقابيل وهابيل «رمزا لغدر الانسان باخيه»[٥٠٣] وفدياس المثال الاغريقي، وباخوس إله الخمر وروفتيوس الذي

---

٥٠١. غابة الابنوس، ص ٢٨.
٥٠٢. المصدر السابق، ص ٤٧ - ٤٧.
٥٠٣. المصدر السابق، ص ٢٩ - ٣٠.

مقالات كتبها صلاح أحمد إبراهيم



عاشقان لبيروت والخرطوم

■ كان يعشقُ عِشق الاساطيرِ
سراً وجهرا
وتنزو لواعجهُ المستجيشاتُ
في آخر الليلِ شعرا
يناغي صبيةْ
كزنبقةٍ في غدير نديةْ
بصدرٍ كباكورة الموسمِ
وشَعرٍ على صدرها المتواثبِ
في دعوةٍ يرتمي
ووجهٍ حريرِ الجبينْ
جريءِ القسامي
ايا حلوة الوجنتين اللتينْ
بخالٍ وغمازتينْ
احبكِ بالرغم عني
وبالرغم عنك
وبالرغم من كُل زينٍ وشينْ
ويا حلوة الشفتين اللتين...
الشهيةْ
هبيني اذا لم تكن قبلةً
فابتسامةْ
تُصيرِ لي دون جميع الشبابِ
مزيةْ
وتسعد قلبي ليوم القيامةْ
فاسمكِ فالوذجٌ في فهمي
ومسكُ قوافيَّ فيكِ
نزيف دمي
فاسلمي
وافتحي لي كتابِ الخلودْ
بما لم ينل قيسْ
من حبه العامريةْ
وبلّورةً تتجردُ هندْ
وتمشي الهوينا امامهْ
تزين احلامه المستهامةْ
مفضفضة كالغمامة
ينام غرار
ويصحو
وفي شفتيه افترارْ
كما إتلق الطلُّ في برعمٍ
وشع بظاهرِ رزقٍ سوار
ولكنه كان حباً بلا املٍ او حوارْ
حُبَّ غرٍ حي اللحاظْ
وشاعر رهيف المشاعر
مستيئساً
ومن طرف واحدٍ
بطعم النشادر
يغمغم آه وآهْ
اما ادركتَ بعدُ
ان كل شيء عليه ثمنْ
فتفريطها
وتوريطها
والمظاهر ستغري
بسمعتها والبدن
كلاب المواخير والكركدن
وا خجلتاه
ودمعته في المحاجرْ
وعرق الحمية ينبض اخضرَ
كالسيف نافرْ
قلت يا ابن الحلال اغترب
وأسلو عنها بعيد
رد لا استطيع
فقلت اذن
ستموت شهيدْ
اضطرارْ
او على صخرة الانتحار
اكيدٌ اكيدْ
يا صديقي انطلق وهاجرْ
قبلَ قفل المطارِ
هز رأساً عنيدْ
وتمتم
دعني فكم ميت كمداً في المهاجر
كان يعشق عشق الاساطير
بيروته
حدقت جارةٌ في حثالة فنجانه
تتقرّى كعادتها بخته
فرأت موته
جفلت وهي مذعورة
قتلتك البُنيه
اتعرفُها؟
يتساءل ما وصفُها؟
حدقت
لستُ واثقةً
تشبهُ «النبكْ»
هل ادمنت؟
ولها لوثة اجنبيةْ
وإن كان والدها
عربي الهوى
عربي اللسانْ
تدين له بامتنان
امة عربيةْ
أابوها الذي قال
سائل العلياء عنا والزمانا
هل خفرنا ذمة مُذْ عرفانا
ام تراه الذي قال
اين العطارفة الجبابرة الأُلى
وطأوا اللوار ودوخوا اسبانيا
لو كان حياً خالداً فوق الثرى
ما مات هارونٌ وزال معاوية
واخجلة العربي من اجدادهِ
ام تراه الذي قالْ
امه ما ولدته مسلماً او مسيحياً
ولكن عربي
أازيد
بلى
هي تجمع بين سالومي وبلقيس
او هي ادنى لمريمْ
ان انتَ اقسمتَ
فاجرةٌ او تقيةْ
صدقت
انتهى وصفها
اتعرفها؟
صاح مثل المطوفِ في نومه
أيا حلوة الشفتينَ
اعطني قبلةً
واقتليني
اقتليني.
كان يعشق عشق الاساطير
بيروته
غير انهم دمروا بيته
فهو يستصرخ الصمت
من دبروها
ومن نفذوها
ومن اغمضوا العين حين رأوها
ومن ربحوا
من هم منهم
اكسروا الصمت ايضاً
وقولوا لنا
من هم

القى صلاح احمد ابراهيم هذه القصيدة في مهرجان نظمته «حركة كسر الصمت» في باريس في العام ١٩٩١. ولم تزل مسجلة بصوته على شريط كاسيت.

الحياة ـ ٣١ ايار، ١٩٩٣

كان يعشق عشق الاساطير

□ باريس ـ
من نبيل ابو شقرا:

■ كان صلاح احمد ابراهيم يعشق كل ما يمس وجدانه واحساسيه وقناعاته.

كان يعشق الارض، ارضه، ويتماهى معها وفيها حتى يخال الى سامعه انه يعشق بنرجسية، لونها في بشرته، وزرقة نيلها وسواد ابنوس افريقيا:

«انا من افريقيا، صحرائها الكبرى وخط الاستواء
شحنتني بالحرارات الشموس
وشوتني كالقرابين على نار المجوس
لفحتني فانا منها كعود الابنوس».

للوهلة الاولى يبدو صلاح وكانه سجين افريقيا او كان قلبه لا يتسع الا لعذاباتها، الا ان افريقيّة صلاح وسودانيته كانتا دائماً في حجم الفقر والجوع والعذاب، اذ كلما كان يزداد حزن السودان كان يزداد صلاح سودانية.

لكن الحقيقة ان هوية صلاح كانت، على رغم اصالته، تتبدل، كمواضع شعره، وتتلون بلون هوية العذاب وجنسية الالم. اذ كان يحلو له ان يتذكّر في مجالسه الخاصة جداً، بفخر وتواضع، بما قام به حين كان سفيراً للسودان في الامم المتحدة وعضواً في لجنة مقاطعة روديسيا العنصرية. وكان يتمنى لو انه «رصاصة تطلقها الجزائر او خنجر طيّ فدائي خفي ماكر».

ومن المفارقات الغريبة ان اول مشاركة لصلاح احمد ابراهيم في مهرجان شعر عربي كانت في بيروت سنة ١٩٧٠، واخر مهرجان للشعر شارك فيه كان «تحية لبيروت» في معهد العالم العربي في باريس في ايار (مايو) ١٩٩١، قبل سنتين من رحيله، القى فيه مدخل قصيدة في عنوان «عاشقان لبيروت والخرطوم» تقمص فيها معاناة بيروت ومآسي الحرب وتجلى جسراً من عذاب يربط لبنان بالسودان.

«كان يعشق عشق الاساطير بيروته
غير انهم دمروا بيته
فهو يستصرخ الصمت
من دبروها
ومن نفذوها
ومن اغمضوا العين حين راوها
ومن ربحوا
من هم، من هم
اكسروا الصمت ايضاً
وقولوا لنا من هم».

باختصار كان صلاح احمد ابراهيم «مواطناً عالمياً» ينتمي الى فقراء هذا العالم ومظلوميه:

«فانا قلبي ماوى الضعفاء
وانا حبي خبز للمحرومين والتعساء
وانا كفّي
الواح نجاة وقوارب
واصابعها تمتد حبالاً للهاوي
تمتد دروباً للهارب
ابوابي ليس بها حارس
يفتحها حبي للناس، لكل الناس».

كان: النقابي والسياسي، والناقد والمفكر والشاعر، والديبلوماسي، لكن اجمل ما في صلاح انسانيته. فالذين عرفوه عن قرب، وهم كثر، يدركون هذه الحقيقة التي يعز امتلاكها على الكثيرين. وكان الصدق في زمن ماتت فيه القيم داخل مجتمع الآلة والاستهلاك.

على رغم بسمة الحب التي لم تكن تفارق ثغر صلاح الا ان عينيه كانتا كانهما مبللتان بعرق الارض وتعب وحزن مواطنيه: «انا حزين لأن شعبي حزين».

في باريس

كانت هجرته ثقيلة الوطاة عليه، يعيش في باريس وفي زحمة مباهجها، لكن قلبه كان يهفو للنيلين، يدب على ضفافهما ويود العودة «بشروطه».

«واخذت اغني في شجو، المي ظاهر:
يا طير الهجرة... يا طائر
يا طيراً وجهته بلدي
خذني بالله والله انا على اهبة».

على فراش المرض، قبل يومين من اللحظات الاخيرة، لم ينس صلاح احمد ابراهيم افريقيا الجوع، وروى ساخراً «طرفة»، قال: «عندما قدم الاميركيون الى الصومال احضروا معهم قطاً اميركياً ابيض، ضخماً وسميناً ذا فرو كثيف، تظهر عليه مظاهر النعمة بوضوح. من سوء حظ هذا القط الاميركي المدلل انه التقى قطاً افريقياً شاحب اللون ضامراً.

اللقاء بين القطين كان عاصفاً، لم يترك فيه القط الاسود فرصة لنظيره الاميركي اذ عاجله بالضرب المبرح وتقاوى على نفسه ورفعه الى علو عدة مرات ضارباً به الارض حتى اغشي على صاحبنا المنعَم.

وكانت دهشة القط الاميركي لهذا التصرف كبيرة، فبادر حين استفاق من غيبوبته القط الافريقي بالقول: اتدري لقد رافقت جنود العم سام الى اكثر من مكان في العالم، كنت معهم في فيتنام وفي باناما وفي كل مكان ذهبوا اليه، وكنت استقبل بالترحاب واجول اينما شئت بخيلاء ولم اصادف مرة ما صادفت اليوم، فبالله عليك قل لي لماذا ضربتني وانت قط مثلي؟ فاجاب ابن افريقيا الضامر: انا مثلك... يا للعجب! انا يا صاح لست قطاً على رغم مظهري... انا في يوم كنت نمراً افريقياً مخيفاً... لكن يا للمجاعة؟».

لم يخلف صلاح الموعد، وغدا النيل قريباً، وعاد «من دون شروط» الى غابة الابنوس، الى المكان الذي يعشق، الى طينه الذي جف وتشقق.

الحياة - ٣١ أيار ١٩٩٣

غياب الشاعر السوداني صلاح أحمد إبراهيم

☐ لندن - من فتحي عثمان:

■ غـيّب الموت، نهـار الاثنين، السابع عشر من أيار (مايو) الشاعر والكاتب والديبلوماسي السوداني صـلاح أحـمـد ابراهيم، في أحـد مستشفيات باريس حيث كان يقيم منذ اواسط السبعينات.

ولد الشـاعـر سنة ١٩٣٣ في امدرمان (العاصمة الوطنية) ونشأ فيـهـا وسط اسرة ذات علم ودين، وكانت المدينة التي امتزجت فيها ثقافات واعراق شتى منفتحة على حركة الثقافة العربية والعالمية، ومزدحمة بالجماعات والأندية الفكرية والأدبية، ثم التحق في العام ١٩٥٤ بجامعة الخرطوم.

قرأ القرآن على يد والده، وحفظ اجزاء منه، وقرأ بعض المتون، وقرأ النحو والصرف، والمّ بالشعر الجاهلي والأموي والعباسي، وبعض الشعر الحديث من السودان ومصر وبلاد الشام والعراق. وفي جامعة الخرطوم تعرض لتأثير الدكتور عبدالمجيد عابدين والدكتور محمد النويهي والدكتور عبدالعزيز اسحق والدكتور عبدالله الطيب والدكتور إحسان عباس. واحب صلاح، طالب الأدب الانكليزي، الشعراء الرومانسيين الانكليز.

تفتحت عيونه على حركة ثقافية وفكرية وسياسية شديدة الحيوية، ارتبطت بنهضة الحركة الوطنية السودانية ونضالها ضد الاستعمار البريطاني، ونشأ في غمرة الآمال العريضة التي ارتبطت بالاستقلال وتقدم حركات التحرر الوطني في ارجاء افريقيا والعالم الثالث، وبروز التيارات التقدمية واتساع رقعة تأثير الفكر الاشتراكي... غير انه ايضاً شهد كل الانتكاسات التي لحقت بالوطن، وانهارت أمام عينيه كل الاحلام والآمال العريضة.

وسم حب السودان انتاجه الأدبي ومواقفه الفكرية والسياسية وجعله في نظر كثيرين جديراً بلقب «شاعر الشعب» فقد «كانت اعماله امتداداً للحس الوطني الرفيع لدى خليل فرح وتوفيق صالح جبريل ومحمد المهدي المجذوب... وغيرهم من الكوكبة المعروفة من شعراء السودان» كما قال الشاعر علي عبدالقيوم. ويذهب الطيب صالح، في تقديمه لديوان صلاح «غابة الأبنوس»، الى القول ان صلاح «اكثر الشعراء السودانيين «سودانية» في شخصه وفي شعره».

ومن يقرأ صلاح في اي لغة من اللغات سيقول ان هذا شاعر سوداني بحق، لكن هذا الحب العميق لوطنه «لا يحصر افقه ولا يعمي عينيه، فيتطرق في شعره لمواضيع متنوعة تمتد من كينيا الى الجزائر الى الصحراء الغربية. وهو في سودانيته تلك عربي عميق العروبة»، ويقول الطيب صالح «... ولذلك فهو يستعمل، كأنما عن عمد، كلمات من العامية السودانية، ويستعمل صوراً شعرية في سياق جديد ترتبط في الوقت نفسه بالتراث الشعري السوداني الذي يرتبط بدوره اوثق ارتباط بالشعر العربي من قديم الزمان».

امتاز شعر صلاح احمد ابراهيم، الذي رفض ان يكون من «شعراء البرج العاجي»، باللغة البسيطة المتعمدة، لأنه كان مهتماً بالوصول الى افئدة الناس وعقولهم، ورفض اللغة الاستعراضية، دون أن يحرمه ذلك من العمق وتركيب الصور والأخيلة الشعرية. وكان شاعراً مجرباً، يعود اليه الفضل في ادخال تقنية القصيدة الحديثة، وطرح في اشعاره المبكرة قضية الاستفادة من تراث الأدب العالمي وأساطيره وملاحمه، فساعد على تثقيف القراء، في نزوع لتوحيد الرؤى والمشاعر، وبفضله، ربما، يعرف كل السودانيين «ازميل فدياس».

كان صلاح احمد ابراهيم احد رواد المدرسة الواقعية في الشعر السوداني، ودافع عن ذلك بضراوة، في إدراك عميق وتأكيد على العروة الوثقى بين الثقافة والمسؤولية، وربط ربطاً محكماً بين الشكل والمضمون، وكان يؤمن بدور الفن كمحرض، خصوصاً في زمن الديكتاتوريات. واسهم في فتح النوافذ على الثقافة الافريقية مقدماً كثيراً من ابداعاتها الى القارئ السوداني، واستعان في نثره بالحكمة العربية والاسلامية ومأثور القول واللغة المحكمة.

يقول الطيب صالح عن شعره: «... يفعل ما يفعله الشعر العظيم دائماً، انه يخاطب حواسك جميعاً، السمع والبصر والشم واللمس، ويطلق لخيالك العنان، ويعطيك صوراً تنادي لك صوراً اخرى، ويربطك بما انت فيه الآن، وبما هو كامن في وجدانك، من حيث تدري ولا تدري...».

علّم صلاح اجيالاً بعده كيف يلتقطون صور الحياة الشعبية السودانية، وكيف يعتنون بالصور الشعرية وبالوصف، ويزخر ديوانيه «غضبة الهبباي» و«غابة الأبنوس» بنماذج لا حصر لها.

كان صلاح «شاعراً متميزاً من شعراء العربية في هذا العصر»، كما شهد بذلك الطيب صالح.

اتسمت حياة صلاح السياسية والفكرية بمواقف مثيرة للجدل في كثير من القضايا، ولكنه ظل على حبه للسودان من موقعه الخاص، وهو موقف كثيراً ما كان يتناقض مع الموقف العام الرسمي والمعارض.

«... كان الحسين بن الزهراء عالماً ازهرياً من اكبر ادباء السودان في القرن الماضي. اول من آمن بمهدية المهدي ودعا لها في وجه «علماء السوء»، وممن جاهد من اجلها ومات على بيعته، لم يتنكر ولم يتغير... ومع ذلك اتهم بالردّة وقتل...».

في مثل ايامنا هذه قبل مئة عام، قتل القاضي والعالم الازهري الجليل والشاعر والناثر المبدع الحسين بن الزهراء. قتل صبرا بالجوع والعطش، ودخل الجنة شهيداً. في الحديث الشريف: «قاض في الجنة، وقاضيان في النار» وكان الحسين بن الزهراء من قضاة الجنة. مئة عام مضت ولا ننساك. «وكانت في حياتك لي عظات، وانت اليوم اوعظ منك حياً».

في مثل هذه الايام قبل مئة عام، كانت «البقعة» عاصمة السودان في الاسمال، تبدو عليها الرثاثة والبدائية والارتجال الفوضوي والاكتئاب. ليس فيها ما يشرى أو يباع ولا ما يفي بضرورات الكفاف. بل كان السودان بأجمعه كذلك... خراباً يباباً. وكان المواطنون في هلع ما بعده هلع، فبجانب جهاز التجسس المخيف الذي اقامه الخليفة عبدالله التعايشي وشقيقه ووزيره الأمير يعقوب «جراب الراي» كما كان يلقّب، كان بامكان وشاية لغرض شخصي ان تفضي ببريء فوراً إلى العذاب الرهيب، بل ربما إلى حتفه.

وكانت الشائعات تملأ «البقعة المباركة» ـ ام درمان ـ بل كانت هذه تعيش على الشائعات والهمس المستريب. وكانت تظلل وجوه الناس التعساء والغم، فقد كان الجميع تحت نعل ارهاب ديني حديدي مقيت، وعهد سيماؤه الخطف والنهب والغصب والنفاق والتهجم، حتى لقد صارت كلمة «مهدية» تعني الفوضى حتى يومنا هذا، اذ كثيراً ما يتساءل سائل باستنكار «اهل صارت الدنيا مهدية؟» ومع ذلك فما كان الحكم الذي سبقها بافضل، حكم الخازوق التركي والكرباج والسخرة والرشوة والفساد، مما برر الثورة المهدية نفسها: «عشرة رجال في تربة، ولا ريال في طلبه» أي في سخرة، او كما قالت بنت مكاوي للمهدي تحرّضه: «ان طالب الوبر واسيه بالجزّة، وإمّا عمّ نيل ما فرّخت وزّة».

هكذا كان عهد خليفة المهدي وارهابه الديني، او قل اللاديني في حقيقته، حيث توفي الامام المهدي عليه السلام فور استلامه الخرطوم وتحريره السودان باكمله من الاجنبي. من جهة أخرى، كان «انصار» الوضع ومؤيدوه والمستفيدون منه، يبدون التفاؤل الابله، والاعتذار المرائي، يزعمون كل شيء على ما يرام، وان دولة خليفة المهدي منيعة لا تنال، وما كان ذاك سوى وهم كبير، جدّ كبير. فما هي إلا بضعة اعوام معدودات على الاصابع، حتى أخذت دولة الجور والطغيان تتداعى وكانها تلفيق عشوائي من القش والصفيح عصفت به ريح صرصر عاتية، او بيت عنكبوت وان أوهى البيوت لبيت العنكبوت.

لا جدال، ان اسوأ وابشع وادنأ ارهاب عرفه كوكب الارض هو الارهاب باسم الدين ـ أي دين! ذلك لأن اكثر قوة هيمنة على النفوس، واهم حافز للقبول والفعل المقدس هو الدين. غير ان الاسلام ـ بخاصة ـ هو دين عقل ورحمة، ودين عدل ورأفة، ودين بر واحسان، ودين خلق رفيع وذمة. لذلك من يعطل هذه القيم الجوهرية فيه باسم حكم اسلامي غرضه تسليط الذات على الآخرين، وحرمان العباد من حقهم في الحرية والحياة والكرامة، فانه يكون قد عطل الاسلام نفسه، وأبقى نفسه في السلطة من غير اسلام، وان حاول ستر عورته باسم الإسلام. هذا ما فعله لحد كبير خليفة المهدي.

كان حكمه جائراً لا دفع لذلك. وأي حكم جائر لا محالة إلى زوال ـ طال امده أم قصر. والنفس أمّارة بالسوء، وشهوة السلطة اعتى من شهوة الجنس وأبقى. ولا اسهل من استعذاب الوهم بالبقاء وبالحصانة. ومن مأمنه يؤتى الحريص.

كان الحسين بن الزهراء عالماً ازهرياً من اكبر أدباء السودان في القرن الماضي. اول من آمن بمهدية المهدي ودعا لها في وجه «علماء السوء» كما اسماهم الامام المهدي، وممن جاهد من اجلها ومات على بيعته لم يتنكر ولم يتغير. ومن شعره همزيته التي كتبها والثورة المهدية في مستهلها يمدح فيها محمد أحمد المهدي:

بَرَح الخَفَاء ما الحقُّ فيه خفاءُ ... وتوالت الآيات والانباء

ويقول فيها:

عاش «ابن سيناء» جهده أوصافها ... بشفائه، فإذا هي العنقاء

دقّت ورقّت وارتقت في سكرة ... بلمى شفاه دونها الصهباء

كيف التواصل والقوى نهت السرى ... إذ مسّها من ضعفها الاعياء

فتنزّلت حاجاتها في سوحِ مَن ... بحمولهم تتنزّل الضعفاء

ودعا بها لله دعوة قاهر ... سمعت بعزٍّ مكانها العظماء

فأجابه أهل النهى في طاعة ... سفكت بها قبل اللقاء دماء

ذاك الرفيق الزمْه واترك غيره ... ربْطُ الجياد لغير ذلك ثواء

ومع ذلك اتهم بالرّدة وقتل. لماذا اتهم في دينه اذن، وقتل؟ اليك شهادة شاهد عيان ومراقب امين للدولة المهدية، هو «يوسف ميخائيل» القبطي السوداني الذي صار أمير راية الاقباط على عهد خليفة المهدي، وحافظ سرّ الخليفة، والذي لم يتردد قط في الدفاع جهراً في أروقة وزارة الحربية المصرية عن الخليفة المقتول بعد سقوط دولته، وهو موقف لم يكن يتخذه بتلك الجراة إلا رجل ذو خلق رفيع وجسارة نادرة. الا رجل جدير بالاحترام. يكتب ميخائيل في مذكراته بأسلوبه العفوي ولهجته السودانية التي تنثال منه كما واتته دون تجويد:

«ومن بعده (أي القاضي احمد علي الذي قتل هو ايضاً صبراً وكان رجلاً نزيهاً وشجاعاً حزن عليه الشعب) عملوا الشيخ الحسين ولد الزهرة، الرجل العالم الجليل. مكث مدّته من الزمان، وحضرت قضية مشكلة من «دنقلة» بخصوص بعض الانصار ظلموا بعضاً من أهالي «دنقلة» وقدموا في حقهم شكوى لقاضي «دنقلة» والمذكور احالها إلى قاضي القضاة بام درمان، وصار القاضي العمومي ولد الزهرة رجل متقدم في السن وشرع بحضور القضية. توجهّوا الانصار للامير يعقوب لاجل ما يوصّي القاضي عليهم بعدم تنفيذ الحكم عليهم. وارسل الامير يعقوب للقاضي ولد الزهرة، وقال له: قضية اهل «دنقلة» مع الانصار، لا يكون فيها تنفيذ الحكم على الانصار، بل أصرفهم حيث كان». قال القاضي: يا السيد يعقوب، انا رجل ماشي على حسب الكتاب والسنة لا نحيد عن الحق، ولا نخشى لومة لائم في الشرع الشريف، بل نقضي بوجه الحق المرضي. قام من عنده زعلان، والأمير يعقوب حصل له أشد الغضب وقال: القاضي الحسين ولد الزهرة استردّ عن الاسلام ووجب عليه القتل». وتوجّه إلى خليفة المهدي وقال له: الحسين ولد الزهرة استردّ عن الاسلام، بوجود جملة من الانصار وأمام القاضي «حسين ولد جزو الخمَري». حالاً حضرت عليه شهود بالزور، وصار سجنه في المربوعة (أصغر من متر في متر) التي مات فيها القاضي احمد علي. ادخلوه فيها وصار تطويبها عليه ومات عطشاً وجوعاً كمثل اخوانه. غير انه مكث تسعة ايام حتى مات ظلماً (ظلماً؟). والأمير يعقوب ليس ترك راس كبير في أي قبيلة، او أي انسان يعارضه في احكامه. وليس في (فيه، بمعنى هناك) قاضي ماشي على حسب افكاره إلا حسين ولد جزو». انتهى يوسف ميخائيل.

كانت كلمة «مخالف» تطلق انذاك على كل شخص يريد النظام التخلص منه، مثلما كلمة «مرتد» و«شقي». وكان قضاة النظام المهدوي ـ قضاة النار ـ من امثال حسين ولد جزو جاهزين، مثلما شهود الزور أيضاً والمنافقين. ولم يكن بذلك للاسلام ولا لشرع الله وسنة رسوله مكان مريح في دولة الخليفة، بل كانا مجرد ذريعة لتمرير كل ما يغضب الله، ويخالف الشرع والسنة اللذين كان يمثلهما كثير من شهداء ذلك النظام ـ ضحاياه.

كان الهاجس الأول والاهم وربما الأوحد احياناً، أمنه الشخصي وامن حكمه المستبد. لم يكن يتردد في سفك الدماء بقسوة وفظاظة وهمجية يتوهم ان ذلك سيبقيه في الحكم رضي الشعب ام لم يرض، او ان ذلك سيبقي دولته. هكذا نصب المشانق للكبابيش، وللبطاحين حتى كان الشيب والشبان كما حكى شهود العيان يتسابقون يريد كل منهم ان يسبق احباءه الى المنية، بما يذكرني بقولة شاعرنا علي عبدالقيوم الفاخرة: «اي المشانق لم نزلزل بالثبات وقارها؟» ثم ارسل الخليفة جيشه إلى «المتمّة» عاصمة الجعليين فأحدث فيها مذبحة هائلة. اما الارهاب الفردي والجماعي فقد اخضع له الشعب جميعاً.

أدّى تقديمه اعتبارات أمنه وامن حكمه الفردي إلى تمزيق الوحدة الوطنية الرائعة التي نسج وحدتها الامام المهدي من الشرق إلى الغرب ومن الشمال الى الجنوب حتى دخل في اغنيات الدينكا كما ذكر الدكتور فرانسيس دينق في كتابه «تراث الدينكا». فاذا بالبلاد تقابل الغازي المحتل باقتصاد رث منهار، وقدرات منهكة مبدّدة، وارادة قومية منتهكة، وبقلوب شتى وضغائن دفينة، فتهاوت دولة استقلالنا التي انتظمت السودان بأسره كما هي حدوده الآن. تهاوت وكأنها بيت من ورق، ولولا أنه شعب ذو صفات مذهلة ما استطاع ان يقف وقفاته البطولية تلك، التي جعلت العدو يفغر فاه دهشة فإنبهار، ويكن له احتراماً باقياً حتى اليوم. تكفي شهادة الشاعر «روديارد كيبلينغ» والمراسل الحربي في السودان وقتها «ونستون تشرشل».

جسّد هذه الصفات كثير من ابنائه في مناسبات عديدة. في هذه اللحظة يحضرني منهم واحد هو بحد ذاته قمة شاهقة. اعني به «الرجل العالم الجليل» ـ بكلمات مُزامنه يوسف ميخائيل ـ والقاضي العادل الصنديد حتى الشهادة: الحسين بنَ الزهراء، الثائر والناثر والشاعر والعالم وقاضي العدالة. ذلك الذي لم يحد عن الحق، ولم يخش في الشرع الشريف لومة لائم. الـ... «ماشي على حسب الكتاب والسنة» كما جابه بها الطاغية الكذوب المفترى بدهائه البخس واعتزازه بالإثم.

مئة عام تقريباً مرّت على قتله صبرا ـ جوعاً وعطشاً ـ داخل «المربوعة»، مئة عام تقريباً مرّت، حسرتا على السودان منجب الشجعان وذوي الانصاف والعدل والاقدام وقولة الحق ـ عليك سلام الله يا حسين بن الزهراء. ولا كنّا منك ان تخلينا عن الضعيف والمظلوم، أو جفلنا عن قولة الحق، أو وجفت قلوبنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، او بعنا كرامتنا بدنية طمعاً في لعاعة من لعاعات الدنيا. عليك ايها الشهيد سلام الله ورضوانه ما بقيت في السودان ذاكرة تستحضر وأحدوثة تعظ، وإبن على خطك يسير، ولله الامر من قبل ومن بعد، فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل حتى قيام الساعة■

اليوم السابع ـ ١٨ حزيران ١٩٩٠.

«... وحين رفعت ام قدري «طفل السيدا»، ورصعت مؤخرته الضامرة المتكرمشة تلك الرصعة الحازمة المليئة حباً، وسمعت الصرخة الشجاعة الحلوة من رئتين تمتلآن بالهواء للمرة الاولى، والدم الملوث بالفيروس الفاتك ينقط جارياً من كفيها ومعصميها، رقص قلبها رقصة الانشراح...».

الداء ـ أي داء ـ ليس بذاته نقمة الهية او عقاباً او لعنة وان كان تعالى على كل شيء قدير. فالنفر الذين يفسرونه بكونه كذلك، عليهم ان يعلّلوا لنا مشكورين لماذا يصيب الداء (ان كان كذلك) بل ويموت به ـ وليس بالهرم ـ انبياء اصطفاهم الله وطهرهم قبل بعثهم. وحتى في حالات المرض التناسلي على اولئك النفر ان يعللوا لنا مشكورين لماذا يضرس الابناء وما اكلوا هم الحصرم. ولماذا يأخذ رب اسمه الحق والعدل تعالى وحاشاه، البريء بجريرة المذنب وهو الذي حرم على نفسه الظلم. فالتبرع بمثل هذا الاجتهادات اللامنطقية التبسيطية الكابية ـ وان كان مبعثها كما نعلم الغيرة على العفة والمسلكية القويمة ـ من دون سلطان بها منه تعالى افتراء بالكذب عليه ـ واخطر ما فيها، انها تقلّل من قدرة واضعيها ومروجيها من اعلاميين ودعاة اخلاقيين على التعليل العقلاني المتماسك والمقنع في عصر الاكتشافات الطبية المذهلة، والاختراقات العلمية الجبارة، بما يظهر الدين (وبرؤ من ذلك) وكأنه توأم للعلم التجريبي سوى انه متخلف عقلياً. ويحيل مقولات اولئك الهداة برغم حسن مقاصدهم الى مثل شعوذات القرون المظلمة وحيثيات المحارق على الصلبان، حين كان المرض العادي يفسر بحلول شيطان في الجسد ناهيك عن الطاعون مثلاً والله اعلم. فلماذا يغضب الحليم اللطيف تنزه سبحانه غضباً حتى الانتقام، على طفل نقل اليه بخطأ غير مقصود دماً ملوثاً وما وزر ذلك الطفل وزراً ولا استوجب غضباً وانتقاماً؟

اما الجهل الماحق الآخر، المزري بصاحبه والمخزي له حقاً، فالذي يعبر عنه هلع ولا هلع الصبية الجهال، ينتاب بعض اهل الاستنارة العلمية وجوباً، وبالاخص المنتمين الى المهن الطبية، ممن توقف بهم الاطلاع التحصيلي والمتابعة العلمية عند استلام اجازاتهم الاكاديمية فاعتري مداركهم صدأ كثيف فاذا هم في امية مقنعة وجهالة بلهاء، غائباً عنهم في مثل حالة هذه السيدة الحبلى (راجع «آفاق» في العدد الفائت من «اليوم السابع») ما استيقن منه البحث العلمي في صراعه الجبار وسباقه المنتصر باذن الله، حول الحقائق الاساسية عن فصائل فيروساته ووسائل عدواه وأساليب ختله وانقضاضه، مؤكداً بالنتائج الجازمة بان الشخص في امان تام عند الاحتكاك العادي بالمصاب في الحياة اليومية، ما لم يتحرش الشخص بالفيروس مباشرة عبر معاشرة جنسية من غير واق مطاطي (حتى ولو كانت مجازة اجتماعياً ودينياً) او بتمثل دم ملوث به بأي طريق كان (ولو بفعل طبي). وعليه، فالهلع البهيمي الجهول، والجهل الصبياني المذعور (والا فانعدام الانسانية تماماً) اللذان ابدى احدهما او الآخر ان لم يكونا ذات الشيء، ذلك النفر المهني وهم يتفرجون على امرأة تتوجع امامهم مباشرة بحاجة اليهم، مستنكفين عن التدخل الواجب وتقديم المساعدة اللازمة، مستمدين امانهم من الزجاج السميك العازل، كمن يشاهد ولادة لبوءة من وراء قضبان قفصها في حديقة للحيوان، امره عجب. بل هو كما اسلفنا القول: جهل مزري، وهلع مخزي، وتقصير فاحش، وفرار من الواجب، وقسوة قلب.

في تلك البرهة قادت «ام قدري» قدماها بمشيئة من الله الى ذلك المكان موضع الفرجة الجماعية برخصة او تلصصاً ـ اغلب الظن بالطريقة نفسها التي جاءت بغيرها لا سيما باللغط المتصاعد حول ذلك الجدار الزجاجي الذي كثوب الرياء، تساءلت ام قدري في وقارها المعهود ورباطة جأشها الواثقة: ماذا يجري هنا؟ جاءها متبرعاً رد في تنقيز طفل تملكه طرب وحبور: لقد جاء المرأة المصابة بالايدز الطلق. انظريها جاءها الوجع. انظري! انظري! او شيء من هذا القبيل. لم تفهم، فاستوضحت في استغراب وحيرة: ولماذا هي وحدها لا يساعدها احد؟ استدارت اليها الرؤوس مستنكرة سؤالها المحرج والساذج والنشاز، فكأنها لم تسمع قط بالايدز، ولا تعلم ان كل من فقد عقله مخاطراً بالاقتراب من تلك المصابة بالايدز الفتاك، سيهجم عليه غول ذلك المرض وانيابه تقطر دماً لافتراسه في التو وامام الجميع لا محالة. او كأنها لا تعلم ان قطرة واحدة تطير من دم تلك المرأة المصابة به كافية لابادتهم كلهم في ثانية ولا قنبلة هيروشيما! لا بل حدجوا المرأة المتسائلة بنظرات الاحتجاج وأسئلتها البائخة تكاد تقتل متعتهم.

ما ان تبين لأم قدري حقيقة ما يجري، حتى استلّت من صميمها، استلالة ذي الفقار من غمده، انتهارة غضب كبرى، ملؤها الاستنكار والاحتقار والاستفظاع:

«ايدز، ايه وكلام ايه؟ يا عالم انتو ما عندكوش رحمة ولا خوف من الله؟ ازاي بس تخلوها كده ست غلبانة لوحدها في الحالة دي، ازاي؟

شقت طريقها تزيحهم عن أمامها بقوة وكأنهم ذباب تهشه بعيداً عنها في ضجر، متجهة بخطوات ثابتة الى غرفة الرعب، إلى امرأة منبوذة معزولة وحدها بزجاج مانع، تحاماها تماماً: الطب، والانسانية، والمروءة، والعطف ـ متروكة تولد نفسها بنفسها كما يفعل انسان الغاب والكهوف ـ ان لم نقل الحيوان. وبينما ام قدري تتجه باقدام مطمئنة ثابتة الى غرفة الرعب حيث كان الموت ينشر عباءته، والعيون تتبعها محملقة، والاحناك متدلية في ذهول، كانت تشمر بتؤدة اكمامها ترتسم على وجهها صرامة، ينتفي عن قسماتها اي تردد وعن قلبها اي خوف. ولعلّه لو تجسّد «الايدز» قاطع طريق يسد عليها ذلك المدخل بذراعيه الجبارتين لازاحته بانتهارة كالزلزلة وبدفعة رهيبة وتخطته داخلة لما ازمعته. هكذا اتجهت مباشرة الى حيث كانت المرأة تتلوى وتئن وتتوجع لم يخطر لأم قدري تغطية يديها بقفازات المطاط حتى، ولا تكترث ان كان بالمرأة «ايدز» أو لم يكن.

وقتئذ تجسدت ام قدري خفقة حنان من فؤاد الرحمن ـ تعالى علواً كبيراً وتنزّه عن كل تشبيه وشبيه ـ حيال تلك السيدة المتباعدة الرجلين تفسحان الطريق للقادم الجديد، تلك السيدة «الفرجة» التريكة خلف زجاجهم العازل. تجسدت يد الله اللاحقة التي لا تخذل الفازع اليها لحظة الضيق والحرج. كانت الايمان الخالص والشجاعة البحتة. وكان قلبها الاسعاف المندفع كالسهم لغياث الملهوف، والجندي المقدام يجازف بحياته في مهجة الخطر لا تخطر له روحه الحلوة على بال حتى الاستشهاد ـ ان كان لا بد ـ في سبيل الواجب المقدس. هكذا لم تعد المرأة حاملة الموت في دمها وحدها الآن، وام قدري تعيد لها الطمأنينة بالكفاءة المهنية العالية. لم تعد المرأة الوحيدة في معزلها الزجاجي وحدها فمعها ام قدري. صارتا اثنتين والموت ثالثهما. لا بل اثنتين والأمل ثالثهما. وحلّ ثالثهما ـ الأمل ـ في صورة طفل وليد.

وحين رفعت ام قدري طفل «الايدز» ورصعت مؤخرته الضامرة المتكرمشة تلك الرصعة الحازمة المليئة حباً، وسمعت الصرخة الشجاعة الحلوة من رئتين تمتلآن بالهواء للمرة الاولى، والدم الملوث بالفيروس الفتاك ينقط جارياً من كفيها ومعصميها، رقص قلبها رقصة الارتياح والانشراح التي تعرفها كلما فرجت عن حبلى ساعة الطلق الكربة والكبد، واستقبلت بيديها روحاً زكية جديدة تحمل الامل والمستقبل. رقصة ارتياح وانشراح لم يجعلها «الايدز» المتربص بمقربة تختلف البتة عما كانت تحس به عادة في مثل هذا الموقف، حامدة ربها ان تمّ كل شيء كما تمنّت ان يكون بتوفيق من عنده. وبعد ان انهت مهمتها، انصرفت باغتباط وخطى واثقة وضمير مرتاح، على حين لم يجرؤ «الايدز» على تلويث افكارها بخاطرة خوف واحدة. كان هو الذي خافها الجبان ـ خاف هذه المصرية الشهمة الشجاعة وراء كافة حدود الامكان والتصور.

أكتب هذا لك وعنك يا ام قدري، انا لا اعرفك وانت التي لا تقرائينني. اكتب هذا عنك يا سيدتي الجليلة النبيلة الاصيلة. اكتب هذا عنك يا من كان اداء الواجب المقدس، واعتمادك على الله، وجود نفسك، اقوى لديك من الخوف واقوى من الداء المتحفز، واعتى من الموت المتربص، ثم كان انقاذ اخرى اهم لديك من انقاذ نفسك. اكتب هذا عنك يا اشجع الناس واكرم الناس، يا من تطأطىء الاوصاف راسها امام وصفك عاجزة عن الانصاف، فتخذل مشاعري الكلمات.

وهنا انا إذ اقبل منك الجبين، اقبل منك اليدين، اقبل منك القدمين، لا اكاد اميز ايكما الماثلة امامي: انت يا ام قدري، ام هي مصر الحقيقة، مصر الجليلة النبيلة الاصيلة، مصر الشعب الطاهرة النية والطوية، المؤمنة بالله وبالنفس وبالانسان. فقد وجدتكما معاً ايتها المتماهيتان، مثلما كل ام مصرية شريفة لابن مصري شريف ـ كما ام قدري وقدري ـ وجدتكم جميعاً، وبرغم كثير غثاء ويا له من غثاء، جديرين بالاحترام، جديرين بالمحبة، جديرين بالثناء■

«... تحية لاناس بسطاء، ربما ازدرتهم العين حين تقع عليهم، ولكنهم شرفاء، يواقيت يخوض النار جوهرهم، يركزون وقت الحارّة ـ بكلام بلادهم ـ ويذكرون العهد في لحظة لا يذكر الانسان إلا روحه الحلوة، ولا يتفكر إلا بالنجاة...».

وقعت تحت عيني مقالة مؤثرة في صحيفة «الخليج» التي تصدر بالشارقة عدد يوم ٨ آذار (مارس) الحالي. كتبها الاستاذ «معروف سويد». صدّر المقالة بالعناوين التالية: «شباب السودان احباب لبنان. النادي العربي الوحيد في بيروت سوداني. كيف شارك الاخوة السودانيون بأعمال الاغاثة». وها انا اقتطف جانباً من تلك المقالة الطويلة، تحية لمن قاموا بواجب لا يريدون منه ـ في يقيني ـ جزاءً ولا شكورا. يبادلون به الاحسان بالاحسان. يدفعون به اسم بلادهم في صمت، وبلادهم نفسها ملقاة على الأرض تنزف. عساي ان اعبر بهذا عن محبتي لهم وامتناني، هم الذين عبّروا عن محبتهم وامتنانهم للبنان ومن أولاهم الجميل من ابناء لبنان. وقى الله لبنان مسيحييه ومسلميه معاً شر الفتن وقادهم برحمة منه في طريق السلام والوئام والحكمة، مثلما السودان. وها أنا أورد ما اخترته من مقالة الاستاذ «معروف سويد»، الجانب المتعلق ببيروت:

«تحية لابناء السودان سواءً كانوا في الخرطوم وام درمان، او اولئك الذين ما زالوا في لبنان. تحية للبواسل الكرماء الشجعان. فقد أعطونا في الأسابيع الثلاثة الماضية اروع القصص حول مبادلة الوفاء بوفاء والعرفان بعرفان. إني، وأنا اكتب هذا المقال، وأنا اللبناني الذي في بيروت، ومن قبله عاش ابوه، احني رأسي تحية واحتراماً للاخ جاد المولى ابراهيم، المواطن السوداني، الذي يرعى شمل الجالية السودانية، ومعها شمل «جالية» لبنانية «مستحدثة». كيف؟

«نوضح اولاً، ان الحرب «عونجعجعية» القذرة، القت في غربي بيروت عائلات كثيرة هاربة من حرب «عون ـ جعجع». لذلك اطلقت عليها كلمة «جالية» لبنانية وفي قلمي غصة تكاد تحبس عن ورقي الحبر».

«أما الجالية السودانية، فبعضها يعمل ويعيش غرباً، وبعضها يعمل ويعيش شرقاً، والاخوة من اهل السودان الذين في الغربية كانوا وما يزالون متميزين عن اية جالية عربية. صحيح انهم كلهم من طبقة العاملين، الذين يندر ان يملك الواحد منهم، رصيداً في بنك، او حتى حساب ادخار. الا انهم من الناحية الاجتماعية اثبتوا في ايام ازدهار لبنان كما في ايام انهياره، انهم الجالية العربية الوحيدة التي انشأت لها نادياً اطلقت عليه اسم «النادي الثقافي الاجتماعي في لبنان». وهذا النادي يقع شمالي شارع الحمراء، وعلى بعد مائة متراً من مستشفى الجامعة الاميركية. فهم اذن على الرغم من مستواهم المادي البسيط اقاموا ناديهم.. وأين؟ في مكان كان يعتبر ولما يزل من ارقى الامكنة التجارية والسكنية في بيروت».

«ولوجه الحق وللحقيقة، اشهد اني طيلة ممارستي لمسؤولياتي الرسمية، لم اتلق شكوى ضد اي سوداني... على خلاف ما يحدث عند جاليات كثيرة، اوروبية واميركية وآسيوية وشرق اوسطية. كل سوداني عندنا عاش ما عاش بيننا مثال الامانة، وبمنتهى العفة، وغاية الاخلاص. لم يحقق مع أحد، لم يسجن أحد، لم يوضع خارج البلد أحد».

«وتحيتي لابناء السودان ليست بسبب ما ذكرت اعلاه، تحيتي لهم كانت مبللة بدمع العيون... ففي وقت الضيق يعرف الأخ والصديق... كيف؟

«تلفن لي الاخ جاد المولى وقال:

«ـ اخ أبو نبيل... هل تستطيع استقبالي؟

«وبادرته: على الرحب والسعة.. وفي أي وقت تريد؟

«قال: فوراً..

«بعد ذلك جاءني وفي شفتيه كلام.. وفي عينيه دموع.. وقال:

«ـ عندي مشكلة.. تتعلق بالاخوة السودانيين في شرقي بيروت.. حيث الحرب.

«ـ خيراً ما لهم؟... هل قتل احد؟

«ـ ابداً والحمد لله..

«ـ هل استطاعوا الهروب والوصول اليكم؟

«قال: لا.. ولكنهم اتصلوا بنا، وكلفونا بتأمين مأوى لبعض الناس الذين يعملون لديهم.. والذين استطاعوا الوصول الينا..

«ـ واخوانك الذين هم هناك؟

«قال باعتزاز: بقوا حيث هم.. فالناس الذين وصلوا اغلبهم من العجائز والأطفال... بقوا حيث هم، ورفضوا الهرب.. فمن طبائع السوداني الا يترك من شاركه السراء إذا وقع في الضراء.

«انها الشهامة بعينها.. لذلك قلت في مطلع مقالي ان تحيتي للاخوة السودانيين مبللة بالدموع»...

«ـ وماذا فعلتم؟

«هكذا سألته، فأجاب:

«ـ لقد فتحنا لهم النادي، وحولناه الى نزل ينزلون فيه، وجمع بعضنا من بعضنا الآخر ما تيسر لاغاثتهم..

«ـ وماذا تريدني أن افعل؟

«ـ كل الذي نحتاج اليه، بعض «الحرامات والمراتب» لتيسير نوم الاخوة اللبنانيين... وبعض مواد التموين، لذلك جئت الليلة اوسطك عند الدكتور عبد الله الراسي، رئيس الهيئة العليا للاغاثة، لاستعجال مواد الاغاثة هذه.. والف شكر.

«وقمت، وقصدت الهيئة العليا للاغاثة.. وهي بدورها استجابت بسرعة.. ورحت عشية كتابة هذا المقال، اعاين ما جرى في النادي المكتبة ازيحت فاصبحت قاعة نوم، وكذلك الطاولات في الغرف..

واروع ما شاهدت ان النادي، وقد تحول إلى نزل طاريء، خضع بدوره إلى حالة من حالات الطوارىء.. فقد نظم الأخوة السودانيون فريق عمل، يعمل على مدار الساعة دون أن يتعطل العمل الأساسي لاي واحد من أعضاء الفريق، بحيث يتناوب على رعاية النزلاء الجدد، ثلاثة سودانيين قبل الظهر، وثلاثة بعد الظهر.. واثنان ليلاً.. وهكذا.. وهكذا تستحق هذه البادرة الانسانية الوطنية التنويه بها والثناء عليها. والف تحية يا جاد المولى ابراهيم لك ولاخوانك البواسل الشجعان الشرفاء. والآن... الآن تعالوا معي أيها القراء إلى بعض ذكرياتي في السودان.. البلد العربي المظلوم.. ذي الحق المهضوم...».

«انتهى ما أردت اطلاعك عليه من رسالة طويلة من بيروت إلى الخليج. فدعني أوجه بدوري تحية واحتراماً ومحبة لكاتبها، اولاً لانه اشاع مأثرة عن بعض بني قومي فلي بعض حق في الاعتزاز بما اورده من هذه الناحية. وثانياً، وبغض النظر عن انتمائهم، فان حساسيته وما فيه من فضل هو الذي حدا به الى كتابة ما كتب ولا يعرف الفضل ويعترف به إلّا ذوو الفضل.

ودعني اتوجه بالتحية والتقدير والمحبة لما قاموا به وما كانوا في حسباني يحلمون بأن يروه منشوراً على الصحف لولا ان قيض لهم الله قلباً حافظاً وقلماً كاتباً. كم افرحت المقالة مواطنين لهم في الخليج قراوها، وكم اشعرتهم بالاعتزاز.. فيالله من ذا الذي صار يذكر سودانهم «المظلوم، ذا الحق المهضوم بخير، في ايام تعاسته هذه، وكما يقول السودانيون: «الفيل ان وقع، كثرت سكاكينه».

تحية لاناس بسطاء، ربما ازدرتهم العين حين تقع عليهم، ولكنهم شرفاء، يواقيت يخوض النار جوهرهم، «يركزون وقت الحارّة» ـ بكلام بلادهم ـ ويذكرون العهد في لحظة لا يذكر الانسان إلّا روحه الحلوة، ولا يتفكر إلّا بالنجاة. تحية لك يا جاد المولى، قرات هذا المقال ام لم تقراه، الم تحفز لبنانياً صاحب قلم وبيان لان يخصص «مقالاً كاملاً عن بعض ابناء بلده ـ يعنيك ويراه حقاً لك يا جاد المولى ـ لقاء ما خفف من هموم عن بعض ابناء بلدي، وما اكتب جزاءً بجزاء» كما قال.

اكتب هذا وتضج في ذاكرتي ابيات من شعرنا السودان الشعبي، يا طالما رددناها، او استمعنا إليها تردد بصوت بدوي شجي، ونحن صغار:

انا حلال رفيقو
انا فرج الرجال وقت ان يضيقوا
انا المأمون على بنوت (بنات) فريقو (فريقه)

فاراكم بعين خيالي في النادي السوداني ببيروت، هممتكم مشمّرة، ليست لكم متعة تعادل متعة ان تروا ضيوفكم اطمانوا وارتاحوا وافعالكم تترجم قولة شاعرنا العربي «واني لعبد الضيف ما دام باقياً».. فل املك لجوانحي إلّا ان تمتلىء محبة واحتراماً وامتناناً لكم يا سفراء السودان الذين اوراق اعتمادهم اخلاقهم ■

«... ومصر التي انحني بكل محبة وتبجيل، الثم جبينها، ثم اعيد ضارعاً بكل كياني، ان اعزك الله يا كنانة الله، جسدتها في خاطري امراة واحدة، امراة ليس فيها ما يستوقفك إن قابلتها وحكمت بالمظهر. امراة ليس فيها ما يميزها عن نساء كثيرات سوى كونهن لم تسنح لهن مناسبة، او يصادفن مراسلاً ادبياً ينقل احدوثتهن او ينوه بذكرهن...».

لكثرة ما في مصر من غثاء، يتوهّم واهم ان ليس فيها غير غثاء. لا يرى من بحرها الرحب العميق غير موجة تتبع موجة دون نهاية من الطحالب والزَبَد الذاهب جفاء. هكذا دواليك حتى يفاجئهم العباب الصبور ذات يوم على طرف منه بالصدفة الشاهقة عن درة فريدة تؤنب بتلماعها الصامت المتسامي من نسي ومن أساء، بأن في اعماقه كنوزاً شتى وأن لم تتفطن لها العين. فلا يملك المنصف الأمين المقر بالحق، إلا أن يعتذر لمصر إم الكنوز والدرر. يقبّل جبينها، يقبّل يديها، يقبّل قدميها. ومصر دائماً هي هي البحر الأوقيانوس في رحابة صدرها. مصر أم الأعماق المعطاءة، ذات الدرر اللألاءة، مصر الحقيقة لا الأخرى، مصر الأصالة التي لا نملك إلا أن نحبها ونجلّها. ذلك لأننا نعرف براءتها من عقابيل العسف المملوكي بكل فظاظته وغلاظته وفساده والخيلاء، براءتها من الاستخذاء المعتاد أما البهرج الفرنجي اللصّاق والزيف الغربي بكل قيمه الانانية الجلفة الجوفاء، براءتها من تكالب السفلة وتهافت الساقطين المستجشعين الأشبه بالذباب والذئاب الناهشة اللحم الآدمي حتى العظم ممن شملهم ذلك الغثاء، ويا له!

ومصر التي انحني لحظتي هذه بكل محبة وتبجيل، الثم جبينها، الثم راحتيها، الثم قدميها، ثم اعيد ضارعاً بكل كياني ان وقاك وأعزّك الله يا كنانة الله، يا منجبة يا والدة، جسّدتها في خاطري امراة واحدة. إمراة ليس فيها ما يستوقفك ان قابلتها وحكمت بالمظهر. امْرأة ليس فيها ما يميّزها عن سواها من نساء كثيرات امثالها في مصر، سوى كونهن لم تسنح لهن مناسبة، أو بغير ذلك لم يصادفن مراسلاً صحفياً او معلقاً ادبياً ينقل أحدوثتهن او ينوّه بذكرهن. امراة ـ كما الجندي المجهول ـ لم تقع عيني على صورة لها حتى اتمثل بعض ملامحها ـ وهل يهم؟ بطلة دون أن تدري (لو لم تفاجأ به يقال عنها أو لها. وحتى اسمها الحقيقي لا نعرفه نحن الذين وصلنا خبرها. كل ما نعرفه انها تلقّب بأم قدري. أم قدري وبس!).

قابلة، كأية قابلة أخرى، اعتادت ان تسحب بيديها رؤوس المواليد لتوّهم من ارحام امهاتهم ليمارسوا حياتهم المستقلة للمرة الاولى. لم تكن شاعرية المزاج حالمة الخيال لتنظر نظرة تأملية حالمة للحظة الميلاد الرائعة ـ الشاعرية فوق كل تصور ومع ذلك النثرية التفاصيل. مجرد داية محترفة ـ داية عملية. بلا قدرة ولا رغبة في سفسطة ما تقوم به أو تزويقه. كل ما يعنيها منه انجازه بعناية في أقصر وقت، بأقل وجع، وبدون خطأ. كما تعلّمت وتعوّدت. بما يسهّل على الأم والجنين معاً. ترفع عالياً الوليد الخارج لتوّه للعالم مغمض العينين، ترفعه منكوساً، تمسك قبضتها به من هشاشة ساقيه الجديدتين، وترصع كفها الأخرى مؤخرته الضامرة المتكرمشة المخضبة بدم الولادة، حتى إذا اطلق صرخته الاولى معلناً تنفّسه، غسلته ومدّته لامه تضمه في حنو وزهو وتعطيه ثديها المدرار. أما هي فتعتبر مهمتها انتهت على خير فتحمد الله على التيسير.

بلى، ربما قالت للأم لحظتئذ: «مبروك» أو «ما شاء الله» أو «ما احلاه او احلاها» وهي تعلن لها جنس الطفل ذكراً أم انثى وسيّان لديها. أو ربما انصرفت لاستكمال نظافة يديها وترتيب المكان من فوضاه المبدعة، دون أن تفوه بكلمة مزيدة ما لها من داع. أو قد ترمق الوالدة ووليدها ببسمة حانية أو نظرة رانية. ولكن المؤكد أنها دائماً تنجز عملها بمنتهى المسؤولية. ولعلها تعتبره تسخيراً من خالق بارىء بتدبير لطيف لمساعدة خلقه في هذه اللحظات الحرجة. فتعزو لنفسها أهمية خاصة من غير تورم في الذات، وان لم يعترف بذلك احد حق عرفانه، او يقدره حق قدره، إلا عند الضرورة نفسها وفي بلابل القلق حين الموت للحياة بمرصاد.

ولعلّها كانت ستواصل رسالتها هذه بما جبلت عليه من تواضع وبساطة وانمحاء حتى يحين توقفها بهذا الموجب او ذاك عن الاداء. دون ان يصل إلى علمنا كونها هناك، او كونها هي ايضاً مصر الحقيقة بذاتها وصفاتها، لولا أن حدث صدفة ما حدث، فصيّرها ـ وان لم تسعَ اليه لمأرب شخصي ـ سيدة المشهد وبطلته الفذّة وموضوع الخبر المؤثر المثير. دون ان تتفطن وقتها لكونها أقدمت على فعل في حقيقته متميز ومذهل وخطير، تستحق عليه الاشادة والاثابة والتقدير.

فماذا فعلت بالضبط ام قدري بما استأهلت عليه الاشادة والاثابة والتقدير؟ هذا ما تعرفت عليه منشوراً في صحافة الخليج في اخريات العام الماضي، ودفع بقلم السيدة «كريمان» لكتابة تعليق شاعري عنه في جريدة «الخليج» الصادرة بالشارقة في ١١ سبتمبر (أيلول) الماضي، بما حفزني لكتابة هذه الشهادة استطراداً، وتعميماً، وتعبيراً عن تأثري وشكري لهذه السيدة المصرية الراقية.

سافر السيد «فلان» إلى احدى العواصم الآسيوية ليعود حاملاً فيروس «الايدز» (السيدا) في دمائه. التقطه هناك بطريق أعوج او عديل لا ندري. والنتيجة على أية حال هي هي سواء بأعوج أو عديل. وعلى الارجح الاغلب، لم يكن السيد «فلان» يدري بما عاد يحمله في دمه من داء. فاستأنف حياته الزوجية كالمعتاد، بما كانت مغبّة عدوى شريكة حياته أيضاً. وحين حبلت بعد حين، اكدّت فحوصاتها الطبية أصابتها هي والجنين معاً، بقابلية الداء أو بالداء. وكلاهما واحد لا فرق في نظر الجمهور.

اتفقت السيدة الحبلى حاملة فيروس «الايدز» (السيدا) مع مستشفى خاص بالولادة فيه، متقاضياً منها على ذلك ما يتقاضاه عادة مستشفى خاص من مقابل مالي باهظ. وغالباً ما يكون قد زاد عليه ضريبة اضافية باهظة تحت ذريعة المخاطر التي يجرّها معه الداء السريع الفتك السيء السمعة. قام المستشفى بتجهيز غرفة زجاجية خاصة بها امعاناً في التحوط الوقائي «كرنتاين» العيسع الانفرادي. ولعل هذه السيدة كانت ترى أن الاتفاق الذي تم بينها وبين ادارة المستشفى يضمن لها تلقائياً ان يقوم فريق طبي من المستشفى بتوليدها داخل ذلك المعزل الزجاجي، فلست على دراية بحقيقة الاتفاق المبرم، وان كنت ارجح بانه كان يتضمن ذلك او ينبغي له.

جاء المرأة المخاض في محجرها الزجاجي. ولا بد انها توقعت ان يسارع لمساعدتها الفريق الطبي المخصص للتوليد حسب الاتفاق (ان كان متفقاً عليه). او انها لم تتوقع مساعدة من احد اذا كانت ادارة المستشفى ان وافقت على استضافتها للولادة ولكن دون مساعدة طبية منه، اي ولادة ترتجلها هي في التو واللحظة، ولادة كيفما كان الامر، ولادة بالعون الذاتي، ولادة وحسب. فاذا كان الأمر كذلك (وتضمنه اتفاق) هناك حنث أكيد من جهة ما دون تحديد بالقسم الطبي المقدس، وانتهاك لاعراف المهنة وتقاليدها، وربما للقانون، ان كان في القانون المصري ما يعاقب على الامتناع عن تقديم العون اللازم لشخص يتعرض للخطر، بما ينص عليه تشريع أي بلد متحضر. إلا ان خلت مصر من قانون ينص على ذلك.

أياً ما كان عليه الأمر من نواحيه القانونية، جاء تلك السيدة المخاض في ذلك المستشفى الذي قبل بها بالطريقة التي قبل بها. وبينما كانت تعرق وتئن وتتلوى بأوجاعها، كان الفريق الطبي الذي تتوقعه سواء بهذا الدافع او ذاك، يتفرج عليها بمسافة قريبة من خلف واقيهم الزجاجي. وربما انضم للمتفرجين القدامى متفرجون جدد، فمشهد مثير كهذا، فريد كهذا، لا يتكرر، وما كل مستشفى يستقبل مصابة بالايدز (السيدا) الاسطوري يجيئها المخاض فيه، ويتحتم على جنينها المصاب به منذ التكوين ان يخرج للعالم بطريقته الخاصة وحسب التساهيل، ان تمكن من الخروج. متعة المشاهدة من وراء ذلك الجدار الزجاجي كما نتخيل كانت مضمونة مأمونة، وحرية التداعي اليه مكفولة. اثارة في الذروة، يحفز التلذذ فيها الذعر الغريزي، وجذاب الموت الحياة في اروع تجليها ساعة التجدد المجيدة.

هكذا، وبمثلما في احد اشرطة مصاصي الدماء التي يستمد الناظر اليها من عين ما يخافه قشعريرة الاستمتاع المرضي (بفتح الميم والراء) كان ذلك الجمع الحاشد يستحلب غدته الكظرية. واذا كان ما يمنح المشاهد المستمتع الشعور بالامان خلال تلك الاشرطة المرعبة، علمه بان ما يتابعه بعينيه لن يمسه باذى لانه محض خيال فني وحيل تأثيرية موهمة لا اكثر، كان ما يضمن الامان في الفزع الذي تبثه رؤية دماء تلك المرأة ضحية الايدز (السيدا) هي وجنينها في نفس المتفرج المشرف على الخطر الحقيقي بمقربة، عيناه مفتوحتان حتى الآخر، وقلبه يبرق بشدة، هو ذلك الحائط الزجاجي الواقي.

القسم الأخير في العدد المقبل

«... نجمة في سماء قرنها العشرين تلمع بثبات. لا ينتقص من حقها في ذمة منصف امين ان كان خالفها في شيء من خياراتها (...) هذا أكليل متواضع مني على قبرك يا بنت شعبك الخالدة، لم يكن سدى عناؤك الطويل!

«يا ايها المنبوذون،
إن الموت والارض... وبشاعة اعدائنا،
رتيبة اللون مثل ليلتنا،
ولنا النصر عليهم».

من قصيدة «انتصار جورنيكا» ـ لبول ايلوار ـ ترجمة فؤاد حداد

بعد اكثر من خمسة عقود، طريدة في منفاها البعيد ـ عادت ـ الذين كانوا في المهود (ساعة اخذ يستحثها عبر الحدود، بالغصّة المريرة للمرّة الأخيرة، الحريصون عليها بأكثر منها على نفسها، بل ومنهم على انفسهم)، هم اليوم كهول، وأبناؤهم سلفاً آباء. عادت وان تطلّب ذلك زمناً طال ـ باقي عمرها بأكمله ـ ولكنها على اية حال، عادت. عادت مظفرة، مرفوعة الجبين، مرفوعة الساعد اليمين امام مستقبليها الفرحين، لا كيوم عبرت الحدود، تتلفت مسرعة دامعة القلب إلى وطن خلّفته ينزف وراءها، تستودعه النظرة الوامقة، غير واثقة من كونها ستعود إليه يوماً من الايام.

عادت، تملأ رئتيها الواهيتين بأنسام مدريدها وهي عاكفة على تدوين سيرتها الذاتية التي ليست إلا صفحات مجيدة من سيرة شعبها الذاتية. وتقبل وجنتيها الذابلتين شمس اندلسية تلعن كل فجر جديد، كعب حديد سحق ـ كما حشرات قذرة ـ البراعم النضره في شرايين لوركا وعلى شفاه هيرنانديز. وتعيد الدفء إلى شيخوختها المتعبة، شموس تشرق على وجوه الشبيبة العمالية في مناجم «استوريا»، يرمقونها مأخوذين غير مصدقين ان التاريخ بكل جلاله تنزل عليهم في شخص الباسيونارا ـ ينبوعهم التاريخي. عادت وجذوة الكرامة والحرية والتفاؤل التي عملت على إيقادها، ثم أخفيت ـ حذر الاعصار المار ـ في حنايا الضلوع تتوامض الآن جهرة في الديار. والطيور التي تشتتت في فزع ذات يوم مشؤوم وراء الثغور، عادت ثانية إلى وكورها: «ميرو» وصحبة «ميرو» من مفكرين ومبدعين وأحباب الحرية المصادمين.

يصف استقبالها شاهد من غير أهلها، والفضل ما شهدت به الأعداء. الألوف بعد الألوف صفوف. جلهم في سن احفادها، يهتفون لكأنما يستلّون الهتاف من صميم فؤاد الطود الايبيرى، يحيّون دولوريس إيباروري (الباسيونارا) التي عادت: «دولوريس بيننا... دولوريس على ارضها» ـ مراراً وتكراراً لا يكفون. فلا تملك إلا ان يتراءى لها من خلالهم آخرون. القبضات المطبقة هي هي ولكن سواها، والوجوه المصممة نفس وجوه الاعزاء الذي ما غابوا قط عنها. سقط حجاب الزمن. الحاضر يتماهى مع الماضي والسر يتجول علن. الشهيد بعد الشهيد ـ ينبعث في جيل جديد ـ والحرية تملأ رئة الوطن. يخاطبها خطيب الحفل، الشاعر رفائيل البرتي، ان «مرحباً بك يا زهو قومك الاشكوديين ويا فخر شعبك الاسباني» والحناجر خناجر، تردد في تأثر بالغ منتهاه: «دولوريس بيننا... دولوريس على ارضها».

بكى صاحبي، قال: ليست ما تعالت به الحناجر تقرير حال وحسب. ولكنه زغرودة تشفي. لا، بل بصقة في وجه من اخرجها من ديارها، وركلة في جبين الصنم المكبوب على وجهه. هتاف ولكنه كميت من اكرم كروم «قسطالة» يسقي بها موتورون هامة صادية في العراء. بلى، ورسالة رمزية موجهة للصناديد البررة تساقطوا على المتاريس ودون الثغرات، وفي المنعطفات والشرفات والساحات، كالفراش على اللهيب، يتسابقون إلى صنيع محمود وافتداء، هما مهجة الجود حين العطية هي المهجة ذاتها لا اقل. رسالة تقول يا احياءنا، قلتم ستنتصرون حتماً وها مصداق قولكم ذاك وإن تأخر النصر عمّا كان مأمولاً. ومن يضحك اخيراً يضحك طويلاً طويلاً. فلا الجبروت يحيل الباطل حقا، ولا القوة تشكّل بحد ذاتها حجّة، ولا الزمن يمنح شرعية.

«دولوريس بيننا... دولوريس على ارضها». ولكن «الدوتشي» تدلّى من قدميه منكوساً عيناه جاحظتان للتراب، يطربهما بطنينه الذباب، قربة منفوخة وافرغت من خيلائها الكاذبة عبرة على أبواب روما. وملعون هو ما ذكر اسمه ابداً. اما «الكوديللو» فقد ابتلعت «كتائبه» ذات المخالب الحديديه رمال التاريخ المتحركه، لتعود الكلمة لمن اقتلع منهم حقهم في الكلام والكرامة طيلة دياجير تفتيشه الدموي. نعم بقي تاج، ولكن على جبين حرية وديمقراطية ومشيئة شعبية نافذة. وبقي ملك، ولكن ليمثل كل تلك القيم، وليرمز لها ويذود عنها ـ كما فعل في لحظة حرجة بجنان جسور، وانحياز فخور، وصرامة. وهل من غرابة وهو كابيه في احترام ارادة شعبه ـ وليس كذاك المغتصب! لنفس هذا السبب، قنع شعبه بحكمة راقية وواقعية رفيعة به، على طريق التصالح والتسامح، مؤثراً استشراف غد سعيد على تأجيج ضغائن الماضي، وفتق جراح الامس من جديد. يكفي ان زال الطاغوت وانقطع دابره.

وبقيت العبرة لمن يعتبر: ان المصير المحتوم ـ طال أمده أم قصر ـ لا مهرب منه أو محيد. وان للحقيقة العنيدة قدرتها على الالتفاف والانتصاف. وهذا ما اكده ذلك الحطاب العظيم وقد ووجه بموقف مماثل: «بامكان احدهم أن يخدع بعض الناس كل الوقت، او كل الناس بعض الوقت، ولكن ليس قط: كل الناس كل الوقت». ثم تشمخ قولة شاعر انكليزي ـ حفيد لداروين ـ دفق دمه على الثرى الاسباني ليسقي غرسة الحرية، وصوت الباسيونارا في سمعه نفير الحرية نفسها.

عشية اغمض «جون كرونفورد» جفنيه الاغماضة الأبدية المجيدة، صريع رصاصة كتائبية، نظم قصيدة في سهل «هويسكا» يرعى أنجماً تتلألأ عين تلك اللحظات على وطنه الذي لن يراه ثانية، مختتماً اياها بقولته الشامخة ابداً: «ليس بوسعنا عمل شيء لتخفيف الألم، سوى أن نبرهن ان العناء لم يكن سدى». ورغم استطالة العناء عقوداً ـ قرابة نصف قرن ـ لم يكن العناء سدى وها الخناجر تردد: «دولوريس بيننا... دولوريس على أرضها» ـ هي، وما كانت تمثله، ومن كانت تمثلهم. وكان هو ايضا يضيء في حناياهم وان لم يتعرفوا عليه احتمالاً ـ الشاعر الشجاع الشهم الذي نظم ذلك الشعر الشامخ ثم اغمض جفنيه الاغماضة الاخيرة برصاصة كتائبية وهو يفتدي الحرية في سهل «هويسكا» ـ ويفتديها في جزيرته وفي العالم بأسره، مستبقاً عربدة الجحافل الهمجية تتوهم السيطرة على الكوكب الارضي، والسيادة على البشرية، بعد أن جعلت من اسبانيا والحبشه اختبارها ومختبرها الأول.

لم يستجب وحده. الوف من انصار الحرية، ولعلك تذكر من: المشاهير منهم جورج اورويل وستيفن سبندر ومالرو وايلوار وغيرهم. اما احرار امريكا فقد جاؤوا بفرقة راوا من الاوفق ان تحمل اسم «لنكولن» قائل تلك الكلمة التي سبقت. وضمت فيمن ضمت الشاب «هيمنغواي» الذي كتب أبدع ما كتب في الحرب الأهلية الاسبانية، وانضم اليهم من زنزانته على سفينة من ورق، أبحر بها في بركة سجن «بروصة»، وكانت تلك حيلته في اللحاق بهم ولو بخياله الشعري، ليسب «عجزه الملعون، ولجنة عدم التدخل».

بالمقابل، ارسل «الدوتشي» طيرانه إلى أخوته في الشر، يسوّي «جورنيكا» ـ المدينة الاشكودية المتحدية ـ بالارض دوراً وبشر ـ استنفر بيكاسو الذي وصف إيلوار وجهه بكونه يعكس «همومهم وآلامهم، تماماً كوجه المرآة التي يحبونها»، كل غضبه العبقري لتوثق ريشته المشهد في ذاكرة البشرية كوشم ابدي ـ ما بقيت على الارض ذاكرة. مصباح الحقيقة الوهّاج بأعلى، وباصرة التاريخ تتملى، حين كان العنف الفج والرعب الغريزي الصارخ، والفوضى ثوراً وفرساً واشلاء في كل المساحة. جورنيكا الباسلة، جورنيكا البطلة العاثرة جورنيكا القتيلة. شاهد برغم التواصي على تناسي الثارات وعلى الصفح المتسامي النبيل، سيظل الصامت الفصيح الذي لا يخرس له بيان: لا ينسى ولا يصفح ـ وكالباسيونارا ـ المرآة التي يحبونها، كما شهد ايلوار ـ ظلت جورنيكا ذلك الكتالوني المدهش، شريدة في منفاها البعيد، لاكثر من خمسة عقود، لا تراها عين الوطن إلا حين زال الغطاء الغليظ.

قبل ايام جاء نعي الباسيونارا. حاول المذيع الفرنسي أن يفيها حقها: «كان النداء الذي اطلقته: نو باساران ـ لن يمروا ـ على كل لسان. اما هي فكانت لا تستريح من مكان لمكان. في الخنادق الامامية بين المدافعين. وفي الاذاعة تلهب الحماس وتلهم الصمود واليقين. وفي المؤخرة تواسي الجرحى. كانت شجاعتها أسطورية!» فيجيء الصدى دون انقطاع: شجاعتها اسطورية! شجاعتها اسطوريه! شجاعتها اسطورية! وبحركة لا إرادية، وكما ارتفعت في محبة واجلال قبضات رفاق «ميشو» في رواية إيليا إهرنبورج «سقوط باريس»، ارتفعت قبضة تهزها المروءة والبطولة تحيي الشجاعة الاسطورية المسجّاة في جثمان لم يوسّد الثرى بعد، وان وسّد القلوب. تقول: وداعاً يا باسيونارا! وداعاً ايتها الشجاعة الاسطورية!

ابتدات ثلاثة في واحدة: امراة، وكادحة، واشكودية (باسك). وبالرغم من مبتداها كذلك، او قل بسببه، اقلّت نفسها بيديها من قاع لقمة، ثم انحنت مادّة يدها لمنبوذين ومنبوذات. نجمة في سماء قرنها العشرين تلمع بثبات. لا ينتقص من حقها في ذمة منصف امين ان كان خالفها في شيء من خياراتها. فلقد كانت على اية حال، اسطورة شجاعة، وزارة كرامة وكبرياء، وبوتقة بطولة، وبوصلة امل وإباء. ثم كانت ناسجة فولاذ زردا تستر به لحم شعبها وهو يتلقى الطعنات. هذا اكليل متواضع مني على قبرك يا بنت شعبك الخالدة، لم يكن سدى عناؤك الطويل! ■

اليوم السابع ـ ١٨ كانون الأول ١٩٨٩

«... ومع ذلك، اليس شعب السودان هو القائل «النار تلد الرماد»؟ وشاعره هو الذي لاحظ بحسرة ومنذ وقت مبكر: «كل امرىء يحتل في السوادن غير مكانه ـ المرء ليس باصغريه قلبه ولسانه» دون ان يفسر لنا كيف يحدث ذلك وكيف نتوقاه...»

اسوء حظ تقول؟ بل «كيفما تكونوا يولّ عليكم». اما قال هذا الشعب نفسه في حكمته التليدة «إلما فيها شق، لا تقول: طق!» بل «كيفما تكونوا يول عليكم».

ومع ذلك، هل يستحق شعب ناضج، مدرك، طيب الطوية، كل هذه القيادات القمينة التي ظلت تدفع به الى مهاوى الهوان والهلاك، والضعة والضياع ـ كل واحدة باكثر ضرراً من سابقتها ولكانما جميعها في تنافس على درجة الامتياز في التفريط والتثبيط، والسفاهة والتفاهة، وفي رهن الاثاث وتبديد الميراث؟ ثم هل يستحقها جميعها؟ ومن هذه العينة المزرية؟

بل من اين اين جاءته تلكم الوجوه الشائهة، الزاعمة لنفسها تمثيله وهي تمثل به، تقوده خبط عشواء وهو الحديد البصر النافذ البصيرة؟ تلك الغباوات الفجة المتنفجة على لا شيء، التي لا تسري في فرائصها عزمة إلاّ لضلالة، ولا تحس بكرامة حافزة لغيرة او غضبة او وقفة اباء إلا ضد شعبها، ثم لا تجد فسحة للتفكير او التخطيط إلا لخداعه والكيد له. فاذا لم يكن هذا الشعب على غرارها، فلماذا تولت امره قيادات كهذه، ما ان تسقط واحدتها بما اقترفت، حتى تنهض من جديد تحت اسم او نعت جديد، ولكأنما تناسخت الارواح؟ ومع ذلك، اليس شعب السودان هو القائل: «النار تلد الرماد»؟ وشاعره هو الذي لاحظ بحسرة ومنذ وقت مبكر: «كل امريء يحتل في السوادن غير مكانه ـ المرء ليس باصغريه قلبه ولسانه». دون ان يفسر لنا كيف يحدث ذلك وكيف نتوقاه، ان لم تكن لعنة ابدية.

«ع»، وكيل اسبق لوزارة المالية السودانية، زمان كان الوكيل وكيلاً، والمالية مالية، والسودان سوداناً ـ جاده الغيث اذا الغيث همى. خدم «ع» خبيراً دولياً والآن يدير بيت خبرة ومشورة في حقل الاستثمار الخاص بالخرطوم. فلا يتوقع احد من مثل رزانته ورصانته اي انجراف في احكامه او اشتطاط في احاسيسه. ومع ذلك حين اخذ يصف لي ـ شهادة عيان ـ انتفاضة الشعب ضد استبداد النميري هتف من صميم صميمه: «انه شعب عظيم بحق». فسر لي هذا الحكم الذي دفع فيه بكل اعجابه وحماسه: «ما من احد اشترك في بركان الانتفاضة المتاجج، اكترث لان يغلق وراءه باب بيته وهو خارج لكافة الاحتمالات بما فيها التضحية النهائية. كانت الدور خاوية اللهم إلاّ من العجزة والقعدة، والابواب مفتوحة على حالتها عند الاندفاعة العفوية، ومع ذلك لم تسجل ولا حادثة سرقة او سطو واحدة. حتى ولا واحدة».

علّق احدهم بجد: كان اللصوص ايضاً في الشارع الهادر مع الشعب الثائر. اليسوا هم ايضاً بعضه وقضيته قضيتهم؟ صغار لصوص عن اضطرار ثاروا مع شعبهم ضد لصوص كبار وعن اقتدار ـ اللصوص الكبار المتخفين خلف المقام الرفيع والهندام الناصع والالقاب المتفخمة السارقين البلد بحالها.

في العام التالي زرته خلال عطلتي بالخرطوم كالمعتاد. وصفها لي خلال الكوارث الطبيعية المترادفة تلك، وإختتم وصفه: «وبرغم كل هذا، تجلى المعدن الاصيل لهذا الشعب. خذ جيراني مثلاً. بيتي يعتبر قصراً منيفاً بالمقارنة مع المساكن العشوائية المتهافتة المحدقة به في منطقتنا السكنية النائية الجديدة ـ مساكن الصفيح والكاغد والخشب الململم التي لفقها اصحابها النازحون لحزام البؤس الخرطومي. كل ما حولي غارق في الظلمات وبيتي وحده المضاء بمولد خاص. العاصمة كلها معطونة في مطر منهمر، وسيل كاسح ونيل طافح، بلا تيار كهربائي، ولا ماء نظيف جاري، ولا قوت ولا حانوت، ولا دولة تعمل او تتظاهر بالعمل، ولا شرطة تعس أو تنجد فكل مسؤول في شغل شاغل بنفسه عن مسؤوليته. كنت إعرف ذلك وجيراني العشوائيون يعرفون ذلك ايضاً، وانا وهم راساً براس. وبرغم ذلك، وبرغم ما كانوا فيه من حاجة طاحنة، وحرمان ممض من أدنى ضرورات الكفاف اليومي، لم يتعرض واحد منهم ولا مرة واحدة لداخل او خارج من بيتي، بل ولم يطرق واحد منهم ولا مرة باب بيتي طالباً اي شيء مما كان يعوزه ويعرف انه لا بد عندي. انه شعب عظيم بحق».

علقت مذكراً اياه: «نفس هذا الوصف استخدمته له عاماً اول عقب الانتفاضة؟» وفي الحقيقة، كيف تعدو العظمة فقراء معدمين تماماً وتحسبهم اغنياء من التعفف. حين لا شرطة بمقربة لتردعهم، كانت شرطتهم الرادعة باكثر من الشرطة ضمائرهم. قوم قبل ان يزعهم سلطان، تزعهم قيم «رفيعة هي كل مقتنياتهم في الحياة الدنيا وحليتهم ومفخرتهم. قوم فيهم من ابنائهم المحظوظين من يتعرف على فضائلهم ويحكم عليهم بها في اعجاب وحماس».

في آخر يوم لي بالخرطوم العام الماضي، واذ نحن في قلبها التجاري، اهابت بي شقيقتي «فاطمة» فجاة: تعال اعرفك برجل عظيم، احد التجار الموسرين». سالتها: «ومن اين له العظمة التي تنسبينها له؟» حكت لي:

«قبيل الانتخابات النيابية الماضية، نشرت نداء بالصحف اعلن فيه نيتي خوض المعركة الانتخابية مواصلة بذلك خدمتي للشعب، غير انني لا املك قدرة على ذلك إلاّ ان يمد لي المخلصون اياديهم بالعون المادي».

«مساء نفس اليوم طرق بابنا طارق اعتذر عن الدخول. قال لي «ها جئتك بتبرعي تلبية لندائك هذا الصباح». سلمني شيكاً، ولكنه طلب مني كتمان امره حيث هو ـ كما اوضح لي ـ عضو في قيادة حزب منافس؛ ومن المستشارين المقربين لراعي الطائفة الدينية التي يدين لها بالتبعية والولاء والذي هو ايضاً رئيس ذلك الحزب. لذا لا يود لتبرعه ذاك ان يحسب عليه».

«شكرته على كرمه ومروته وحين هم بالانصراف الهمني الله ان القي نظرة عجلى على الشيك فاذ هو خلو من اي رقم وان كان بتوقيع. شيك «على بياض» موقع عليه. سالته في استهوال. ما هذا؟ اجاب بهدوء: «لكي تكتبي عليه ما تريدين كتابته». بادرته «اذن انت لا تريد في الحقيقة ان تتبرع لي قط. فلن اكتب عليه مليماً واحداً». ضحك، وكتب عليه عشرين الف جنيهاً. ثم اضاف. متى احتجت لمزيد اتصلي بي في هذا الرقم، واذا لم اكن هناك اتركي رسالة بان «ام احمد» بحاجة اليك وسافهم واقوم باللازم».

في المحل التجاري استقبلنا ابنه بحفاوة. قلت له: «سأغادر الخرطوم غداً ولي حاجة عاجلني واساريره اكثر تهللاً: «اعتبرها انقضت، قل لي ما هي؟» اوضحت: «السماح لي بنشر موقف ابيك من شقيقتي. انه من نوع ما اكتب عنه في اليوم السابع». اجاب: «إلا هذه». عاتبته «كيف تقول لي اعتبرها انقضت وسرعان ما تتراجع عن قولك» اجابني: «ما تراجعت، فما طلبته يخص الوالد وحده. ولكن متى عاد من سفره استأذنته لك».

ودعت الابن الذي توسمت فيه شيمة ابيه. في الطريق علقت «فاطمة» بتولهها العجيب: «هذا شعب عظيم بحق يا صلاح». اجبتها في سري «تكررينها لي وكانني لا ادري. ولكنك انت ايضاً عظيمة يا من تستنفرين في شعبك افضل ما فيه».

«في زيارتي قبل ايام للخرطوم قالت لي: «لديك صديق اسمه يونس في تلك العمارة كثيراً ما سألني عن اخبارك حين اقصدها لغرض. في آخر لقاء وقفنا نتحادث قليلاً. واذا بي اقول له: هذا شعب لو وضعته على راسي ما وفيته حقه. شعب لم يخذلني قط في اي موقف كان. ثم قصصت عليه ما حدث عند اعتقالي تحت طائلة قانون امن الدولة على ايام السفاح النميري، قرابة ثلاثة ايام بمركز شرطة «اللاماب ـ بحر ابيض» في الطرف البعيد من الخرطوم».

«سمحوا لي بمرتبة منزلية وضعوها على بلاط الممر بمرأى من الزنازين المطلة عليه وقد جلس الحارس الخاص بي على كرسي بمقربة. كان جميع المحابيس داخل تلك الزنازين، ومعظمهم من المترددين العتاة والقتلة القساة، يجلسون او يقفون نصف عراة من وطأة القيظ الخانق. ما ان راوني اقتعد مرتبتي تلك، حتى اخذ كل منهم يرتدي ما يستر نصفه الاعلى ليجلس بعد ذلك واضعاً راسه على راحتيه يحدق في الارض مطرقاً في وجوم تام. سألني الضابط دهشاً: «ماذا فعلت بهم فقد كانوا قبيل مجيئك بلحظات في صراخ وشجار وتشاتم بذيء تجاوز كل فحش. كيف دفعت بهم للصمت والادب على هذا النحو؟».

«طيلة مدة بقائي في معتقلي ذاك، واهالي «اللاماب ـ بحر ابيض» بلا اتفاق بينهم او تنظيم، ظلوا يأتون لي، كل واحد وما تيسر له، بما كفانا جميعاً شرطة ومحابيس وزاد يدخل علينا الطعام والماء البارد والشاي والقهوة ولا اعرف من دفع به. وطيلة هذه المدة لم يملأ واحد من اولئك القتلة والمجرمين الذين كانوا حولي عينه مني، فاذا هم جلوس مطأطئي الرؤوس، صامتين، واجمين، ساكنين إلاّ لضرورة لا بد منها. وحين اتخذت السلطة قرارها بنقلي، حرصت على مصافحتهم الواحد بعد الآخر، يداً بيد من خلال القضبان الحديدية الغليظة التي تفصل ما بيننا، اشكرهم من قلبي لما ظلوا يبدونه نحوي من أدب جم وتحشم وكريم مشاعر. وهم ـ للعجب ـ حثالة شعبنا وقاع المجتمع».

اختتمت حديثها: «هنا فوجئت بصديقك يونس وقد اجهش من فرط التاثر. ولكنه شعب عظيم بحق، وما اقل كل تضحية في سبيله وان عظمت».

وسيء الحظ يا اختاه. يتسلط عليه في غفلة منه من لا يخاف الله ولا يرحم. يمتطي ثقته كل مذق اللسان يقول ما لا يفعل. يمتهن طيبته كل متيبس ضمير مخبره غير مظهره. يجد فيه فرصته كل متهريء حياء وقيم، متفسخ خلق ودين. بلى، شعب محامد ووحائد ومروءات، ولكن يتغلب عليه المرة بعد الاخرى سفهاؤه وبلهاؤه وجبناؤه وانتهازيوه، ولكل شعب اوغاده. ولكن... برغم كونه الشعب الذي منه تحدرت، وليس لانني منه تحدرت ـ اذ يأبى عليّ المحاباة وحكم الهوى الضليل، التنزه والسوية والذمة ـ وجدته جديراً بالاحترام وجديرا بالمحبة ■

قبل صدور مجموعته الشعرية الكاملة

صلاح احمد ابراهيم: الشعراء السودانيون يكتبون لمتعتهم الخاصة!

حوار

□ باريس – من محمد عضيمة:

■ يتنفس الهواء السوداني وهو في باريس. يريد استحضار راعيات ورعاة بلد المليون ميل مربع الى الشانزيليزيه كي يقيدوا اسراهم بالذهب اضطرارا: «تنبش راعية باصابعها الرمال في ظاهرة «مروى»، فتمسك تمثال ذهب لاحد اسلافها الغابرين. لم يمتلك اسلافها النحاس فكانوا يقيدون اسراهم اضطرارا بالذهب... ثم لم يبق من ذلك غير صحراء متكررة الى ما لا نهاية، يشقها النيل النبيل وحيدا كتائب الضمير».

صلاح احمد ابراهيم شاعر «من فخار عار الا من نسيج سوداني خشن» على حد تعبيره. رافق الحركة الشعرية الحديثة منذ بداياتها. انه من الرعيل الاول (الفيتوري، صلاح عبد صبور، عفيفي مطر) الذي قاد التجديد الشعري في وادي النيل. ولعل اللغة الصوفية للدراويش هي التي تميز صلاح ابراهيم عن اقرانه، ولعلها ايضا هي التي دفعته لاشعوريا الى ان يؤثر الظلال على الاضواء: «ليس بي جوع الى الشهرة، وهذا عيب سوداني في الاساس. اسمع هاجسا يهيب: قل شعرا. اجيب: ما انا بشاعر». يتحدث وكأن اللغة حقل الغام، فهو يدرك ان الالفاظ كمائن. ولذا يقتصد بالكلام مؤثرا العودة الى داخله لاستثارة عادات الكلام. يستنطق ذاكرته الشعرية الموروثة، ثم يعيد هندسة المنطوق وفقا لمألوفات التفعيلة، اذ يؤمن دوما – كابناء جيله – بضرورة «انضباط شعري». لكنه يعتقد بضرورة التعددية الشعرية ولا يخفي حبه لقصيدة النثر التي تشهد الان حالة من التجريبية المذهلة في حركتها.

● ما اسباب غيابك عن اللقاءات الشعرية العربية؟

– كانت بيروت – رعاها الله واعاد اليها مكانتها – سيدة هذه اللقاءات. دعني اتوجه بلوم الى منظمي هذه المهرجانات، وليس فيما يتعلق بي شخصيا فقط، ولكن فيما يتعلق بشعراء السودان جميعا. نحن دابنا ان نكون مهمشين بين اخوتنا العرب. وليس ذلك عن غضاضة ولكن ربما عن سهو له مغزاه. اذا دعينا حضرنا شاكرين واذا لم ندع لا نحقد على احد.

● يبدو لي انك تراقب من بعيد الحركة الشعرية، كيف تقيم هذه الحركة بعد حوالي اربعين عاما على انطلاقتها؟

– ابتدات كحركة وانتهت الى ان يبحث كل واحد فيها عن مصيره الخاص. كانت في البداية حركة ذات مغزى اجتماعي وفني وكانت جزءا من حركة عارمة. والان ان التمزق الذي صار سمة العالم العربي دب في الحركة التي بدات متماسكة متناغمة متسقة. ولكن مع ذلك تبقى تلك الحركة التي هزت راكد المجتمع العربي ذات فضل كبير.

● ماذا اعطت على المستوى الفني، وماذا تأخذ عليها؟

– جددت الحيوية في اوصال الشعر العربي وفتحت له افاقا جديدة فيما يتعلق بشكله ولغته، ومدت فروعها فاتصلت بالتيارات العالمية التي انتظمت الشعر العالمي. هذا حقها. اما اذا كان هناك ما يمكن ان تؤاخذ عليه، ففي كونها جزئية اي حركة لم ترسخ صلاتها بالشعب البسيط. ربما بسبب الامية المتفشية واحيانا بسبب مشكلات النشر او مشكلات الحرية. ولكن هذه قضايا يحاول الادباء والشعراء والمفكرون حلها، كل في مجاله.

● هل كانت لك علاقة بحركة مجلة «شعر»؟

– لا. لم يكن لي علاقة، بل انا مجرد قارئ. وهي كغيرها من التجارب التي هدفت الى التجديد وقامت بدورها. وكلما كان هنالك تنوع كلما دل ذلك على اهمية وضرورة الابداع وتنوعه.

● ما اهم نجاح حققته حركة الشعر الحديث؟

– نجحت في انها فتحت باب التجديد وابواب الاجتهاد. وعندما يفتح هذا الباب يأتي المفيد وغير المفيد. ولكن الحكم يأتي بعد التمحيص وبامتحان الزمن. اما الزبد فيذهب هباء.

● هناك من يعتقد بوجود ازمة يعاني منها الشعر العربي الحديث، فما هي وكيف تراها؟

– ازمته في الاساس ازمة المجتمع العربي بكافة مشكلاته المتنوعة سواء ما تعلق منها بالامية المتفشية ام بالحرية.

● اقصد بالسؤال: هناك من يرى ان هذا الشعر يعاني اليوم من «الفوتوكوبية» اي تقرأ قصيدة حديثة كانك قرأت الشعر الحديث كله؟

– هذا ما يعتري كل حركة تجريبية. في البداية تبدأ بالتحدي. وهذا التحدي يجر معه معارك نقدية بين «مع» و «ضد». وبعد ان تثبت الاسس الجديدة ويأتي الاعتراف بها على نحو ما تصير حركة تقليدية.

● يقودنا هذا الى الكلام على مسألة الحداثة. ماذا تعني الحداثة بالنسبة اليك؟

– الحداثة او التحديث ليس بالضرورة الاتيان بالجديد. احيانا، قد تكون الرجعة الى القديم هي الحداثة. الا تذكر البارودي...

● اتعتبر البارودي شاعرا حديثا؟

– في زمنه كان مجددا. الحيوية في الشعر العربي هي الرجعة الى الوراء قليلا للخروج من الانحطاط الذي آل اليه مصير الادب. في الفن الاوروبي الحديث والفن التشكيلي الحديث، نجد ان عين الحداثة هي الرجعة الى القديم. في الرجعة استلهام للفن الافريقي. نعم. الفن الافريقي فن قديم. فاذن قد تكون الحداثة هي رجعة الى القديم...

● لكن البارودي وامثاله لم يفعلوا الا ان عادوا واستعادوا ديباجة الشعر القديم وصوره، ولا نجد فيهم الا التكرار والصدى؟

– لا نتكلم على العمود – عمود الشعر العربي مستمر، دائم رغم المحاولات الاندلسية في هذا المجال – ولكن على نوعية الشعر نفسه ومواضيعه، لانه جاء عقب انحطاط العصور العثمانية.

● هل افهم من ذلك انك تربط بين الشعر والموسيقى على طريقة الاتباعيين؟

– اولا من الضرورة الاعتراف بالتعددية وعدم التقيد بجنس واحد من اجناس الابداع، في هذا الصدد وللاجابة على هذا السؤال، ينبغي ان ننظر الى الفرق، مثلا، بين الشعر والنثر، وهل بالامكان ان يكون ما بينهما جنس جديد يأخذ حرية النثر وانضباط الشعر ورفعة معاييره؟ للادب العربي مواريثه الخاصة التي لا بد ان تصمد على نحو او اخر فيما يمكن ان نسميه شعرا. ولكن ليس، بالضرورة، التقيد بما املاه علينا الاسلاف.

● في هذا الاطار الذي تتحدث عنه كيف تنظر الى قصيدة النثر؟

– انظر اليها باعتبارها مركبة من شقين: قصيدة ونثر. اذن ما الشيء الذي يجعلها قصيدة؟ هنالك شروط بعينها تجعلنا نطلق عليها القصيدة. هنالك تحرر من نوع خاص في هذا النطاق الذي ذكرته وهو الذي تأخذه او تستعيره من النثر، وهو كثير من التحرر. ولكن ليس من حق من عجز عن الانضباط الشعري ان يطلق على كل ما يقوله شعرا، والا انعدم الاطار.

● لنكن اكثر دقة، اين تكمن شعرية القصيدة النثرية؟

– تكمن في موسيقاها الداخلية. لا بد من موسيقى. الشعر بحد ذاته موسيقى سواء كانت صارخة او هامسة. هذه هي النقطة الاولى. ثانيا: لا بد من ذخيرة مستمدة من قاموس شعري متميز هو الذي يفرق ما بينها وبين قاموس النثر. لا بد من اقتصاد شعري الى اقصى درجات الاقتصاد، لا بد من اخيلة تميزها. باختصار، لا بد من لغة شعرية هي التي ترفعها الى مصاف القصائد الشعرية.

● قال لي ان الفيتوري انقطعت صلته بالسودان، ما معنى هذه القطيعة؟

– الفيتوري شاعر نشأ في مصر، ولسبب خاص جعل من اللون ومن افريقيته موضوعا اساسيا. فيما بعد تجول في شتى انحاء الوطن العربي وكبر على موضوعه الذي انطلق منه. وهو شاعر من شعراء العرب المعاصرين ويسعدنا اننا نزامنه لكنه ليس شاعرا سودانيا، في هذا المعنى المنضبط وليس في ذلك تقليل من شأنه، وليس من الضرورة في ان يكون شاعرا سودانيا.

● تقول: ان شعراء العروبة كالقوارير يتدثرون بالديباج والحرير وانا من فخار عار الا من نسيج سوداني خشن، انا مجرد شاعر سوداني اشبه شعره وطنه وشعبه ماذا تعني بذلك؟ هل هناك هوية شعرية سودانية؟

– نعم. تماما كهوية العربي السوداني. عربي اسود يقيم في ارض افريقية له جذوره القديمة التي تمتد الى ما قبل استعراب السودان، ومن ثم هذا المزيج جعل له خصوصية محددة. هذا الانسان المتميز الذي هو عربي اسود في ارض افريقية يتصل بميراث العروبة وفي الوقت نفسه بمواريثه الافريقية التليدة ينتج شعرا يشبهه اذا كان صادقا مع نفسه.

● كيف تتجلى هذه الخصوصية السودانية؟

– تتجلى في اللغة الشعرية المستخدمة، وفي المواضيع ايضا.

● تميل في لغتك الشعرية الى شيء من التصوف ولا سيما في قصيدة «الحاجة»، في علاقتك بالتراث الصوفي؟

– علاقتي بالتراث الصوفي هي علاقة السوداني بتراثه الخاص. والتراث الثقافي السوداني الخاص تراث يرتكز اساسا على الصوفية. كانت الصوفية ثقافة السودان ومن ثم لا بد لكل سوداني من ان يحس بنفسه ذلك النفس الصوفي حتى ولو لم يكن متصوفا. لغة التصوف في جوهرها لغة شعرية.

● ماذا عن الحركة الشعرية التي تجيء بعد صلاح ابراهيم والفيتوري في السودان؟

– هناك حركة شعرية ثرة ذات عطاء رفيع. يؤسفني ان الابداع والنشر في السودان لا يسيران بالوتيرة نفسها. النشر دائما متخلف عن الابداع بجيل او كثر. والمبدع السوداني، لاسباب ذاتية وموضوعية، ينأى بنفسه او بالاحرى لا يستطيع ان يجد طريقة الى النشر. من هنا، كنا دائما في وضع مختلف عن وضع اخوتنا في البلاد الاخرى، حيث يستطيع اي مبتدئ تقريبا ان يجد فرصته في النشر. السودانيون عازفون عن الشهرة بطبيعتهم، وعازفون عن الجري وراء الصيت ولذلك يحسبون ان انتاجهم لمتعتهم ومتعة اصدقائهم فقط وهذا عيب كبير فينا، وهو عيب سوداني في الاساس.

الحياة - ١٧ تشرين أول ١٩٨٩

«... ولا هو بالوحيد الذي ينطبق عليه بعض ما ناله من ثناء واشادة... ولكن ان تدور محادثة على النحو الذي اجملته، وعلى بعد الوف الاميال من حيث كان الحكيم يمارس مهارته وانسانيته في توفيق وتواضع، فلأنه لا يضيع العرف بين الله والناس. لقد وجدت هذا النطاسي دون معرفة به شخصياً، جديراً بالاحترام جديراً بالمحبة...»

ماعدمت مهنة الطب نطاسيون مهرة، قلوبهم ملأى بالرأفة والمواساة، لا يحيلون طبابتهم بضاعة او قاصدهم المتداوي بقرة حلوباً، بحيث تصد ابوابهم وحجابهم وأتعابهم وحيلهم الابتزازية من لا يملك قدرة على ذلك. ويسعدني ان تمكنت من تقديم بعض هؤلاء الاخيار لك يا قارئي الوفي. وهذا بالمصادفة اولهم: طبيب سوداني له عيادته الخاصة في بلد عربي امسك عن تسميته فما القصد الاعلان. اسمه «الفونس عزيز»، قبطي ربما، وللأطباء النصارى باع طويل في تاريخ طب امتهم العربية كإبن بختيشوع وقسطا بن لوقا وسواهما وكما قال الحديث النبوي الشريف «الدين المعاملة»... ولكن لماذا الفونس عزيز؟

شقيقي المصور السينمائي «محمد الهادي» يشرفني ويمتعني بزيارته لي هو وأسرته الصغيرة هذه الأيام قادمين من نفس البلد الذي يعمل فيها كلاهما. وإذا باشارة عابرة في سياق حديث عام تنقلب إلى وقفة مطولة عن شطارة ذلك الطبيب ومحامده. شطارة رفعته ـ على كونه ممارساً عمومياً ـ مقاماً علياً بذّ به كثرة من أهل الاختصاص، علماً بأن للطبابة العمومية مزاياها وللتخصص الطبي مزاياه، وكلا المساقين لا غنى عنه ومكمل للآخر. وأياً كان الحال، فالخطوة الأولى الحاسمة في اتجاه الانتفاع بطب طبيب هي في وثوق المتلقي في نجاعة ما يتلقاه وجدوى الطبيب المداوي وإلا فلا انتفاع في حالات جمة. ثقة استطاع اكتسابها على ما يبدو الدكتور الفونس عزيز تعكسها شهرة ضافية وصيت حميد تعديا احياناً حدود البلد الذي يعمل فيه، بما حققه من نتائج لمن صاروا السنتها تشبه في نظر بعضهم الاعاجيب ـ عن حق او مبالغة ـ بجانب مزايا شخصية حببت قاصديه فيه.

لأكثر من احدى عشرة سنة وشقيقي «الرشيد»، على شديد شغفه بالأطفال ـ اطفال غيره ـ بحيث لا يضن عليهم بوقت مهما طال لملاطفتهم وافراحهم وملاعبتهم، ظل هو نفسه بلا طفل، حتى لقد اوشك وشريكة حياته على فقدان كل عشم في انجاب، ولم يدعا طبيباً إلا وقصداه ليرجعا بخيبة الأمل، حتى وطّنا في النهاية نفسيهما على عقم وحرمان. وحيث ان الحكمة الشعبية السودانية تنصح بان «الأرضة جرّبت الحجر» ـ و«الارضة» يا أخا العرب دويبة تقرض الخشب او كما تشرح امهات معاجم الفصحى ـ قصدا عيادة «الفونس عزيز» بالارتياب المرير المعتاد.

نصح الزوجة بعلاج طبيعي حدده لها وبعقار بدائه وما اكملته كله، وقد علق بان توقفها حيث توقفت كان في حسبانه ايضاً، وهو عقار لا بد انه معروف لمن قصدتهم قبله وليس من اختراعه هو. ولكن الاعجوبة تحققت على يديه هو دون من سبقه وما من عوز في معرفة نظرية بحد ذاتها. إذن ليس من سبب يقال إلا انه ذلك العنصر المعقول اللامعقول، الحقيقي والوهمي في ذات الوقت، الذي نسميه بحق او بدونه «البركة» و«التوفيق». مثلما امكن تسمية ما حدث «اعجوبة». هكذا رزقا بطفلتهما البكر «هبة» تلاها اخوها «فراس» والله من بعد يرزق من يشاء بغير حساب. سمعت بما حدث في وقته منذ سبع سنوات من أخي «الرشيد» وهو يكيل للطبيب الثناء الجزيل شاعراً نحوه بعد الله الوهاب بالامتنان العميق.

حدثني اخي «محمد الهادي»: هاتفته اخبره بانهم في المستشفى قرروا توليد زوجتي بعملية قيصرية يحضرون لها. جاءني صوته حازماً جازماً: لا تدعهم يفعلون ذلك البتة. ستلد زوجتك ولادة طبيعية ما من موجب لغير ذلك إلا عدم الصبر والتعجل ـ لا تدعهم يمسونها قط بل خذها منهم ان اصروا. قل لي فقط ما وصلت اليه حالة الرحم. قال لي شقيقي حين ذهبت استفسرهم عما طلب معرفته مني بشروني بالا داعي لعملية. ولكنه كان على ثقة من ذلك منذ البداية.

وحكى لي كيف وجد مواطناً سودانياً تبدو عليه بساطة القريب الصلة بأصوله الريفية في غرفة الانتظار بعيادة طبيبهما المشترك. قال لي: بعد التحية وان شاء الله خير، اعترف لي المواطن بروح الانصاف السودانية التليدة والنقد الذاتي السمح: «ارجو ان يغفر الله لي من حق هذا النصراني، فقد ظلمته يا ابن العم». ذلك ان امرأته الحبلى كانت من النوع الذي لا يزدرد طعاماً إلا وردّته على الفور، وقد ادى تفاقم ضعفها العام الخطير إلى استبقائها بالمستشفى. ولكن كان على الزوج المسكين ان يذهب لاداء واجبه الرسمي حتى نهاية دوامه، وان يعتني بثلاثة اطفال صغار بالبيت، وان يكون في الوقت عينه بجانب امهم في المستشفى، وهي لا تستجيب لأي علاج. نصحه مشفق بتجريب هذا «الحكيم الذي يده فيها البركة». وتحت هذا الايعاز أصرّ على اخراج زوجته رغم الرفض والتحذير. ورضوخاً لعناده المتعنت جعله يوقع اقراراً بتحمله مسؤولية ذلك ونزعوا انابيب التغذية الاصطناعية من اوردة المرأة لتتحامل على نفسها في وهن شديد واعياء لمقابلة «الحكيم الذي في يده البركة».

حدثه الرجل «القى علينا اسئلة ما لها حد، وبعدما انتهى ختمها بسؤال عما اذا كان هناك متجر كبير بالقرب من مسكننا. استغربت السؤال ولكن اجبت. طمأنني بأن زوجتي لا تحتاج الى اي دواء، ونصحني بأن أشتري في طريق عودتي صندوق «سيفن آب» حتى إذا احست بعطش شربت منه بدل الماء. خرجت اتندم والوم نفسي لانتزاع أم أولادي من عناية طبية حقيقية لاضعها بين يدي طبيب بدل ان يبعث بي لصيدلية احالني الى متجر عادي. خفت منه على صحتها ولكنني فعلت كما قال. وهل تصدق. من أول زجاجة فتحناها لها صارت تمسك ما تأكل في بطنها وسرت فيها العافية. سامحني الله عن حقه. لقد وجدت يده مبروكة حقاً.

امرأة اقلقها تأخر وضوعها زمناً طويلاً غير محتمل بعد شهرها التاسع وما من بوادر البتة ـ نصحتها صديقة باستشارته، تعذرت المرأة بعدم استطاعتها الذهاب اليه وزوجها خارج البيت باستمرار. اقترحت صديقتها عليها الاتصال بهذا الطبيب هاتفياً وشرح مشكلتها له. استبعدت كلية ان يقبل بهذه الطريقة، لدى اصرار صديقتها بأن تجربه فهو «مختلف» فعلت.

فوجئت المرأة لدهشتها الشديدة بابدائه الاهتمام فوراً وباعطائها كل الوقت اللازم لشرح جوانب حالتها بصبره الجم وفي النهاية نصحها بدواء منشط دلّها عليه ونصحها بالتمشي كل يوم على ان يتبعها مراقب عن كثب بسيارة حيث في مثل حالتها يداهم الطلق ولا يمهل كثيراً. وبطبيعة الحال، لم يتقاض من المرأة المجهولة طالبة المشورة بالهاتف شيئاً عن الوقت الطويل الذي تقاضته منه ومن منتظريه. وقد حدث للمرأة ما نبهها اليه بالضبط، ولكن صارت المرأة شاهداً لا على طبه وحسب بل وعلى فضله.

سألت شقيقي: ما سر نجاحه الكبير في رأيك؟ اجابني كونه قد جمع بين الطب النظري الذي تلقاه والمعارف العملية التي جمعها. انه «حكيم» يتناول كل حالة بحسبانها حالة خاصة تتطلب علاجها الخاص. من هنا كان صبره في القاء شتى الاسئلة التي قد تلقي الضوء على كوامنها وان رآها غيره زائدة، ومنحه اياها كل الوقت اللازم بما يجعل منتظريه خارج غرفة الكشف يتبرمون من إطالة لا يحمدونها إلا حين يأتي دورهم هم. على انه هو وحده الفاقد لوقت قد يترجم الى مال وان كان عوضه بالنجاح.

وثانياً اهتمامه بمريضه اهتمام ينبعث من ضميره المهني وضميره الخاص. ومن اجل ذلك يتصدى لتحمل المسؤولية بثقة تامة في مشورته. انه يطبق حرفياً القسم الذي اقسمه. وثالثاً، استطاعته اقامة جسر متين بينه وبين قاصده على الفور، نازعاً من نفس هذا التهيب المعتاد في حضرة الطبيب، مزيلاً الحاجز النفسي من توتر وشعور بالدونية مما يحس به في احيان مريض امام الطبيب حتى ليتمنى لحظة انتهائه مما يعاني من حرج. ورابعاً، لعل المقابل المادي هو آخر ما يلتفت اليه وهو يؤدي رسالته ولا اقول يسعى لكسب رزقه. الا تذكر كيف كان يتقاضى عن المقابلة خمسة وعشرين قرشاً في الخرطوم حين كان الجميع تقريباً يتقاضون خمسين؟ وها هو الآن يتقاضى اقل من نصف ما يتقاضاه غيره، ناهيك عن الوقت الاضافي الذي يقضيه في فحصه المتمهل وأسئلته التي يكثر منها.

لم التق قط بدكتور «الفونس عزيز» ولا اظنني إلا ان يشاء الله. وبالتأكيد، هذا الاعجاب الذي عاداني به شقيقي لا يغمط الحق المستحق لزملائه العاملين في نفس البلد لاسيما أهل التخصص منهم. ولا هو بالوحيد الذي ينطبق عليه ـ باكثر او اقل ـ بعض ما ناله من ثناء واشادة وفوق كل ذي علم عليم. ولكن ان تدور محادثة على النحو الذي اجملته وعلى بعد الوف الأميال من حيث كان الحكيم يمارس مهارته وانسانيته في توفيق وتواضع، بما لم يخطر له على بال، فلأنه لا يضيع العرف بين الله والناس. لقد وجدت هذا النطاسي دون معرفة به شخصية جديراً بالاحترام جديراً بالمحبة■

اليوم السابع ـ ٢٥ أيلول ١٩٨٩

«... الذي كان يومذاك بقبالتي رجل مهذب وشهم وشجاع عميق القرار يجيش بافكار تسعى للرقي بالانسان وإثراء وجدانه... هذا الذي كان بقبالتي، قاتل القاتل، وجدته مليحاً هو ايضاً... ولاكثر من سبب وجدته جديراً باحترام... جديراً بمحبة...».

«وبشِّر القاتل بالقتل». وفي الانجيل «من يرفع السيف بالسيف يموت». ومهما كان الامر، فقد صار وهو الذي ليس من طبعه العنف، ذات يوم أو آخر، وسيلة للقصاص الذي هو عنف العنف. وكما جاء في القرآن الكريم أيضاً «ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليِّه سلطاناً فلا يسرف في القتل»، والثورة من بعد، وليّ من لا وليّ له. وإذا كان كظم الغيظ والعفو عن الناس والإحسان عند الله احسن، فالعدل حتى بدون ذلك، وحتى قصاصاً واحدة بواحدة حسن، ولكلا الحالتين مسوّغ ومزاج. على أن ما حدث، حدث منذ زمن بعيد، وفي زلزال ثورة كبرى أطلقت من قمقم احقاد قرن او يزيد، وفجّرت حبيس ثارات تعتّقت، وانهضت ارواح مظالم ومهانات امعنت وأرهقت، فمات ليغسلها بالدم النفيس ما يربو على مليون شهيد. افهل على قاتل القاتل من إثم ان قتل بسلطان؟

قالت لي عنه مستقبلتي في مطار أورلي: «سيتولاك عنا في أيامك الاولى ولن تجده إلّا خير معين». واخبرتني مستقبلتي في البويت (الاستوديو) الذي استؤجر لي: «انتظرك طويلاً واضطر للذهاب غير انه عائدك غداً». ثم بحماس: «ستكتشف بنفسك كم متين هذا الجزائري». أما صديقي هنري فقد هاتفني من خارج فرنسا يوصيني: «لا تتردد في الاعتماد عليه متى احتجت لشيء»، فهو حميم «وهميم» ولن يثقل عليك». هكذا شوّقوني للقائه بهذا التقريظ وكانما باتفاق. وحين التقيت به وجدته شخصاً رزيناً وعفيفاً متزهداً لحد الاستغناء، وصموتاً منطوياً على نفسه دون إهمال لجليسه، لا بمتكابر ولا متصاغر، ويشيع الثقة به فيمن حوله. ووجدته خلال فترتي الأولى بالعاصمة الفرنسية ـ وكما قيل لي ـ خير رفيق ومعين قاتل القاتل هذا.

سألته يوماً ونحن بمقهاه المفضل بحيّ سان جرمان: «قل لي، هل شاركت في الثورة الجزائرية؟» اجاب كالمتبرم: «كل جزائري سيزعم لك الآن انه اشترك فيها إن لم تكن قامت على كتفيه». وبعد هنيهة إستغراق هزّ رأسه نافياً ليقول بصوته المتمهل الخفيض: «لا، كنت في الواقع في سن لا تسمح بمشاركة ذات جدوى يقال عليها. أدركت الثورة وهي في أخرياتها وعلى عتبة الاستقلال. هذا ما كان». ورشف رشفة من قهوته المركزة ثم انغلق في قوقعته كالمعتاد، لا يطل منها ثانية إلا أن يحفزه جليسه حفزاً. أقول:

ـ الا حكيت لي بعض ما إنحفر في ذهنك من ذكريات تلك الأيام الخوالد؟ لولا إصراري ما نَبَس. حدّق ملياً امامه في الفنجان الخالي إلا من الثفل، ثم اخذ يتكلم بصوت خافت وكأنه اصبع يتحسس اثر جرح قديم:

ـ «عند إنهيار الدولة الفرنسية في الجزائر تولينا نحن الشبيبة مهام الحراسة وحفظ الأمن. فقد صار على الثورة المنتصرة لتوّها، أن تكبح ما استطاعت عنان فوضى عائرة إنطلقت لحسابها الخاص في كل مكان وان كان ذلك أحياناً كثيرة باسم الثورة. في احدى النوبات وأنا اطوف بسيارة الامن مع زميل لي وصلنا معتقلاً ضمّ عدداً من المتعاونين مع العدو بإنتظار أن يبت في مصيرهم. ولدهشتي اندفع احدهم يتشبث بي في لهف يستعطفني بعلاقة زعم انه على يقين منها وان لم يتذكر طبيعتها. يستنجد بذاكرتي لتسعفني فلربما كنت من ذوي قرابته أو جيرته فالوجه غير غريب عليه. يتجاذبني بعشم فيه شراسة واستماتة، عشمه الأخير، كاستجداء أطفال الغجر المتواصل الملحف الملاحق الذي لا يعرف العيب أو الحشمة او اليأس، يحاول سُدىً إستشفاف اثر في ملامحي ينجد ذاكرته أو يبشره باستجابة مني لرجائه، بينما كنت اصدّه وأردّه، منتهراً ان يغور من امامي. طلبت من زميلي الا يأبه له وان ينصرف.

«أبدى زميلي إستغرابه من اصرار الرجل على ادعائه ونكراني له في حدّة وغضب مكتوم، حين حسبت اننا صرنا بمبعدة كافية بحيث لن يكون الرجل في متناول زميلي الذي أعرف فيه رعونته فيؤذيه، رويت له حقيقة الأمر.

«كنت وقتها صبياً صغيراً أحمل الطعام لمجاهدين مختفين في مخبأ سري في وسط احد الحقول المجاورة. استوقفتني في الطريق دورية عسكرية عليها آمر فرنسي، وتصدى لي من بينها أحد ابناء بلادي يستنطقني لمن كنت احمل ذلك الطعام. وكلما إزدادت شفتاي إنطباقاً، أمعن الرجل في صفعي ولكمي، ولطمي وركلي، وكانه فقد صوابه كلية. كادت صفعاته تفقدني سمعي، لا، بل كادت فظاظته المتناهية تفقدني حياتي نفسها لولا ان انتهره الآمر الفرنسي بالتوقف حيث لا فائدة في الاستمرار، تركوني ملقى على الأرض بين الموت والحياة وانصرفوا.

«الآن نسي كل ذلك تماما. صار يتشفع بي انا الذي لم تشفع لي عنده طفولتي. نسي إلا ذكرى غائمة غامضة لملامح وجه طفل إنفصلت عن مكانها وزمانها ومناسبتها ناط بها في يأسه المطبق رجاءه المستميت. نسي، ولكن كيف لي ان انسى ما أصابني على يديه وقدميه مهما تقادم العهد وامتد بي العمر؟ ومع ذلك، لم أكن راغباً في ان يناله زميلي الارعن بأذى إنتقاماً للولد الصغير الذي كنته آنذاك، والذي لقي منه مرير العذاب لكي يتفوّه بالسر المقدس الذي كان يكتمه في سويدائه.

«رغم محاولتي أن اثني زميلي عن تصميمه وان يترك الوغد ومن سيتولون أمره وشيكاً، أصرّ زميلي على الاستدارة راجعاً. وما رآنا الرجل ثانية حتى وثب رجاؤه ثانية وهرع إلينا مستبشراً. ازاحني زميلي بدفعة هائلة عن طريقه ليفرغ سلاحه في الجسد الذي تهاوى بيدين ممدودتين نحونا ـ نفس اليدين الفظتين اللتين أوسعتا صدغي وأذني وانفي وفمي واضلعي وكل جسمي الصغير صفعاً وركلاً ولكماً ولطماً من غير هوادة أو توقف. لقد ندمت لأنني أطلعت زميلي على حقيقة الامر رغم إستحقاق الرجل للعقاب الذي تلقاه بحسبان اية شرعة ارضية أو سماوية. الله غالب. في تلك الأيام كانت العدالة ناجزة والجزاء اشبه بالجرم، وكانت الثورة وليّ من لا وليّ له».

يقول: «أعرفها هذه العدالة الناجزة، بل ومارستها بنفسي.

«كان ذلك خلال نوبة تطواف أمني كالمعتاد. مررت بقرية فرأيت فيها مشهداً عجيباً. أهل القرية كافة صغيرهم وكبيرهم يتزاحمون مهتاجين من حول إمراة إن لم تكن مجنونة تماماً فتكاد. والمراة تضرب بهراوة، غليظة رجلاً امامها ضربات متلاحقة مغيظة تستل لها من صميم كيانها كل ما مكن فيه من عزم أخير، تخبط الرجل حيثما إتفق لا تكاد تتوقف لتلتقط انفاسها. هذا، والرجل يحاول إتقاءها في ذعر هائل والجمع الحاشد يستحثون المراة المزيد وكأنها تسمعهم اوكأنها بحاجة منهم لاستزادة أو حث، وهم يسبون الرجل ويستنزلون عليه اللعنات وقد ضربوا عليه نطاقاً محكماً فلا إنفلات له أو نجاة، بينما العيون يتطاير منها الشرر، والوجوه يكشّر فيها الخطر، والقبضات تهتز بتصميم أكيد على الفتك بالرجل.

«بمشقة استطعت السيطرة على الموقف والحيلولة بين المرأة والرجل. تبين لي انها ارملة مجاهد استشهد تحت العذاب. والرجل «بيّوع» ـ جاسوس مأجور ـ وهو الذي قاد عسكر العدو في الواقع الى مخبأ زوجها المجاهد الذي فيه اعتقل ومنه اقتيد لعذابه الرهيب فالشهادة. ولم يكن بامكان ذلك «البيّوع» معرفة مكان اختفاء زوج المراة المجاهد لو لم يكن ـ يا للسفالة ـ أخاه.

«لا، لم يكتف الأخ السافل بفعلته الشنيعة تلك بحد ذاتها، بل وسَدَر بعدها فيما هو اشنع وأبشع ـ فقد ظل يشق القرية عياناً بياناً بلا حياء، متبختراً وهو يحتقب سلاحه في اعتزاز بالاثم وخيلاء، ليرغم ارملة أخيه الشهيد على مضاجعته في عين فراش زوجها ـ أخيه المجاهد البطل الشهيد ـ كلما فكّر بذلك أو عاودته الشهوة. وها هي ارملة أخيه الشهيد وقد تمكنت منه اخيراً تنتقم لنفسها من العار والهوان اللذين أجبرها عليهما المرة بعد المرة زمناً طال، مثلما لزوجها البطل من خيانة أخيه المزدوجة».

خفّض صوته بأكثر مما كان مضيفاً: «هذه المرة أنا الذي لم أتمالك نفسي، أنا الذي افرغت سلاحي في جوف النذل، ولست بنادم على ذلك». سكت برهة يتفرس اسارير الماضي في حثالة القهوة التي أمامه ثم علّق قائلاً: «ومن لحظتها قررت مغادرة بلادي في أول فرصة لا اعودها إلا لأمر قاهر».

الذي بقبالتي يومذاك مجسّداً الوداعة والطيبة، لا أصدق انه قمين بقتل ذبابة. من الذي لا يثق به ويطمئن إليه؟ تساءل بشار بن برد مستنكراً: اي الرجال المهذب؟ فالكمال لله وحده. ومع ذلك أشهد على افضل ما وصل علمي، إن الذي كان يومذاك بقبالتي مهذب وشهم وشجاع، عميق القرار يجيش بأفكار تسعى للرقي بالانسان وإثراء وجدانه دون أن يطلب لنفسه من وراء ذلك كثير. منذ إلتقيت به وحتى تباين طريقانا، لم يتكشف لي عما يزري به في شيء. «خيرة» ـ المجاهدة الجزائرية التي ظلت تخدمني فترة سفارتي بالجزائر وهي أفضل من المخدوم ـ ما برحت تردد لي في أسى وتحسر: «الناس الملاح كلهم تحت الارض ما بقي فوقها من كثير». لا، ليسوا كلهم يا «خيرة»، فهذا الذي بقبالتي يومذاك مثلاً ـ قاتل القاتل ـ وجدته «مليحاً» هو ايضاً، مثلك مع آخرين. ولأكثر من سبب وجدته جديراً باحترام جديراً بمحبة ■

اليوم السابع - ١٠ تموز ١٩٨٩

«... فماذا قصد محمد بذلك الدرس المذهل الباذخ الفذ الذي صدم مشاعر زمرة من اصحابه؟ في تقديري قصد - بين اعتبارات اخرى - تعليم امته احترام الشبيبة واحترام المعيار. فلا ينبغي لحداثة السن وحدها ان تنكر على شاب نصيبه من الرشد، او الصلاحية للمسؤولية، او الاهلية للقيادة».

يجفل مستنكراً: كيف بي احترام من لم يصل بعد سن الرشد! اسائله بدوري: وهل للرشد سن ليس دون وصولها رشد إلّا ما تواضع عليه المشرعون حسماً للأمر وحكماً بالعام وان كان اعتباطاً؟ ثم هل للاحترام عمر ليس قبل بلوغه إحترام بتاتاً؟ ام لعلنا نخلط ما بين «الاحترام» من جهة و«التجلة والتبجيل» من جهة اخرى؟

ولكي يتضح باكثر ما عنيته بكلمة «احترام» هنا، علينا مضاهاتها بإحدى نقائضها ولنقل «الامتهان». غندئذ تعني ادراك ما في شخص (او شيء - لم لا؟) من قيمة متبدية او كامنة والاعتراف بذلك مع حرص عليها وتوفير لها.

بذلك يتجاوز مفهوم «الاحترام» في هذا السياق، مجرد مراعاة متأدبة من آدمي لآخر فقط لان هذا «رأى الشمس قبله» وان كان ذلك من صميم تربيتنا الرفيعة بلا نكران. (وبلا نكران تصح ايضاً كلمة «زهير» بأن «سفاه الشيخ لا حلم بعده»). ولكن في جميع الحالات، لا ينبغي الخلط بين «الاحترام» و«دلالات التعبير عنه»، كالمخاطبة بألقاب التعظيم وجمع التفخيم، او كالانحناء والقعود والقيام، او كتغطية الرؤوس والاقدام (او العكس) وما اليه من رموز التطامن والاحتشام على غرار الاعاجم التي باستخدامها في غير موضعها او لغير مستحقها - ان كان لها - إنقلبت فوراً الى مهزأة ومهزلة. عسى بهذا الا تغري حداثة السن في ذاتها بحرمان حدث حقه في احترام - ناهيك عن امتهانه.

احترام لا ينبغي قصره على فلتة معجزة مثل ذلك الذي «اوتي الحكم صبياً» على أنه نبي. او على وارث الهيبة والرهبة كالصبي التغلبي الذي متى بلغ الفطام تخر له الجبابر ساجدين - بحق او مبالغة. او على الاعجوبة النابغة كموزار الذي بدأ في الخامسة تثليثاته الموسيقية (ونصوصها موجودة) وفيما بعد العاشرة مطولاته المركبة بموهبة غالت في البكور. ولكن لكل ناشيء فتيان عوّده ابوه على استحقاق ذلك الاحترام، حيث بامكان نظام تربوي مستنبط للقرائح ومفجر للمواهب ومستحق لنضوج الشخصية على اتم ما يكون الايناع والابداع، تعويد ناشيء الفتيان ذاك (والفتيات - لم لا؟) الرشد قبل بلوغ الحلم. انسينا مثلاً احدوثة غلام الزبير مع امير المؤمنين وكثير اشباهها في التراث العربي والعالمي. ثم ماذا كانت عليه سن «علي» حين سبق والاسلام تباشير؟ ولا اشير الى سن «محمد» نفسه يتحالف يافعاً مع الكهول في بيت ابن جدعان خشية سائل: ومن احسن تأديبه؟ وللسبب نفسه لا اسأل كم كان مجموع سني «ابن مريم» من المذود حتى الصليب بما غير بها اسلوب صنع التاريخ البشري الى يومنا هذا ولن يشاكسني في هذا الزعم تفسيرك المادي للتاريخ يا أخاه!

كان «انفاذ جيش اسامة» اولى المجابهات الكبرى والحاسمة التي خاضتها ارادة ابي بكر العنيدة فور وفاة مؤسس العقيدة. فلقد رأى المصطفى في سامق حكمته عقد لواء جيش من جل صحابته السابقين، ينطلق للروم في تخوم فلسطين، لشاب لم يبلغ تمام العشرين يا للعجب! لذلك حين امسك خليفته ذاك بعنان فرس «اسامة» يعفر القدمين موصياً والامير الشاب منيف عليه من الصهوة - لا الخليفة قابل لنفسه الركوب ولا لذلك الشاب النزول - ربما قصد ايضاً ان يجسد بذلك ويؤكد، والجيش برمته من خلفهما يشاهد، الدرس الذي اراد تلقينه لامته القدوة القائد الذي اختار ذلك الشاب للامارة في البدء.

استأذن الخليفة - ولم يأمر - الامير الشاب اعفاء «عمر» و«علي» له بالمدينة للشورى حيث حتى هما كانا مشمولين بامرة «اسامة». فماذا قصد «محمد» بذلك الدرس المذهل الباذخ الفذ الذي صدم مشاعر زمرة من اصحابه؟ في تقديري، قصد - بين اعتبارات اخرى - تعليم امته احترام الشبيبة واحترام المعيار. فلا ينبغي لحداثة السن وحدها ان تنكر على شاب نصيبه من الرشد، أو الصلاحية للمسؤولية، او الاهلية للقيادة، ما كان بذلك جديراً تماماً. وللاسف، لا يزال في امة ذلك النبي العظيم حتى يومنا من يغيب عنه هذا الدرس الحكيم - آخر دروسه - تماماً كمن انكر آنذاك امارة «اسامة» ومن قبله امارة ابيه. ولكن قارن هؤلاء بخالد يؤكد لابي عبيدة الذي بعث به لانجاد قوة محاصرة في «ابي القدس» على راسها شاب ايضاً هو عبد الله بن جعفر الطيار وان ضمت من الكهول امثال ابي نادر: «والله لو أمرت عليّ طفلاً صغيراً لاطيعن له» - كما اورده الواقدي في «فتوح الشام»، فتأمل هذا الشموخ والقائل من بعد ابن الوليد.

الشبيبة؟ ما الغرابة، وهذا هو الاسكندر «الاكبر» تتلمذ ما بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة على «ارسطو» فاذا به بعد قليل يخالف «المعلم الاول» رأيه في كيفية معاملة اليونان للشعوب المخضعة وكان رأي التلميذ الارجح. وحين بلغ العشرين او كاد، اجمع على الاذعان له كافة القواد لما جمع من حزم وحكمة ونجابة ومهابة، حتى لقد اعترف احدهم بانه حين مر بتمثال له بعد مماته انتابته نفس القشعريرة كما لو في حياته. وفي سنواته القليلة جندل ذلك الشاب الممالك جمعاء حتى ولج مهجة الهند. وحين مات في استهلالة ثلاثيناته، خلف وراءه الحضور الهيليني ممتداً ما بين بوابة هرقل حتى البنجاب.

أهاج هذه الفكر وأمثالها في خاطري، حوار اوردته صحيفة «السياسة» السودانية بعنوان «لقاء مع اصغر رئيس اتحاد مدرسي»، واليكه: «الطالب احمد النعيم يبلغ من العمر ١٦ عاماً، بالصف الاول الثانوي. تم ترشيحه مؤخراً رئيساً لاتحاد مدرسة شمبات الثانوية بنين، الذي يضم ٢٤ عضواً يمثلون فصول المدرسة المختلفة، «السياسة» كان لها مع الطالب احمد هذا الحوار:

سؤال: هل رشحت نفسك لانتخابات الاتحاد؟

- «لا، ولكن رشحني زملائي في الفصل اولاً، ثم رأى الاعضاء الذين تم اختيارهم ممثلين للفصول ترشيحي رئيساً للاتحاد، وفعلاً فزت بعد اجراء التصويت».

سؤال: هل تؤمن باشتغال الطالب بالسياسة، ولماذا؟

- «لا بد للطالب ان يدرك العمل السياسي مبكرا، وبخاصة ونحن في وطن يؤمن بالنظام السياسي الديمقراطي. اما لماذا، فلكي يدرك الطالب ما يحيط ببلاده من مشاكل وقضايا، ومعرفة دوره الذي سيؤديه في حدود امكاناته». هكذا لم يقل انه «يؤمن باشتغال الطالب بالسياسة» ولا العكس، انما استخدم الفعل «يدرك» فتمعن.

سؤال: ما هو الدور الحقيقي للاتحاد المدرسي في نظرك؟

- «تنظيم جهود الطلاب داخل المدرسة لانجاز الاعمال الخاصة بالنشاطات المختلفة، والمشاركة الفعالة في تطور ورقي مدرستهم شكلاً ومحتوى في كل النواحي الثقافية والاجتماعية والرياضيه».

يحاصره الصحفي: اذن اين الدور السياسي للاتحاد؟

يتفادى الاجابة المباشرة مرة اخرى ويرد بلباقة ونضج: «انا لا اؤيد ابداً اسلوب تحرش الاتحاد بالمسؤولين تجاه الازمات التي نمر بها، ولكن هذا لا يعني صمت الطلاب عما يجري، وعليهم في هذه الحالة التعبير عن آرائهم بصورة حضارية تعكس وعي الطلاب».

يستعرض اهم مشاريع دورة اتحادهم التي يترأسها ولا تخرج عن نشاط مدرسي نافع يؤكد انه «سيتم في اطار اشراف ادارة المدرسة» وينتهي الحوار بكلمة اخيرة منه: «على زملائي الطلاب ادراك دورهم التام تجاه وطنهم. ولا شك وهم اطباء ومهندسو ومدرسو واقتصاديو المستقبل، عليهم بالحرص على التسلح بالعلم، وقديماً قيل: العلم يرفع بيتاً لا عماد له، والجهل يهدم بيت العز والشرف». انتهى.

احسنت يا بني ووقاك الله العلة والزلة. حاول مستقبلاً ان تتبع نصح معلم اللغة العربية بتجنب حشر شيء بين المضاف والمضاف اليه ولو بالعطف، رغم شيوع مثل هذا الحشر الآن بتأثير لغات اجنبية او توفيراً للطاقة.

ناشئة اليوم قادة غد ودعاماته. وبمقدار ايمانهم بأن التصدي والتصدر دافعهما الخدمة لا الوجاهة أو الاستعراض، واداء امانة لا اشباع ذات او جني ثمرات، وبمدى تقبلهم بروح عالية للانتقاد والمحاسبة والمنافسة والنصر والهزيمة، بامكاننا الاطمئنان على معافاة العمل العام على اياديهم وعلى مصير الوطن. في اتزان اجابات الابن احمد النعيم وعد مبشر ما نأى عن غرور، وما ثابر على التعلم لا سيما من إخطائه، وما قدم الاهم على ما دونه واحسن التمييز، وما تيقظ دائماً لعيوب ذاته ومحاسن لداته، وما توخى الحق والحقيقية والمنفعة العامة. فلئن فعل هو وجيله في الوطن العربي، كانوا جديرين بالاحترام. وجديريون هم دائماً بالمحبة ■

اليوم السابع - ١٥ أيار ١٩٨٩

«... القي نظرة اخيرة على خطابه بحروفه الكبيرة المشبّحة (...) في خطه كثير من شخصيته، اطوي خطابه، أعيد كتابيه الى حيث كانا بين كتبي. استحضر طيف صاحبهما عليه الرحمة واقول: جزاك الله يا صلاح عثمان هاشم عن الفكر العربي وعن المعرفة خيراً، ايها الخالد في اعماله...».

لئن انتمى لبيت له مكانته في السودان لعراقته في خدمة التعليم والقضاء بشقيهما الشرعي والمدني ولمشاركة شخصيات منه في الارهاص الفكري والجيشان الاجتماعي منذ أواخر العشرينات، فما كان أزهد صلاح عثمان هاشم في الاستعارة من اهليه ذراعاً يتوكأ عليها على حين يملك يراعاً. بل لقد ظل ينطبق عليه المثل السوداني السائر: البسوّاي ما حدّاث (أي الفعال غير قوال) مكرمة اضافية، حيث صامتاً اجزل عطاءه، وصامتاً ترك دنيانا وراءه.

تخرج بتخصص اساسي في الجغرافية («اساسي» اقول، فلا تخطئني يا أخا العرب وفي اللغة براح) ولكن حباه الله بموهبة فذة في التقاط اللغات حتى لقد استدرجه مساق قول ذو شجون ـ وليس تهنئة الذات ـ لمساررتي ذات مرة وفي مرح بمعرفته بما ينوف على تسع لغات، ما بين المام كاف واجادة تامة. ومن تلك التي اجادها تماماً لغة الروس. وما خصصتها بالتعيين إلاّ لان اعماله المنشورة حتى الآن نقل منها.

ما تعدت لقاءاتنا المرات المعدودات. كان وقتئذ سفيراً للسودان بباريس ومنها الى طهران قبيل الاطاحة بالشاه. بعد ذلك ترك الخدمة الدبلوماسية ليستقر في واشنطن مكرساً بقية حياته للعمل الفكري الذي اجتذبه، يتردد على مكتبة الكونغرس يستعين بمخزونها الوافي في استجلاء ما يعتور ترجماته من مستغلق عويص ومتقلقل

في تلك المرات القلائل وجدت بإزائي شخصا بسيطا ومنبسطا ولكن باهر الحضور. لا متصدر ولا متقعر ولكن على ثقة بالنفس، يشارك رصفاءه همومهم المشتركة واحاديثهم الصغيرة ولكنه في انشغال بما يزمع من تسفار ولا كتسفارهم، جدير يسمو همته، وشموخ غايته، اقرب ما يكون الى جبل يتوهمه رائيه دانياً، حتى اذا حسب أنه بالغه، ظل الجبل على حالتيه دنواً وبعداً.

ثم هل انفع ممن تعلم علماً فسعى في افشائه باخلاص؟ امامي ـ اللحظة خطاب منه أبى إلاّ ان يعترض طريقي اليوم كالمتربص الفرصة، على حين كان مبتغاي غيره. فذكرني بقضاء حق كان الأوجب بي قضاؤه وصاحبه حي يتلقى ويستجيب. أما كان يثني من حين الى حين على بعض ما ينشر لي في هذه الصفحة، ولعله ثناء أغداق لا ثناء استحقاق؟ ثم داهمته المنية حين كان على اهبة الذهاب الى مكتبة الكونغرس لمواصلة مسعاه الشريف، فهوى على الارض شهيداً ما بين القلم والقرطاس. وهكذا انقلب ما انتويته كثناء عليه الى رثاء له. ولا احسبه ان وجد في وطنه (الذي صارت سيماؤه ـ أسفاه ـ انشغال المرء فيه بوطره الخاص عن المكرمات وبالتقصير والتقتير عن المعالي، بعد سابق شيمته في الشهامة والتنافس في عمل الخير وحسن المبادرات) ان وجد منصفاً شاكراً او وفياً ذاكراً فيفيه حقه. بحسب هذه الكلمة اذن، ان تكون تذكيراً عابرا بفضله. فلنقرأ معاً خطابه ذاك الذي قفز لحكمة صباح اليوم بين يدي، حيث الخطاب هو هو أو جزء مهم منه. يقول:

«لعلك تتساءل ما الذي يحمل رجلاً لم تتسع بينه وبينك فرص اللقاء الطويل والتعرف عن كثب حتى يكلفك بهذه المهمة. غير ان الذي حملني على ذلك هو ان الوشائج بين اهل الفكر والادب اقوى بكثير من الوشائج الاخرى التي بين الناس. فكنت اتمنى لو سنحت الفرصة لتعمل بقلمك السيال في مدوناتي حتى تقوم معوجها وتسهل وعرها. فان راقت لك الفكرة ولا اخالها الا ستروق لك، فارجو ان تكتب لي على جناح السرعة لارسل لك بالكراسات. وكل املي الا ترفض رجائي هذا وان تعتبره ديناً في عنقك نحو الفكر العربي ونحو المعرفة عامة». ويلخص المهمة المطلوبة مني بان المترجم «يحتاج الى التخلص من سيطرة المؤلف الذي نقل عنه، فليس هناك خير من عرضها على شخص آخر ليست له معرفة بالاصل حتى يعمل على تصليح المتن وصياغته من جديد ما امكن». وينهي مكتوبه متمنياً لي ان ادوم «مفكراً واديباً و... مصححاً».

إبتسم للامنية الاخيرة حيث له استبطانات فكاهية خبيئة كماء التبلّد، هناك وليست هناك. وكما تنبأ، فقد راقت لي الفكرة وكذلك توصيته لي: «ان طرا لك ان تذهب في زيارة للسودان فلا بأس ان تأخذها معك على ان تكون اقرب اليك من حبل الوريد».

معية خطابه نسخة من آخر ترجمة نشرت له وهي «العرب على الحدود بين بيزنطة وايران من القرن الرابع الى القرن الخامس الميلادي». الفته المستشرقة «نينا فيكتورفنا بيغوليفسكا» ونقله الى العربية، يشرح لي اهمية الكتاب في كونه «يلقي الضوء على القرون السابقة للاسلام بمنطقة الشرق الأدنى، وبهذا يوضح كثيرا من الاطر التي ظهر فيها الاسلام. ويهمني كثيرا ان اعرف رايك في الكتاب وفي الترجمة وفيما زودته به شخصياً من تعليقات واضافات غير موجودة في الاصل الروسي».

طلاب الحقيقة ـ يا رعاك الله ـ لا يستكبرون قط على طلب الراي ممن يحسبونه قميناً بابداء راي قد يزيد من جلائها وبهائها. ولكن طلبه رايي في هذه الحالة ـ دونما غمط للنفس ـ تلطف منه بالاحرى. فهذا العمل القيم ـ أصلاً ونقلاً ـ اضخم في الحقيقة من ان يستطيع من ليس هذا مجاله مثلي، الافادة فيه بأكثر من ابداء الاعجاب به والاعتراف بالاستمتاع والاستفادة، تاركاً الحكم المدقق فيه (ان ابدى احكاماً) للعالم المتبحر والناقد المستبصر. غير انه تصد طموح وموفق، اغنى به المكتبة العربية. فلقسم التراث بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت عظيم التقدير لرعايته له.

لم أجد في الواقع كثير عمل اقول به في تصحيح المخطوطة التي دفع بها الي ولكنني اخلصت الجهد وانا على يقين بأنه مجرد حرصه على التجويد والاحسان ومداناة الكمال. ولقد ذكرت له رايي هذا وانا اعيد له المخطوطة المصححة على «جناح السرعة». كان عنوانها «الشمال الشرقي الافريقي في العصور الوسيطة المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية» للمستشرق السوفياتي «كوبيشانوف». يصف لي اهمية هذا الكتاب بكونه «أوسع مجالاً، لأنه يغطي الشمال الشرقي لافريقيا، اي وادي النيل وأطرافه، بخاصة الحبشة والنوبة. اضف الى ذلك انه واسع في نظرته التاريخية التي توشك ان تكون على الغرار التوينبي» كتبها بالفرنسية: الا توينبي.

عشمي ان يجد هذا الكتاب من اكثر من جهة اكاديمية وسواها وبخاصة في السودان، احتفالاً لائقاً ونقداً مدققاً ودراسة جادة.

اما كتابه الاول: «تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي» من تأليف العلامة فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد» فقد تولت نشره اللجنة الوطنية للاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجري بالكويت فلها الشكر والتقدير. يقول المترجم في تقديمه: «هذه هي المرة الاولى التي يظهر فيها هذا الاثر الهام في لغة الضاد، وذلك بعد مضي ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن على ظهور الاصل الروسي له. وترجع معرفتي بالكتاب الى ما يزيد على الثلاثين عاماً، قراته للمرة الاولى في ترجمته الانكليزية. وخلال اقامتي بموسكو، وحين اصبحت اللغة الروسية طوع لساني ويدي، قراته للمرة الثانية في اصله الروسي، وقرأت الى جانبه اكثر ما دونه يراع ذلك العلامة الكبير الذي يعد بحق المؤرخ الاول لآسيا الوسطى الاسلامية. وهنا اخذت تتبلور لدي فكرة نقله الى اللغة العربية، وحفزني على ذلك عدد من الاصدقاء والزملاء اخص منهم الدكتور يحيى الخشاب عالم الايرانيات المصرى».

وقد جعلت الطبعة السوفياتية الجديدة هي الأساس لترجمتي، فنقلتها نقلاً دقيقاً وأميناً الى لغتنا العربية. وشفعت ذلك بأن راجعت ترجمتي هذه على ترجمة الكتاب الانكليزية التي ظهرت في عام ١٩٢٨، والتي أشرف على اعدادها المؤلف نفسه. ثم راجعت متن الترجمة على المصادر الاسلامية التي استقى منها المؤلف مادته، وعرضت المسودة في آخر الامر على صديقي وزميلي الاستاذ صادق عبد الله عبد الماجد فقراها قراءة دقيقة أمينة واجرى فيها قلمه بالتصحيح والتوضيح وحسن اسلوبها وحملني على توضيح الجوانب الغامضة حتى يكون الكتاب سهل المتناول على القارىء العام. ولم يفتني كذلك ان أضيف بعض التعليقات والمقتطفات من المؤرخين المسلمين، بل انني استدركت ما فات على الناشرين السوفيات من مراجع مع الاشارة بوجه خاص الى الطبعات والترجمات العربية الحديثة. ولعل مما يسر على نقل الكتاب الى العربية إلمامي الى جانب الروسية باللغات الفارسية والتركية والمغولية، وسيتبين للقارىء خلال مطالعته للكتاب اعتماد العلامة الروسي على المصادر المدونة بهاته اللغات اعتماداً اساسياً، خاصة في الفصول الاخيرة من مصنفه».

القي نظرة أخيرة على خطابه بحروفه الكبيرة المشبّحة، كما لو معلم يكتب في سبورة لناشئين. في خطه كثير من شخصيته. أطوي خطابه. أعيد كتابيه الى حيث كانا بين كتبي. استحضر طيف صاحبهما عليه الرحمة. تغتلي في جوانحي المحبة والاحترام والحسرة على فرصة ضاعت للابد. لم نكرمه قط في حياته. لم نعرف قدره حق معرفته. بل وكان بعضهم يمد لسانه اليه من وراء الظهر جهلاً أو حسداً. اتحسر فوق كل شيء على السودان الذي يتحكر على أم راسه قادة لا يقرأون التاريخ. وليس لديهم اي حس حقيقي بالتاريخ. ولا يتعلمون حتى لمصلحتهم الأنانية دروس التاريخ. وكثيراً ما يكون المشرف على الثقافة والعلم والقرار فيه ـ على ما يحمل من لقب علمي ـ اجهولة مطموس البصيرة منطفيء السريرة. فأقول لطيف صلاح عثمان هاشم في عليائه: جزاك الله عن الفكر العربي وعن المعرفة خيراً ايها الخالد في اعماله، انما الميت ميت الاحياء ■

«... لهذه الرسالة القصيرة وحدها استحق كاتبها امتناننا العربي. فقد اعمل عقله وهو يقرا مقالة «قلين فرانكيل»، وحكم ضميره فإنحاز للحق، وحفزته الغيرة على الحق للانتصار له علانية، رغم ما تقتضي مثل هذه المناصرة العملية من بعض تكلفة تتقاعس دونها حتى همم اصحاب الوجعة الحقيقيين من القادرين على الكتابة والتفنيد والتصدي بالحجة المضادة...»

ظهرت في «الهيرالد تريبيون الدولية» بتاريخ ٢١ كانون الثاني (يناير) مقالة بقلم «قلين فرانكيل» من خدمات الواشنطن بوست بالقدس. وها نصها او يكاد:

«لايام من الشهر الماضي، ظل يهودي بقلب معطوب وعربي مصاب بطلقة في راسه من يهودي، يحتضران في مستشفى لا تفصل بينهما غير بضعة اميال. كان بإمكان قلب العربي السليم إنقاذ حياة يهودي، ولكن الدم والسياسة تدخلا. قالت أسرة العربي: لا ـ للمناشدة المستيئسة المنبعثة من الأسرة اليهودية لاعطائها القلب. وفي النهاية مات الأثنان».

«احدثت إنتفاضة الفلسطينيين أحدوثات جمة من موت عام وحزن خاص. ولكن ما اقلّ ما استثارت واحدة منها اسئلة واهاجت مشاعر، وسط الاسرائيليين والفلسطينيين، واليهود والمسلمين، بمثلما فعلت قصة القلبين هذه».

«كان ديدي زوكر، عضو البرلمان وواحد من جماعة أرْبَتْ على العشرة من سياسيين إسرائيليين وشخصيات عامة فلسطينية سعت بوساطة جهيضة لاتاحة نقل القلب. قال زوكر: لقد أنتصرت السياسة وخسرت الحياة. فالنزاع يهيمن على كل قرار هنا أينما حدث تناقص بين حقوق الانسان والسياسة. واياً كان متخذوه ـ إسرائيليين أم فرنسيين ـ فالسياسة تغلب».

«قبل ان ينتهي العربي واليهودي إلى المستشفى، كانا يعيشان حياتين جدّ متباينتين. يحيل يسرائيل وعمره ٤٦ عاماً، كان زوجاً ووالداً لثلاثة. كما كان رجل أعمال ينحدر من عائلة أورشليمية معروفة، يدير شركة بناء كبرى، ويعيش في شقة فسيحة بحي بيت هكاريم الهادىء الرفيه».

وأما محمد ناصر حوّاش وعمره عشرون عاماً، فقد كان يعمل على آلة خياطة في مصنع للملبوسات. كان واحداً من ثمانية اخوة، يقيم في شقة ابيه بمياهها الباردة، الكائنة في حي متواضع يقع بجانب طريق متعرج في نابلس، مسرح المواجهات التي تكاد تكون يومية ما بين الفتية رماة الحجارة والعساكر الاسرائيليين».

«لم يتلاقيا قط، وفي الاحوال العادية ما كان لطريقيهما ان يتلاقيا قط، ومع ذلك فقد تواشج موتاهما». هكذا قال ويستطرد:

«بدات القصة في نابلس الشهر الماضي، ضحى يوم جمعة صاحية عرفت بالجمعة السوداء. كان هناك موكب تشييع لجنازة فلسطيني عمره ١٤ سنة صرع الليلة السابقة بالرصاص. هرع السيد حواش يلحق بالمشيّعين، وبعد عشر دقائق تدافع الشباب إلى بيت الأسرة قائلين بأنه أصيب برصاصة خلال اشتباك مع الجنود، ونقل وآخرين إلى غرفة الانعاش بمستشفى المقاصد في القدس العربية. افاد الأطباء ذويهم بأن لن يعيش أي «منهم لاكثر من أيام أو أسابيع».

«في ذلك الاحد، توقف بقسم الجراحة بمستشفى حدّاسا في الجانب الغربي المقابل من المدينة، قلب السيد يسرائيل لخطأ خلال عملية في صمامات القلب. فاستمر مشدوداً لجهاز الضخ الاصطناعي والزمن يتناقص، وقد انذر الأطباء انه بغير قلب جديد مائت «خلال ٧٢ ساعة».

«لم يتطلب أحدهم طويل وقت ليقرن ما بين الأثنين، وبمكالمة مع المقاصد تأكد بأن فصيلة دم السيد حوّاش تطابق دم السيد يسرائيل. ولكن أطباء المستشفى اصروا على إستحالة عمل شيء دون موافقة آل حوّاش».

«اول مكالمة كانت من صديقة لأسرة يسرائيل إسمها زهيفا. ردّ عليها غسان شقيق السيد حوّاش البالغ ٢٧ سنة. سألته بعربية مكسّرة إن كان بإمكانها المرور لتناول فنجان قهوة معه. وحين الحّ لماذا، اخبرته بما تريد: قلب اخيه! قالت: لدينا مريض بحاجة إلى قلب، افلا يمكننا أخذه؟ أجابها: مستحيل! قالت: أهكذا نصنع السلام؟ أجابها: كيف تصنعونه بإطلاق الرصاص على إنسان ثم نزع قلبه تمنحون به الحياة لاسرائيلي؟».

«عقب غسان بأن ناصراً مات على اية حال كشهيد مسلم فلا ينبغي المساس بجسده، مضيفاً بأنه لم يخبر اباه بما حدث كيلا يثير ثائرته».

«إستعانت عائلة يسرائيل بجهود سياسيين إسرائيليين كالسيدين زوكر وموسى صارد وكلاهما مدافع عن حقوق الانسان، وتيدي كيلوك عمدة القدس الاسرائيلي، بل وحتى احود عولميرت وزير الشؤون العربية الجديد. قال زوكر: لم يكن سهلاً عليّ إقحام نفسي ولكنني شعرت بألا مناص. ولكن زوجتي إستشاطت غضباً وقالت لي ما كان لي حق في طلب ذلك منهم».

هنا يورد الكاتب اسماء شخصيات فلسطينية بارزة زعم انها تدخلت ايضاً بالوساطة. وإن المشاعر الفلسطينية توزّعت على ثلاث: قوم حثّوا العائلة على التبرع بالقلب كايماءة إنسانية بوسعها إقناع الاسرائيليين بحسن النية العربية، ومتطرفين قالوا أن ذلك سيشجع الجيش على إطلاق النار على رؤوس الفلسطينيين، ومتشددين إسلاميين مانعوا على اسس دينية، مضيفاً:

«وقيل بأن عائلة يسرائيل كانت مستعدة لتقديم عدة مئات الالوف من الدولارات ثمناً للقلب، غير أن ارملة يحيل نفت ذلك. وعلى اية حال، فقد كان مستحيلاً زحزحة آل حواش. هذا ولم تلتق العائلتان قط. وفي ٢١ كانون الأول (ديسمبر) مات يحيل يسرائيل بعد ثلاثة أيام من العملية الجراحية، اما ناصر حواش فقد استمر حياً اربعة أيام أخرى، وقضى نحبه في ليلة عيد الميلاد». إنتهت المقالة أياً كان نصيبها من الصدق والدقة او خلاف ذلك.

قلت لنفسي: لئن صحّ ان مشاعر القوم هناك تجاذبتها وجهات النظر الثلاثة التي نسبها إليهم كاتب المقالة فلا جناح ـ الخطأ والصواب من أجل نصرة القضية وكذلك شهادة الشهيد له الرحمة والخلود والذكرى الدائمة. فمنطق الفئة الأولى (بحاجة أو بدونها لاقناع الاسرائيليين بحسن النية العربية وذلك من حسابات القادة) يصدر عن تراث إسلامي وعربي راسخ في النبل والاريحية، تتجلى فيه القدرة على كظم الغيظ والعفو عند المقدرة والتسامي البطولي عند الإحن والمحن، لا تزري بتلك القوة الروحية الهائلة نذالة العدو أو همجيته او غطرسته. ثم هبْ ان يسرائيل ولَغ في الدم العربي او سَيَلَغ إن عاش، فهل سييذ في ذلك ما قارفه الغازي الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» الذي أرسل إليه القائد «صلاح الدين» مع ذلك بطبيبه «قسطا بن لوقا» يستعجل له البرء، وصارت غرة في جبين انسانية العرب ومفخرة على المدى؟ وما كان ذلك عن ضعف أو عبط من بطل حطين ومسترجع القدس.

ومنطق الفئة الثانية هو ايضاً حريٌ، بل وعمليٌ مسؤول. فما لنذالة صياد العصافير من وازع. فمثل تلك الاستجابة قد تستحيل إلى إلقاء النفس إلى تهلكة، فما أكثر المنتظرين إستبدال اعضاء حيوية معطوبة في معسكر العدو. ودون منقصة من مجتهد آخر: «كل حلم اتى بغير إقتدار» قال المتنبي.

واما الفئة الثالثة، وبرغم كون الاسلام بالتأكيد دين إنسانية وتسامح وعقل، ودين ترخيص تبيح فيه الضرورات المحظورات، ودين إنصاف لا يؤاخذ فيه بريء بوزر وازر، فمنطقها ـ طالما استندت على ما توقن بأنه واجبها الديني ـ يعلو على كل منطق.

وإذا بي أردد قولة أهلنا في السودان: الحمرة تحرق الواطيها، واليدُهُ في النار ليس مثل اليده في الماء. ثم قرأت في بريد القراء بالهيرالد تريبيون عدد ٢٥ كانون الثاني يناير رسالة من قارىء إسمه فرانك كولينز من «وود ريد ج» بولاية فرجينيا: بعنوان «قلب ورجلان» يصف فيها مقالة «قلين فرانكيل» التي أوردناها بأنها «تغريرية» حيث:

«اظهرت أسرة الفلسطيني الذي اصابته طلقة جندي إسرائيلي في دماغه وكأنها متكلسة الاحاسيس، لأن أخاه الأكبر رفض التبرع بقلب الضحية المحتضر ليهودي إسرائيلي يحتضر. ولكن كاتبها لا يورد في أي موضع منها ان معظم الربّيين الاسرائيليين يحرّمون إستزراع اعضاء مأخوذة من أي يهودي ـ لا العكس كما يبدو. وعليه ما كان ليسمح لمعظم اليهود الأسرائيليين بالتبرع بقلب حتى ولو أتيح. افلا يعي السيد فرانكيل أيّ فقدان كلّي للحياء أن يطلب يهودي إسرائيلي أخذ عضو من فلسطيني قتله إسرائيليون؟ فعاطفة الكاتب نابية، وبخاصة في وقت يجندل فيه الكثير من الفلسطينيين العُزّل. وليس إلا في نهاية المقال يورد الكاتب أن اليهودي مات قبل الفلسطيني بأربعة أيام. افهل يوعز السيد فرانكيل بأنه كان ممكناً فصم الفلسطيني عن جهاز إنقاذه الحيوي لكي يتاح بذلك استزراع قلبه؟».

لهذه الرسالة القصيرة وحدها استحق كاتبها امتناننا العربي. فقد أعمل عقله وهو يقرا مقالة «قلين فرانكيل»، وحكّم ضميره فإنحاز للحق، وحفزته الغيرة على الحق للانتصار له علانية، رغم ما تقتضي مثل هذه المناصرة العملية من بعض تكلفة تتقاعس دونها حتى همم اصحاب الوجعة الحقيقيين من القادرين على الكتابة والتفنيد والتصدي بالحجة المضادة، مما ترك المجال معظم الوقت مرتعاً لاباطيل العدو ومناصريه. حتى الكاتب الكبير الاستاذ احمد بهاء الدين (الاهرام العاشر من فبراير) لم يزد على ان وصفها بانها «قصة إنسانية سياسية مثيرة لا ينقصها إلا المؤلف».

اما آل حواش الذين اشاحوا بوجههم، في شموخ وخنزوانة، عن «مئات الالوف من الدولارات» كما ينبغي وكما هو المتوقع منهم، فأقول لهم صبراً فجرحكم العميق وجرح كل من فقد فلذة عزيزة غالية منه هو جرحنا العميق ايضاً. صبراً فلستم وحدكم في المقاساة، فالبشرية قاطبة ترى وتسمع ما يُفعل بكم كل مطلع شمس ومغربها. صبراً، وذوو الوجدان الحي معكم يناصرونكم ويتزايدون. صبراً، صبراً، اليس الصبح بقريب؟■

اليوم السابع ـ ٢٠ شباط ١٩٨٩

«... عوض الحب واحلام النجاح الخاصة، وعوض التمتع بالصبا البهيج وهناءة جسد غض يتناضج في عنفوان، لم تدر كارمن راسها بعيداً عن شعبها المقموع، وعن اطفال وطنها العراة الجوعى، الذين من اجلهم فقدت جمالها الطبيعي فازدادت في نظرنا لأجل ذلك جمالاً. وستكون بلا شك اجمل بكثير في عيون أولئك الصغار حين يكبرون...»

ربما كان على الرأس ثمن..
فالذي قدم للاطفال خبزاً ولبن
أودعوه خفية مثل «لومومبا»
حفرة شقوا لها قلب الوطن.

هل تذكره سلفادور الليندي المحتضن رشاشته مستبسلاً حتى الموت عند بوابة قصر الرئاسة ـ لا دفاعاً عن القصر او الرئاسة، ولكن عن حرمة الدستور، وشرف الوطن، وحليب الاطفال الذين في ذمته؟ كذلك كارمن، نشأت تحب أطفاله الذين منحهم الخبز واللبن، ولكن صاروا بعد اغتياله يموتون عراة بالجوع. صاروا من بعده يتامى. فقدوا قلب سلفادور الليندي... مأواهم الحنون.

خاطبتها امها صبيحة اليوم الأول للاضراب العام في الثاني من يوليه ١٩٨٦ وهي خارجة للاشتراك فيه: «كوني على حذر يا كارمن، لا أريد ان يصيبك مكروه». اجابتها «اذا حدث لي شيء يا أماه فسوف اموت مغتبطة فداء اطفال يموتون جوعاً.» قل لي، ألم يبك ذلك الشريف العلوي وقد رأى الام البائسة تجمع في طرفها ما تساقط من احمال الرطب على التراب كي تطعم صغيراتها من جوع، قائلاً لها «انت وامثالك توردوننا حتوفنا». ومن لحظتئذ عزم على الخروج. وخرج. وقتل؟ هكذا.

في الطريق مع رفقتها في ذلك الحين العمالي وجدوا انفسهم فجأة في مواجهة جنود على وجوههم الطلاء الاسود وفي ايديهم الرشيشات. لم يكترث الجنود للرفقة بل امسكو بكارمن ذات الثماني عشر ربيعاً، الطالبة بالسنة الاولى بكلية الهندسة، ومعها زميلها «رودريغو روخاس» الذي يكبرها بعام، صارخين فيهما: «انهم انتم الطلبة الذين تثيرون الشغب». فتشوهما، وجهوا لهما بضعة اسئلة، اخذوا يكيلون لهما اللكمات كيلاً، وبعد ذلك اجبروهما على الجثو على الركبتين ثم افرغوا عليهما وقود سيارات، واشعلوا فيهما النار.

ما كادت تخمد السنة اللهب، حتى رمى الجنود على الجسدين المتصاعدة منهما الأدخنة غطائين وقذفوا بهما في شاحنة انطلقت في طريق المطار. وهناك في احدى الحفر رموهما يحسبونهما قضي عليهما. بمعجزة ظل فيهما رمق. جرا جسديهما جراً في شبه غيبوبة حتى موقع بناء بمقربة حيث استدعى العمال الشرطة. واذ مرت ساعة ولم تظهر سيارة الاسعاف، اوقفت الشرطة سيارة خاصة حملتهما لاقرب عيادة. ومنها بعد ساعات نقلا لمستشفى اكبر ما لبث ان مات فيه «رودريغو» بعد اربعة ايام. مات «رودريغو».

طار اخصائي الحروق الكبرى بجامعة هارفرد بعد احتجاجات الجالية التشيلية في الولايات المتحدة وضغوطها الى العاصمة «سنتياغو»، وهناك نجح في ادخال كارمن مستشفى «التراباخادور». حين سمح لوالدتها برؤيتها بعد مرور سبعة ايام على حدوث الاعتداء، لم تر الام امامها منها معلقاً في الحمائل، غير وجه لمسخ على رأس منتفخ وجلد متفحم مهترىء. تمنت الام ان لو أراح الرب ابنتها من عذابها المتناهي فاخذها اليه. غير ان صوت ابنتها جاءها في وهن وخفوت: «قبليني يا اماه. سأعود للبيت سريعاً». قبلتها على قمة الرأس حيث الحروق أقل، تهمس لنفسها «يا الله! احببت ان تأخذها اليك فاذا هي راغبة في الحياة». احياناً حتى البقاء في الحياة بطولة بذاته.

عرض المئات التبرع بدمائهم وجلودهم «للفتاة التي أحرقت حية». الفتاة الفارعة الفاتنة ذات الشعر المتماوج الفاحم، التي ظلت منذ صباها الباكر تبدي اهتماماً فريداً بالفقراء والمساكين، بقلب يذوب رقة بالاطفال العراة الجياع. لهذا لم يكن بوسعها قط الاغضاء عنهم وهم يموتون جوعاً، او عن تكميم الأفواه، او عن حكم الاعدام الفوري على مئات المعارضين السياسيين لطغيان «بينوشيه»، قاتل ذلك الرجل الاشيب النبيل الذي قررت حكومته منذ يومها الاول توزيع الحليب على الاطفال دون مقابل. ولهذا حين نادى التحالف الوطني بالاضراب الذي شل العاصمة، اندفعت كارمن ورفقتها ملبين النداء. وكان ما كان من ارهاب وانتقام باللهب. «وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود».

تمكنت الجالية الشيلية بمونتريال من احضار كارمن للعلاج في كندا. وفي المطار وقف مئات المستقبلين لها ولعائلتها في صف شرف وانطلقت الحناجر بالنشيد الوطني الشيلي. ما أبعد الوطن وما أقربه!

يا الله! كم تحملت في صمت نبيل وصبر جميل وتجلد صامد، تغيير ضماداتها الكثر وجلساتها العلاجية المرهقة. وكم ناضلت يوماً بعد يوم لتتعلم كيف تقدر على الاكل وحدها، او السير لاول مرة حتى غرفة العلاج بالاشعة، فقد كانت ساقاها ضامرتين ضموراً مفزعاً. ثم كانت بازاء امتحان رهيب آخر، اذ كانت مشوهة تشويهاً فوق كل رجاء. لذا حين وقعت عيناها على بشاعتها في المرآة للمرة الاولى، انفجرت جاهشة بالبكاء. عاتبتها امها: «الا تذكرين يا كارمن قبل مغادرتك للمظاهرة قولك لي انك تقبلين الموت من اجل قضيتك؟» وبالرغم من تقاطر الدموع الحارة الحارقة هزت كارمن راسها بالايجاب. وفي اليوم التالي استعادت سكينتها تماماً.

التشويهات، والجلد المشدود شداً حتى ليكاد يتمزق، والأصبع المعوج، والذراع المشلولة والكتف المائل، وأوجاع أوجاع أوجاع بلا آخر، في كل مكان، في كل وقت، في اي وضع تتخذه. وحين غادرت المستشفى لشقة فيها عائلتها، ظلت ترتدي حلة مطاطية ذات ضغط عال، وترتدي في الليل على وجهها قناعاً واقياً.

بعد مدة عادت الى وطنها حين زاره «البابا». كانت تتلقى التهديد تلو التهديد من مجهولين بما اجبرها على تغيير محل اقامتها مراراً. ولكن اينما تعرف عليها مواطنوها كانوا يدسون في راحتها هدايا وقصاصات خربشوا عليها في عجل كلمات. وفي يوم الاحتفال بالبابا في الملعب الوطني، صفقت لها الألوف المحتشدة بحرارة، احاطها الحبر الاعظم بذراعيه وهي تقول له: «ابتي المقدس: احرقني الجنود». وهو يرد «اعرف يا بنيتي، لقد قاسيت كثيراً». شاهد العالم بأسره هذا المشهد المؤثر.

رغم الامعان في التخفي الذي حاوله في طابور الشخصية مشعل الحريق فيها، الملازم «فيرناندیز دیتوس»، تعرفت عليه لحظة عاودتها بجلاء تام فظاعة امتحانه الجهنمي لها، في ذلك الضحى الكابوس. ولكن عدالة المحكمة العسكرية (قل لي من اين يأتون بهؤلاء الناس؟) لم تر له جرماً اكثر من «عدم اسعاف شخص في حالة خطر»... وبس!... فقط لا غير!... هكذا!

ظلت ما بين عملية جراحية والاخرى، تعقد مؤتمرات في اوروبا وامیرکا الشمالية عما جرى لها ويجري في وطنها، بوعد العودة فور انتهاء مداواتها. اما في العاصمة الشيلية فقد لون الاهالي جدارية ضخمة في نفس المكان الذي احرق فيه «رودريغو» و«كارمن». كلما محاها الجنود بالطلاء الابيض اعاد الناس رسمها. ولدى الجدار توضع دائماً ازاهير وصلبان وقصائد، ذكرى لجميع الشهداء وتحية لشجاعة كارمن.

تقول كارمن: «انني مصممة على الاستمرار في كفاحي ضد الطغيان لكي يعرف أطفال غد ما معنى الحرية». وتعلق صحيفة «الصحافة» الكندية بمونتريال «ان كارمن في تحملها للحياة رغماً عما تقاسيه، وفي تبيانها للجرم الذي ارتكب فيها، ولما يكابده العديد من مواطنيها، لهي رمز نضال شعب في سبيل حريته».

عوض الحب واحلام النجاح الخاصة، وعوض التمتع بالصبا البهيج وهناءة جسد غض يتناضج في عنفوان، لم تدر كارمن راسها بعيداً عن شعبها المقموع، وعن اطفال وطنها العراة الجوعى، الذين من اجلهم فقدت جمالها الطبيعي فازدادت في نظرنا لأجل ذلك جمالاً. وستكون بلا شك أجمل بكثير في عيون اولئك الصغار حين يكبرون فيعرفون كم احبتهم بحق كارمن، حتى عانقت الموت تراقصه على وهج الحريق، حريق وقوده كيانها الصارخ بالألم المحض. وستبقى الندوب التي في بدنها وفي ذاكرتها شاهدة عليه ما بقيت كارمن ■

بعلم السودان لفقناه به ودفناه في مقابر المسلمين و...
على القبر شاهدة باللغة العربية. لم تدر كم كان احمد عظيما،، تجهش بالبكاء «كان احمد عظيماً بحق، وشريفا بحق، وكان حبه الاكبر للسودان. لا تدعوا شبيبة بلاده ينساه». اقول لها: هذا دين له علينا، لن نقصر في ادائه».

خطاب يصلني منه بعد فرقة أكثر من عشرين سنة يقول فيه: «قابلت زوجتي الحالية في بكين حيث كانت مبعوثة من حكومتها الاسترالية لتعليم الصينيين لغة الانكليز، وتزاوجنا هناك قبل ستة اعوام. وعند الفراق مع زملائنا الصينيين قبلناهم على الخدود متمنين لهم كل خير وعافية في مسيرتهم الجديدة نحو «البيت الابيض» و«تمثال الحرية»، ولم يكونوا راضين. وقد شد من ازرنا في اتخاذ هذا الموقف ما رضعناه من لبن صاف طاهر من ثدي روح التفكير المستقل، وكسب العيش ـ تحت أقصى الظروف ـ من عرق الجبين حتى بوجه مغريات لا حصر لها ولا عدّ. انتهى بي المطاف ـ حتى الآن ـ في استراليا بعد ان هجرت الصين في ١٩٨٣ بسبب غيرتي الشديدة على حركة التحرر الوطني». ويطلب مني ان ازكيه بحكم علاقتي الجيدة لليوم السابع.

ترك «احمد» وضعه المريح الرفيع في الصين ليلهث وراء خبزه اليومي في استراليا، التي فضيلتها في عينيه انها لا تضع على وجهها قناع الفضيلة الاشتراكية زوراً، بينما تسعى لنقيضها. ثم ها هو يطلب ان ازكيه لليوم السابع، هو الذي كان كاتباً رصيناً مرموقاً حين بدأت انا الكتابة، وكان فيمن لا أخجل ان أسميه استاذي.. هو.

صديقي الفنان الخطاط عثمان وقيع الله على الطرف الآخر من الخط بلندن، يصف لي لوحتين اعدهما لي كرماً منه ومحبة، واذا به يعرج الى ثالثة اعدها لصديقنا احمد محمد خير باستراليا، وعثمان يردد لي تشطيره للابيات المعروفة «ويلتا للغريب في البلد النازح ماذا بنفسه صنعا». يا لوفاء عثمان وشفافية نفسه. اخبرته بخطاب «احمد» وتقصيري في الرد. يسألني الا تعلم انه مصاب بمرض خبيث. ذعرت، فقد سمعت وحسبتها مجرد شائعة ممن يحاول حذف الحضور المعنوي لامرىء بمحاولة حذف وجوده الفعلي بفعل او افتراء، اما تشكّي المتنبي دفنه حياً من قبل؟

انكببت اعد خطاباً طويلاً لاحمد فوراً. اقول فيه شعبك لا يزال بحاجة اليك. يحتاج منك ان تسجل له ما عشته من تاريخه المجيد. ان تسجل له شهادتك عن تلك الحقبة. ان تلخص له تجربة جيلك وخبراتك كقائد مناضل. يحتاج لشعرك المتحدي، لنثرك البليغ، لصراحتك الشجاعة، لامانتك الشفافة، لمثالك الرفيع. وكان في ظني انني سأسعده وسأحفزه بتلك الكلمات الصادقة التي هي بعض ما يستحق من انصاف وتقدير تماماً كما إسعدت. بمثلها شاعر له في اعناقنا دين كبير هو محمد كمال عبد الحليم، امد الله في عمره واستزادنا من عطائه الرائع. صبيحة اليوم التالي ادرت القرص بالرقم الذي زودنيه اخي عثمان في المدينة الاسترالية التي بها احمد. فارق التوقيت عشر ساعات. هبني ايقظته من نومه عزيزة فسيفرح بصوتي لا اشك. صوت امراة لعلها زوجه التي عناها: «انا فلان. صديق لاحمد في باريس هل لي ان اكالمه من فضلك» هنيهة صمت، ثم كمن ينتزع سهماً من خاصرته قالت بمشقة «احمد مات ودفناه قبل خمسة ايام» تجهش طويلاً، وانا اضغط على نواجذي احاول التماسك وقد بهت البيان. تستعيد جأشها معتذرة، وبين الاجهاشة والاخرى توضح:

«اصدقاؤه في الكويت ارادوا بارسال بطاقة سفر للسودان ولكن احمد رفض العودة اليه او الدفن فيه، قال لا معنى لذلك». اشد قبضتي كليهما وفي حلقي غصة. اما كتب احمد في خطابه «عندما بلغتنا انباء «انتفاضة» الشارع التي اطاحت بالنميري، عدت كما تعود الطيور عادة لأوكارها.. حاولت اسداء النصح لركاب سفينة لم يكونوا ملاكها وان كانوا على ظهرها ويديرون «دفتها».. ولم يكن على شخصي غير البلاغ المبين. ثم رجعت الى الباسيفيك وظللت اطارد المحاولات، وظلال الامل بكل الوسائل. ثم عدت مع زوجتي مرة اخرى في نهاية سبتمبر من العام الماضي، اتحسس دربي في الظلام، بحثاً عن اي شيء استند اليه، وركن آوي اليه لاشعل حتى عود ثقاب واحد يضيء موقعاً لقدم».

تستأنف الاسترالية المخلصة «لا يمكنك ان تدرك مقدار حب احمد للسودان. احمد لم يكف لسانه عن ذكر السودان حتى توقف لسانه كلية عن القول. اصر احمد الا يدفن في السودان ولكنه اوصى ان يكفن بعلم السودان. لفقناه به ودفناه في مقابر المسلمين واقمنا على القبر شاهداً باللغة العربية. لا تدري كم كان احمد عظيماً. كان صديق لشخصيات كبرى، صديق شو آن لاي ونهرو و... و...، تعددهم. لا استغرب، فقدكان احمد من قادة حركة السلام العالمية ثم حركة التضامن بين شعوب العالم. تجهش. «كان احمد عظيماً بحق، وشريفاً بحق، وكان حبه الاكبر للسودان. لا تدعوا شبيبة بلاده تنساه» اقول لها هذا دين له علينا لن نقصر في ادائه.

كان احمد يكتب بتوقيع «صديق صريح» في جريدة «الصراحة» التي كانت مدرسة لوحدها في طريقة طرحها للقضايا الوطنية واستنهاضها الجريء للشعب للاطاحة بالحكم الاجنبي في السودان وكان احمد من «كتاب الصراحة» كما كانوا يسمون انفسهم «للتقية». كان معلماً سرعان ما تحول الى «محترف ثوري» في عطبرة ـ المدينة العمالية وقاعدة الحركة النقابية. كان مؤسساً لاتحاد الشباب وقائداً لليلة الصمود المسماة بستالينغراد في نادي الخريجين بام درمان في عام ١٩٤٨. وكان خطيب المنابر والحشود وضيف سجون الاستعمار. مؤلف ديوان «اغاني كفاح». احمد الاسود الفارع ذو الشعر الجثل والابتسامة الواثقة التي تكاد توحي بالصلف، والذي تراه دائماً يعتني بهندامه حتى لو لم يكن يملك سوى الذي على جسمه. احمد الذي يناقش بقوة عارضة ومتانة حجة وغزارة علم ونصاعة بيان. الذي لو شاء ان يكون في الوجاهة الاجتماعية لكان، حيث لم يعوزه الذكاء، ولا فاته التعليم، ثم امتاز بالموهبة والمزايا الشخصية، ولكنه اختار الطريق الوعر، طريق الحقيقة والتضحية وخدمة الوطن والمسحوقين، او رآه كذلك اخطأ ام اصاب.

نهاري كله وطرفاً من ليلي وما تذكرته حتى الآن وانا اجهش صائحاً فيمن منعو الدوح عن بلبله اين كنتم حين حمل احمد همّ السودان على كتفيه، وعفر قدميه وناصيته، وتصبب عرقاً وجاع وهو يتقبل التضحيات بابتسامة جواد كريم؟ وجدتموها باردة، ولكن احمد الذي حلاتموه عن نيل بلاده تقبل وقت الحارة حر رمضائها ولفح هجيرتها. رفض ان يدفن في ارض بلاده التي احبها بشغف لعلمه بانه لا يملك فيها شبراً واحداً، ولكنه اصر على ان يكفن بالعلم الذي يعلم علم اليقين انه يملك فيه شيئاً مما نسجه بيدية ونور عينيه لحمة او سداة. قال في مرارة: لا تدفنوني في ارض السودان، ولكن كفنوني بعلم السودان. هل تراه حمله معه من السودان، إشتراه ببقية ما ادخل معه من دريهمات، ام ترى ارتجلته له ارتجالاً زوجته الاسترالية، ولكنه علم السودان على اي حال.

ولن اكف عن البكاء حتى آخر يوم لي، كلما ذكرت احمد.

قالت زوجته الاسترالية: استودعني احمد اوراقه، سأحاول نشرها. وقال عثمان وقيع الله، «هناك مخطوطتان جاهزتان، الاولى عن مسيرة احمد النضالية «من النيل الخالد الى سور الصين العظيم» ان لم اخطىء ـ والآخر «مسلمو الصين، حاضرهم ومستقبلهم». ولعل من اوراقه الباقية مقالاته بتوقيع «صديق صريح»، واشعاره وربما ايضاً ترجماته ـ وقال احمد شوقي:

خرجوا، فما مدوا حناجرهم، ولا
منوا على اوطانهم مجهودا

خفي الاساس عن العيون تواضعاً
من بعد ما رفع البناء مشيدا

ما كان افطنهم لكل خديعة
ولكل شر بالبلاد اريدا

جادوا بايام الشباب واوشكوا
يتجاوزون الى الحياة الجودا

طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبة
لم يطلبوا اجر الجهاد زهيدا

يا شبيبة بلاده لا تنسوا احمد. لقد احبكم الصديق الصريح قبل ان تولدوا. احبكم واراد لكم وطناً حراً وحرياً، ثم ضرب المثل الاروع في شجاعة الرأي، وبراءة القصد، والدفاع الامين عما تراءى له انه الحق، وفي الايمان بالوطن وبالشعب. ويا قارئي العزيز كان صديقي وصديقك احمد محمد خير رجلاً جديراً بالمحبة جديراً بالاحترام■

«بلى... ذهب وفي يدي عهده دماء شهداء كلما تأودت اعطاف فرحة بشعبه ذكرهم وتغنى بهم. ولكن شفيع الرجل انه صدق عن ايمان ما توهم فانصاع للحق في استكانة للحق. السلطة - كما قيل - تفسد، والسلطة المطلقة تفسد افساداً مطلقاً، ولكنه لم يكن فاسداً...»

■ كان نظام الفريق ابراهيم عبود في السودان (١٩٥٨ - ١٩٦٤) «ديكتاتورية عسكرية» بالمعايير التي تضبط هذا المصطلح. بل كان واضع السابقة الانقلابية. رأى ان يسيّر بلاده بالاوامر كما يسيّر «النفر» في الجيش. واتخذ خلال ذلك قرارات بالحياة او الموت لمن حاول القيام بعين ما قام به قادة ذلك النظام، ولمن حاول مقاومته من المدنيين. مثلما تصرف دون الرجوع الى شعب بلاده بتراث اجيال لم تولد. وهكذا بين الدماء والماء سمح لنفسه بالاستهتار شأن اية ديكتاتورية ناهيك عن امور اخرى. ويل لشعب بلا ذاكرة. ويل لشعب بلا باصرة.

اما الرجل نفسه، فقد عرف عنه خلوه من شهوة الحكم التي تحفز الديكتاتور عادة. وربما كان هذا منطق المحادثة التي دارت بيني وبين شقيقي الاكبر الذي عمل مع النميري في فترته الاولى، ونحن نقارن بين الرجلين. فقد كان النميري على خلاف ذاك، شكس الاخلاق من غير وقار او توقير. لا يدفع به لبساطة او تبسيط الا الاحساس بزراية، ولا يحوشه عن بغي وغلواء الا جبن. حكى لي شقيقي هذه الحادثة عن «عبود»:

في الافتتاح الرسمي لاول محطة توليد كهرمائية اقيمت في السودان، تحتم ان اتولى شرح جوانبها الفنية حيث كنت المهندس المسؤول عن تشييدها. سرت اتوسط الفريق عبود وضيفه الامبراطور هيلاسلاسي اطوف بهما المحطة ومن خلفنا رجال الحكم من عسكريين ومدنيين بجانب المدعوين الكبار ورجال الاعلام والحاشية والحرس. تعثر الرئيس عبود فاسندته بيدي، فاذا هو يستوقفني من ساعدي ليسألني في تحسر ورثاء للنفس: «اتعرف يا ابني ما الذي يتعبني حقاً؟ اتعرف ماذا يتعبني حقاً؟» لم احر جواباً. فاذا به يلتفت الى وراء مشيراً بيده في تبرم وتألم حقيقي: «كل هؤلاء. كل هذه الزحمة والجلبة التي دون طائل».

اما عن عبود ونظامه فلم اقصر ان لم افرط. ومضى على الاطاحة بعبود سنوات. وذات يوم كنت اعود فيه رجلاً من سواكن، ومن مؤسسي نهضتها المسرحية في اواخر العشرينات هو المرحوم مختار البتانوني، اذا معه قريبه «ديكتاتورنا» السابق. لو كان بامكاني ان استدير قافلاً فعلت، ولكن كيف والرجلان الكبيران قد وثبا سلفاً يرحبان بي في بشاشة. لو وصل علم ما كتبت عنه الى الرجل الذي امامي، ولو كان يتذكر كل كلمة فيه، لم تكن تبدو على اساريره غير ابوة حانية وانشراحة مؤتلقة.

بعد المجاملات استأنف «عبود» سابق حديث قطعه مقدمي، ذكرياته في ليبيا ابان الحرب العالمية الثانية. كانت للكتائب السودانية امجادها في المرتفعات الحبشية مثلما في الصحراء الغربية. واعترافاً بدورها خصها الامبراطور وهو يدخل عاصمة بلاده المستردة حديثاً يحيط به رجال المقاومة الوطنية، بان تجيء تالية لموكبه الشخصي مباشرة. كما الف قائد الجبهة الانكليزي كتاباً بعنوان «السوداني المحارب». ولا يزال السودانيون حتى اليوم، يرددون اغاني تلك الحرب عن الذين (فتحوا «كرن» باينين - يا الله) وكيف ان («كفرة» نيرانها ذي جهنم) وما كانوا يعنون بالتمجيد والاعتزاز والذكرى، الا هذا الرجل القصير الجالس امامي وامثاله من ذلك الرعيل من الضباط الاوائل ومن كان معهم من جنود قاموا بالمتوقع وكانوا ند العشم فيهم.

«ليبيا» آنذاك دون نفط، فاذا اضفت الندرة والغلاء في الحرب، كانت بلاد شظف. ولما كانت لدى القوات السودانية ما يتوافر عادة للمقاتلين من مؤن ومواد غذائية عزيزة، فقد قام السودانيون المحاربون بما رأوه الواجب الطبيعي نحو ذويهم (وفي ديوان «اكواب بابل على السنة البلابل» للصاغ محمود ابو بكر الذي كان مع القوات السودانية التابعة للجيش الثامن في ليبيا ومالطة اشادة بالتوادد الذي ربط بينهم وبين كرام القوم آنذاك). حرص الفريق «عبود» على التأكيد على قيام السودانيين بحق المروءة حيال اهليهم هناك، تأكيد غبطة ورضا عن النفس حين يقي المرء نفسه من شحها.

ثم ذكر كيف لم يتورع المحاربون الآخرون (من هنود وجنود افريقيين ونيوزيلنديين وسواهم من ذلك الخليط الآتي من المستعمرات والكومونولث) من اظهار تلهفهم لدخول المدن الليبية الوشيكة السقوط، وقضاء «وقت بهيج» مما يمني غزاة فاتحون انفسهم به في مدينة مفتوحة ويكافؤهم بالاغضاء عما يرتكبون قادتهم ثمن الانتصار. قال «عبود»: «زادهم الحرمان الممض ومعاقرة الموت في صحراء قاحلة ليس فيها غير الالغام من تحت، والقنابل والراجمات من فوق، تلهفاً. على اننا - المقاتلين السودانيين - وقفنا لهم بمرأى وبنادقنا معبأة نعلنهم باعلى صوت - الحاضر يكلم الغائب - بأن من يمس بسوء مواطنة ليبية او مواطناً ليبياً حشوناه رصاصاً لا تهمنا العاقبة. بان لهم صدق عزيمتنا فردعوا انفسهم عن كثير. ما الفرق بين من في طبرق وبنغازي ومن في ام درمان؟» يسال وينظر اليك، فكان قلبه في عينيه.

يضيف: كان الانكليز للانصاف يضعون لنا اعتباراً خاصاً، لانضباط عسكريتنا ولبلائنا الحسن، ولما يعرفونه جيداً من خلائقنا. لا نفعل ما يغضب احداً، والويل لمن يفعل ما يغضبنا. لهذا اوكل لنا القائد كل ما يتعلق بالمواطنين الليبيين. ذات يوم كلفني بالتحقيق في جريمة ارتكبها عامل مخبز ليبي حمل مخدومه وقذف به في قلب الفرن المتاجج فما خرج منه. قال الجاني ان حبل احتماله انقطع حين سب له مخدومه الاجنبي دينه، فكل شيء الا هذا. شرحت دوافع الرجل واوصيت باعتبارها بشدة والرأفة به، رغم استبشاعي للجرم. سرني ان القائد عمل بما اوصيت به».

الفرح يعلو قسماته لتفريجه عن مؤمن كربة. يسرد ذكرياته في عفوية وبساطة جمة وانا اسائل نفسي: هذا الرجل الطيب القلب هو «ديكتاتورنا» السابق الذي كنت اصب عليه غضبي؟ قبل القى نظرة من الشرفة للجماهير التي يشرق بها حلق الشمس هاتفة «الى القصر حتى النصر». فاذا به يقول باندهاشته الدائمة «ما كنت احسبهم لا يريدونني لهذا الحد. لن ابقى بالقوة». وبدأ ترتيبات التسليم لم يكابر ولم يستكبر. لا، حين يقول الاستاذ الصمودي في «الحوادث» ٢٠ نوفمبر «فان جميع الانظمة العربية سقطت بانتفاضة عسكرية الا تونس ولبنان باعتبارهما نظامين «عصرانيين» والى حد ما «متشابهين»، فانه يستعرض بعض ما لا يليق بمن هو مثله، جهلاً او تجاهلاً.

لعلني قصصت ما سبق لزمرة من الاصدقاء، فاذا بواحد منهم يسألني: الم يصلك نبأ موقفه مع «جعفر كرار»؟ قلت: وما موقفه مع جعفر كرار؟ اخذ «عبد الواحد» يحكي:

تذكر حين امر وزير اسكان النميري بان يخلي كل من وقع عليه غضب سيده، المسكن الحكومي لاهل الرضا في ظرف اربعة وعشرين ساعة والا اخلاه عنوة. كان ممن سلط عليه الوزير «جعفر بخيت» سوط انتقامه الحاقد «جعفر كرار» وكيل وزارة الثروة الحيوانية، وهو المعروف بكفاءته واستقامته وسابقته الوطنية. فاذا به يجد نفسه بعد اربعة وعشرين ساعة بالضبط ومعه اثاث بيته تحت جدار بيته من الخارج.

تناقل المواطنون الخبر المذهل، وهرع كثيرون للرجل مواسين مناصرين ولكن دون الحل الذي يرضاه. وحين كان لا يزال بازاء اثاثه المكوم كما اتفق، لمح الرجل القصير الذي لا يخفى يدنو ويشد يده في حرارة ويقول له بجنانه الشهير: ساءني ما بلغني. وعلى اية حال ولدي في بعثة دراسية بالخارج لن يحتاج لمنزله الخالي قبل ستة اشهر. فعليك به الى حين انتهاء مدته».

انتفض جعفر يجيبه في عناء وكبرياء وهو يشكره بانه لا يحل بمسكن لا يدفع عنه مستحقه. عاجله الرجل الطيب: «ولكنني يا ابني لم اجيء باحثاً عن مستأجر له. ومع ذلك لن اجعل هذا السبب حائلاً بينك وبينه. ان لم يكن يريحك غير ان تستأجره فافعل، وادفع لي ما يرضى به ضميرك». وقد كان.

قبل انقضاء الاشهر الستة، كان طارق الباب «عبود» لا يكاد يمسك فرحته كعادته وهو يقول: «لا تنشغل بالبحث عن مكان آخر. جددت لابني بعثته لعامين. لن يحتاج للدار قبل ذلك. فابق مطمئناً». واضاف صديقي: تصور!

لم استغرب، وقبل ان اعقب عاجلني بسؤاله: هل لمحت المفارقة؟ وكانني ذلك اللماح. اجبته: اية مفارقة؟ كريم سعى يسعف عزيز قوم ارادوا اذلاله. اية مفارقة؟» نبهني:

الم يكن «جعفر كرار» رئيس «جبهة الهيئات» التي استنهضت الشعب لمقاومة الديكتاتورية العسكرية، ونظمت العصيان المدني الشامل، وحفزت المظاهرات العارمة يجود الشهداء بدمائهم حتى انتصرت وانزاح ذلك العهد؟ ثم الم يكن «ابراهيم عبود» هذا، هو نفسه رأس ذلك الحكم العسكري الذي ازاحته الانتفاضة وخلعت رئيسه؟ الواحد بازاء الآخر؟»

بلى، فطنت. الرجل وغريمه - لمن شاء ان يوجز مشهداً بحاله في رجلين فقط. وها هما في موقف آخر، حيث لا يقدم من كان خاسراً امام الآخر على ما اقدم عليه الا ان كان ضخماً بحق، تحسيبه وتضريبه - ان كان ثمة - بريئان تماماً عن صغار.

سمع الرجل بما حدث كغيره، على ان ما حدث له كان قاهره بالامس، قهراً يبقى معه حتى بعد موته يجلجل. لم يحمله هذا شخصياً جريرة صراع لا يدور بين اشخاص. ولم يكابر نفسه بان ما حدث لقاهره لا يعنيه من قريب او بعيد. ناهيك عن ابداء شماتة. ثم كان يكفيه تأسف لفظي او قلبي على افضل ما يسخو به انسان في مثل موقفه. لا، بل اغتلت الشهامة والهمة في جوانحه ملزماً نفسه بما لا يلزم. نافياً عن وجدانه الضغينة والموجدة. بريئاً من غرض مرصود وهو من عرفت عنه عفوية طفل لا يعرف النفاق والمكر. رأى عملاً ينافي طبائع قومه فاستهجنه وتصدى يصلح بما في وسعه من حسنى، مستغرباً من زمن صارت مفاخره الصغائر.

قلت لنفس: مثل رفيع، ودرس للجميع. محامد حمدها فيها، وما على منصف الا وصفها ولا حاجة لمزيد. فاعجب لرجل موضع ثناء من والاه ومن عاداه على السواء، بخاصة من عاداه. وذلك، حتى بعد زوال المظهر والسطوة والسلطان، بخاصة بعد زوالها. كان جم البساطة، جم التواضع، جم البشاشة، لا يستصغر صغيراً ولا يتجهم ولا يستعين تطبعاً ليس من طبعه.

بلى، ذهب وفي يدي عهده دماء وشهداء كلما تأودت اعطاف فرحة بشعبه ذكرهم وتغنى بهم، ولكن شفيع الرجل انه صدق عن ايمان ما توهم، وما توهمه انه كان يسعى بحق للاخذ بناصر وطنه حتى تبين له سوء ما توهم فانصاع للحق في استكانة للحق. السلطة كما قيل - تفسد، والسلطة المطلقة تفسد افساداً مطلقاً، ولكنه لم يكن فاسداً. ومع ذلك، فالله يحب مكارم الاخلاق. وكان له لاجل مكارم اخلاقه - وان لم يكن لتقحمه لعبة السياسة التي سيق اليها سوقاً تمنع عليه حتى لم يستطع - حق في محبتنا، وجدارة باحترامنا، غفر الله لنا اجمعين■

«... ورايت بإحدى الامسيات في الفندق الضخم حفل عرس كبير. ورايت نوعية المحتفلين من طبقة الموسرين المحظوظين وقيل لي ان أولئك ممن لهم جاه ومكانة في رحاب الثورة. تعجبت من هذه الاشتراكية التي تترك الشباب والأطفال دون مأوى ودون رزق، وتبيح الدعارة والهوى وتدخل الرعب في قلوب الناس البسطاء...».

لعلك تذكر شقيقي المهندس «مرتضى» الذي ورد اسمه في مقالتي عن العمال النمساويين الستة الذين أبدوا تعاوناً مفعماً بالشهامة لانجاز مشروع «السوكي» الزراعي. بعث لي بمقالة بعنوان «خواطر مغترب من أديس ابابا»، ولما كانت تتماشى وروح المقالات التي دابت على نشرها في هذه السلسلة، لم أر غضاضة في تقديمها لك. وأنا بدوري أشارك كاتبها احترامه لمن ذكر لثقتي بانه لا غرض له البتة في الثناء على من ذكر إلا اعطاء كل ذي حق حقه. كتبت المقالة في ١٥/١٠/١٩٨٨ في أديس ابابا. علقت لشقيقي هاتفياً «ولكنك لن تطأ اديس ابابا ثانية» اجاب «لا يهمني إن لم افعل»... وإليك خواطره يا قارئي الكريم:

كنت في أديس ابابا للاشتراك ببحث في ندوة تعالج مشاكل التنمية في أحواض الأنهار والبحيرات. وكانت زيارتي الأولى لها في عام ١٩٦٩ عندما كنت وزيراً للري. جئتها بصحبة الزميلين العزيزين «محمد عبدالله نور» وزير الزراعة والسيد «أبيل ألير» وزير الاشغال العامة بغرض تحسين العلاقات مع الجارة اثيوبيا. قابلنا الامبراطور في قصره وجلسنا معه ساعات في حديث شيق. وتغدينا على مائدته المتواضعة. وحدثته كثيراً عن ايامي في «مدني» وأنا طالب في الابتدائي. وحدثته عن النيل العظيم وحقنا في مياهه وكانت مقابلة ودية. قال لنا فيما قال «أنه واهم من يظن - ان كان في أديس أبابا او في الخرطوم - أن هناك من له القدرة والقوة على ان يفرق ما بين الشعبين التوامين». كان نظامه يحكم بالحق السماوي: عائلات من الارستقراطيين والاقطاع والاغنياء يتحكمون في الغالبية العظمى من الفلاحين الفقراء والكادحين.

عدت بعد عشرين عاماً لاديس ابابا التي يحكمها عسكريو اثيوبيا بإسم الاشتراكية المفترى عليها. وقرأت الشعارات الداعية لوحدة الطبقة العاملة وللحرية والديمقراطية وهي تملأ الشوارع والميادين. ورأيت تمثالاً ضخماً «للنين» أمام مبنى اللجنة الاقتصادية لافريقيا حيث عقدت الندوة. ورأيت كل يوم وكل ليلة مظاهر الحاجة والفقر والعوز. رأيت الأطفال والصبية والشباب وغيرهم يجوبون الشوارع والميادين ومداخل الفنادق بحثاً عما يسد لهم حاجة، يعرضون على الزائر الاستمتاع بساعات في مكان قريب حيث الدعارة والهوى. ورأيت في احدى الامسيات بفندق الهيلتون الفخم حفل عرس كبير. ورأيت نوعية المحتفلين من طبقات الموسرين المحظوظين وقيل لي أن اولئك ممن لهم جاه ومكانة في رحاب الثورة. تعجبت من هذه الاشتراكية التي تترك الشباب والأطفال دون مأوى ودون عمل ودون رزق، وتبيح الدعارة والهوى، وتدخل الخوف والرعب في قلوب الناس البسطاء. وقلت لنفسي وانا اتطلع إلى تمثال «لنين»: «والله لو جاء صاحب هذا التمثال ورأى ما رأيت لحطم تمثاله». تذكرت «نميري» واشتراكيته. وتذكرت المدعو ضياء الحق وغيرهما من الجنرالات الذين يحكمون الشعوب المغلوبة على أمرها.

كانت الندوة ملتقى حافلاً لعدد من المتخصصين في تنمية احواض الأنهار والبحيرات، والعارفين بمشاكلها وقصورها. ونوقش فيها الكثير من الافكار والمقترحات والتجارب من افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية. وصيغت في ختامها العديد من التوصيات البناءة والمفيدة لكل من يريد أن يتصدى للتنمية الريفية. تحدث فيها كبار المتخصصين والباحثين في هذا المجال وجوانبه العديدة. ولكن عبر ستة ايام بكاملها اعجبت واستمتعت بحديث واحد يجلس في مقعد السودان. شاب في عمر ابني «سامي». صال وجال في القاعة بصوت رصين فتحدث بعلم ومعرفة وأدب. تعرفت عليه لاعجابي به. وشعرت بالفخر والاعتزاز اذ علمت انه دبلوماسي سوداني يعمل في سفارة السودان باديس ابابا واسمه «نجيب الخير». والله يعلم. جال فكري في الماضي والحاضر والمستقبل للسودان المنكوب الذي انهكه الضياع. وقلت وانا اتقلب في سريري بغرفة الفندق في ساعات الصباح الأولى: ان مستقبل السودان في خير وأمان ان كان فيه من أمثال «نجيب الخير». وسيأخذ الله بيد السودان واهله الطيبين، وسيرون نهاية النفق المظلم عندما يأتي جيل «نجيب الخير» إلى مركز الصدارة. حفظك الله يا «نجيب الخير» وحفظ امثالك في كل مرفق من المرافق وفي كل موقع من المواقع. حماكم الله من حسد الحاسدين وعبث اللامسؤولين حتى يصل موكبكم الواعي الأمين ليفض جمع الحكام بالأرث، والمستوزرين الذين لم يعوا دروس الماضي ولم تفتح عيونهم وبصائرهم مشاكل الحاضر وظلوا في عبثهم يعمهون.

شارك في الندوة عدد من السودانيين. جاء المهندس «السر احمد محمد» وكيل وزارة الري ممثلاً للسودان وانتخب بالاجماع رئيساً لهذا التجمع الكبير. فأدار دفة المناقشات والمداولات في كفاءة واقتدار وثقة، ونال استحسان وشكر الجميع. وجاء المهندسان «بخيت مكي» و«عصام الدين مصطفى» يمثلان الجانب السوداني في هيئة مياه النيل وكم سعدت وشعرت بالراحة والفخر والاطمئنان عندما كنت استمع اليهما يتحدثان لهذا الجمع الكبير في فهم ومعرفة واتقان عن الجوانب الفنية والقانونية للتعامل بين الدول المطلة على أحواض الأنهار والبحيرات. وكان يجلس بجانبي الزميل والصديق المهندس «الريح عبدالسلام» ممثلاً للبنك الأسلامي. وكم صال وجال في القاعة الواسعة وكان عالماً ومعلماً في كل ما تحدث فيه. تذكرت اخوتي واحبائي وزملائي في وزارة الري من مات منهم الى رحمة ربه ومن ترك ومن لا زال باقياً فيها. عصبة من المهندسين والفنيين والعاملين المقتدرين. يد واحدة من الخفير إلى الوزير، يعملون ليلاً ونهاراً في تفاني واخلاص وكفاءة فائقة واقتدار. وكان النميري ومن وراءه من الجهلة والحاقدين يسمونهم «عصابة الري». نعم، فقد كانوا خطراً كبيراً يهدد الشركات الأجنبية واصحاب المصالح والمطامع ومن خلفهم دول استعمارية ومؤسساتها التجسسية. كلهم متربصاً بهم. وحدث ما حدث لايقاف تنفيذ مشروع الرهد السوداني بحجة انه مشروع غير مجدٍ وغير واقعي بعد ان فشلوا في ايقاف مشروع السوكي المشهور، وكان لهم ما ارادوا. وجاءت الطامة الكبرى وحدث ما حدث حيث ثار الشعب ثورته الجارفة عليهم.

تذكرت كل هذا وانا بعيد عما يجري في قاعة الاجتماع حتى صحوت من احلامي المحزنة بصوت الدكتور «حمد النيل» ممثل منظمة الصحة العالمية يدلي ببحثه في الندوة. وكان كاخوانه، مصدر فخر واعزاز لنا جميعاً. هكذا أصبح السودانيون مشتتين خارج وطنهم. كل ذلك بفضل الأنظمة الفاسدة والحكام الجهلة واصحاب المصالح وفاقدي الذمم. بئس الطالب والمطلوب ■

... ولئن لقيت من كثيرين بعض خذلان في حياتك، عزائي انني همست في اذنك باسم العرب (ولو من وراء ظهرهم، ولو دون تخويل منهم، ولو بما لا يكفي) ان شكراً على ما قدمت لهم علموا به ام لم يعلموا، حتى ولو لم يكونوا وحدهم المقصودين به».

كنت وقتذاك ممثلاً للسودان في الامم المتحدة بنيويورك، حين شدت انتباهي نشرته وفيها تعريف به: يهودي بولندي هاجر الى فلسطين عام ١٩٣٩، ليغادرها «فور قيام دولة اسرائيل بنت السفاح». اقال عنها «بنت السفاح» حقاً؟ بلى. وظل يصفها بذلك اينما ورد ذكرها، وذلك حين توقف العرب منذ زمن عن استخدام صفة «المزعومة» التي بدأوا بها، قنوطاً من قدرة «الكلمة» وحدها، وبحد ذاتها، على الغاء الواقع العنيد.

ولكن بقي له ابن فيها لا يود له القتل ضحية تناحر دموي بين عرب ويهود. فلا سبيل اذن من غير سلام ووئام بين المتناحرين.. لهذا، اسس «منظمة الاديان الثلاثة» التي يترأسها (ولا اعلم برديف له، فكأنما هي هو) غير فطن لكون النوايا الحميدة، والجهود الفردية المجيدة، لا تكفي لردم الاخدود، بل مثل تدخله ذاك، على ما فيه من اصالة وبسالة، لا بد ناظر اليه كلا الفريقين نظرة سوء، يحسبه كلاهما تشويشاً عليه وتعزيزاً للآخر.

على ان جدوى ذلك التدخل للحق العربي فوق الجحود. افلا يطعن وهو اليهودي - لامجرد «لا يهودي» آخر، قابل لدمغ فوري بمعاداة للسامية، او بتلبد احساس، على الاقل، حيال اليهود نتيجة جهل مشين على احسن الفروض بالتاريخ المأساوي للشعب المختار في زعمهم - طعناً لا مواراة فيه او مواربة، في مشروعية الكيان الصهيوني؟ جدواه من حيث نشوزه عن القطيع العنصري المتعصب، من حيث شهادته الاكثر اقناعاً بسبب يهوديتها، بغض النظر عن الدافع اليها او المقصود بها، او عن اتفاقنا او اختلافنا معه كثير او قليل. يكفي ان يردد هذا الصوت اليهودي الشجاع مقولة اليهودي الشجاع الآخر - الفرد ليليتثال - بأن: «علم اسرائيل ليس علمي» كي يصبح تلقائياً الحليف الموضوعي - ولو في الحدود الدنيا - للحق العربي.

بهذه الرؤية، حررت له رسالة تثني على جسارته وسمو مسعاه. فكان جزائي دعوة فورية لحفل تكريم بمناسبة زيارة الدكتور «اسحق اسرائيل شاهاك» لنيويورك: اخذتني الدعوة على غرة، وان لم اجهل فضل «شاهاك» المكافح من اجل هدف يعزز من كفاح الشعب الفلسطيني، لا سيما بتوثيق انتهاكات حقوق الانسان الفلسطيني في وطنه السليب. ولكن كيف لي، ممثل دولة عربية، بتخطي المحظور، فاذا اعترافي بفضل اسرائيلي نبيل واحد، يفسر (وما للغباوة من حدود) بأنه اعتراف باسرائيل ذاتها؟ ومتى ذلك؟ في اوائل السبعينات حين لا فارق في العين العربية الرائية، بين اسرائيلي واسرائيلي (لنقل بين فليسيا لانغر مثلاً وغولدا مائير) الا بمقدار ما بين عقرب وافعى. فلئن لبيت تلك الدعوة، صار ذلك في نظر الاشاوس حماة الذمار مهنيء ذواتهم، الخيانة بذاتها. لذا اتقيت بحكمة اخوتنا المصريين العتيقة: ابعد عن الشر وغن له. بعدت وغنيت بصوت رخيم.

كتبت لحبيب شرايبر معتذراً عن حضوري، ولكن بعثت له بنصيبي في تكريم رئيس لجنة حقوق الانسان في اسرائيل، الذي بفضل عناده ومجازفته ودأبه تكشفت للبشرية انتهاكات وجرائم كثر. ولا يجهر بالحق ضد قومه الا ذو خلق عظيم. ثم بقيت في نفسي حسرة ان فاتني شرف لقاء مكافح له علينا جميل، وكنت بذلك الخاسر لا هو.

لم يشطبني «شرايبر» من مفكرته. اوكل بي اخاً مصرياً اسمه «العقاد» ليبلغني بأنه طريح الفراش بوعكة. فكيف اتقاعس ان لم اكن عديم مروءة؟ حملت هديتي المتواضعة وقصدته. البويت (الاستوديو كما يسمونه) جد بسيط ومتواضع. على الجدار شعار «منظمة الاديان الثلاثة». هلال يحنو بذراعيه على الصليب ونجمة داوود. ها هنا اذن مقرها الرسمي: اكداس اضابير، واثاث عتيق مغبر، وعتمة موحشة، ويهودي وحيد يسعل.

ولكنه ايضاً مقر «الدولية المعادية للشيوعية» التي يترأسها كذلك، ولا اخالها اكثر من اسم وهمي، فيا لخيال «حبيب شرايبر» صاحب الرئاستين. ولكنني حتى لحظة دخول هذا «المقر» كنت احسب الرجل بسبب «دوليته» الوهمية هذه، صنيعة «السي. اي. اي» ومنها يتمول. فاذا به صادق حين عرفنا بانه «مجرد مقاول صغير» فلا تحسبني احد كبار رجالات الاعمال في وول ستريت». فان كان مقاولاً، فمقاولاته حكماً بتواضع سكناه هذه، من وزن الريشة، ان كان لها اصلاً وجود.

اما سبب معاداة «دوليته» هذه للشيوعية، فليقينه بأن الصهيونية ثمرة مؤامرة شيوعية. يقين صادر - لا محالة - من الطابع التعاوني الاشتراكي الذي هيمن على الحركة في البداية، بالرغم مما كان من اصطراع عنيد على ولاء الشغيلة اليهودية بين نزعة صهيونية تنادي «بالعودة» وحل المشكل اليهودي فلسطينياً، وبين تيار ماركسي ينادي «بالبقاء» والعمل من اجل حل اشتراكي يشمل شغيلة شرق اوروبا - يهودية وغير يهودية - على نحو ما بسطه لنا بخاصة المؤرخ اليهودي الاشتراكي «اسحاق دويتشر».

استقبلني مضيفي بجذل واضح، لا ادري هل لندرة عائديه، لم لتلهفه لوجوه من الفريق «الآخر» حوليه، بما يضفي على مسعاه مصداقية، وبخاصة ازاء شانئيه من غلاة الصهيونية المتعصبين.

يقابل جذله ذاك، احساسي بمقارنة المحظور سراً، بما لو اكتشفه حماة الذمار ممن اوصدوا البابهم، سلقوني بالسنتهم. هكذا ساورتني رغبة ملحة في مبارحة موطن الريبة ذاك في اول فرصة تسنح. ومضيفنا يعد لي وللاخ «العقاد» الشاي في بشاشة، وقد شم بزيارتنا له العافية، فظهر كأحدى شخصيات «اسحاق بابل»، او «فيليب روث» تتدرب لدور في خيال مؤلفها.

بانتقالي للجزائر نسيته، لكي افاجأ بعد عدة اشهر بخطاب يعلمني كيف توصل لعنواني بعد جهد. كيف عاودته العلة ولكنها لم تعق نشاطه. كيف افرحه انتصار العرب في حرب «يوم الغفران» حيث اكد صحة طروحاته بما جعل كبريات الصحف - كالبالتيمور صن وغيرها - تستكتبه. كيف تواطأ الصهاينة المتنفذون مع الـ «اف. بي. اي» فلفقوا له تهمة حبس بسببها وقتاً حتى تمكن من دحضها، بعد استهلاكها وقته وحيويته. ثم كيف لا يزال مثابراً برغم مكائدهم.

رددت مشيداً بصموده وصلادة عزيمته. شاكراً ان تذكرني. طلب مني بالبريد الآيب السماح له بنشرها. قلت يا لحسه الاعلامي اليقظ! طلبت منه الا يفعل فلا بد من استئذان حكومتي. ولكنه كان الحرص الذي اذل اعناق الرجال. خذلته في شيء جد يسير في الحقيقة.

لا، بل ونقمت عليه في دخيلتي حيث اراد ان يحيل خطاباً خالصاً الى خبطة اعلامية، والى تكأة لغرض - ان كان شريفاً ويخدم ايضاً غرضنا، فانه يستدرج الحماقة. لم استبعد احراجه لي بنشره رغم ذلك، ولكنه احترم رغبتي، ربما بنقمة مماثلة على ما قد رآه حذراً دون موجب، او حتى جبنا وخذلانا.

غادرت الجزائر، وفي غمار حربي الضروس مع النميري ونظامه كان آخر من يخطر لي «حبيب شرايبر» ومنظمة اديانه الثلاثة. الى ان فوجئت بنعيه في «الهيرالد تريبيون» وصحف عربية. فحزنت عليه بمقدار ذكرياتي معه. ومحاولته الباسلة صنع المستحيل. فقد كان شجاعاً بحق، وسط مهووسين لا يتورعون عن انتقام لئيم. مثابراً في عناد اصحاب الرسالات. مسخراً امكاناته المحدودة كلها في غرض لا يرجو لنفسه منه نائلاً. متفائلاً رغم كافة المحبطات والمؤسسات. دائباً في تأليف مودة بين العرب واليهود، فلا استجاب له عرب ولا اعترف به يهود، الى ان سقط القلم من اصابعه حين كف قلبه عن الخفقان. وحتى فكرة منظمة تقرب بالحسنى بين اتباع الديانات الثلاث - بزمن طويل قبل محاولة «جارودي» الابراهيمية - تدل بحد ذاتها على سماحة وجدان وسمو همة.

لئن كان ديدني: لا ينبغي الحكم على امريء بمقدار نجاحه او فشله في الحياة ولكن بمقدار رفعة غاياته. فلا عليك اذا يا «حبيب شرايبر» ان مت وحيداً، او مفتقراً، او محتقراً، او نهب التهديد والخطر والنبذ من بعض اهليك، فالعمل الشريف جزاؤه في شرف القصد منه.

ولئن لقيت من كثيرين بعض خذلان في حياتك، عزائي انني همست في اذنك باسم العرب (ولو من وراء ظهرهم، ولو دون تخويل منهم، ولو بما لا يكفي) ان: شكراً على ما قدمت لهم علموا به ام لم يعلموا. حتى ولو لم يكونوا وحدهم المقصودين به، او حتى المقصودين به. ولعل شفيعي لديك انني اجهر بشكرك علانية الآن ولو حين لا يجديك ذلك. فلئن لم تكن بذرتك من نوع يغل سنابل، اما كفاها فخاراً انها - في وقاحة الصلف العنصري وكلاحة العتو القاتل - اطلعت زهرة؟ وكنت بذلك جديراً باحترام. وفي جميع الحالات «لا تزر وازرة وزر اخرى» كما جاء في القرآن الكريم... فوداعاً ايها اليهودي الشجاع! ■

«... كشجاعة «اكرام». لم ار انا أيضاً. استمرت تنظر للموت بين عينيه الحمراوين على افضل تقاليد شعبنا العريقة، لا تطرق قط وهي سائرة اليه، بخطوات ثابتة، وهامة سامقة، وابتسامة واثقة، فما كان احراه بالاستيحاء».

في مسابقة لاستحلاب قطرة واحدة لا اكثر، من ليمونة اعتصرت تماماً من القشرة للقشرة، فشلت جميع محاولات ذوي العضلات المفتولة والبأس الشديد. حينئذ شق الصفوف رجل ناحل كشبح، اعمل بطريقة ما اصبعيه المعروقتين في القشرتين العنيدتين، فاذا هو يستخرج منهما لا قطرة واحدة وحسب كالمطلوب، بل قطرتين الواحدة فالاخرى. سئل باندهاش: «الك سحر، أم سر خفي؟ وفعل انس هذا ام جان ـ قل وعليك الامان!» همهم بواقعية: «لا هذا ولا ذاك، مجرد مفتش ضرائب يعرف شغله». اتذكر سؤال بيرم التونسي: «يا بائع الفجل بالمليم واحدة، كم للعيال وكم للمجلس البلدي؟».

كانت مصلحة الضرائب الى حين تركتها على الاقل، ادارة نموذجية بحق. يرجع الفضل في ذلك لمن وضعوا تقاليدها الرفيعة، ومن حافظوا بعدهم باخلاص وتبصرة على تلك التقاليد. تقاليد على راسها التعامل المهذب مع دافع الضريبة احتراماً وانصافاً، والتزام صارم بنظم ليس فيها ثغرة لفساد. يعين على ذلك انها حظيت بنفر جمع بين الكفاءة العالية والانضباط، وبين المسلك المشكور على الصعيدين الشخصي والمهني. وانني لأشعر بغبطة ان زاملتهم زمناً، وعرفت افضلهم عن كثب.

ومنهم صديقي «حسن». جاءنا فأتم الناقصة، واكتمل به عقد زمالة حفلت بالتعاون والود وضحكات بريئة كما في مستهل المقالة. ثم حملتني رياح في مهبها، دفعت بي في البداية خارج وزارة المالية، وفي النهاية خارج السودان نفسه. وخلال تطوافي في الآفاق سمعت انه تزوج. ممن؟ يجيبني محدثي: «من اكرام بنت مولانا الشيخ يوسف. تلك الفتاة المهذبة التي كانت تعمل بالمالية، لا بد انك تذكرها يا اخي وتذكر والدها من عهد دراستنا الوسطى في ام درمان». «طال بي الزمن، ان ذكرت اباها فلا أذكرها هي. ولكن أياً كانت، من تستطيع ان تدفع بصديقنا المراح الطلق كفراشة في روض الى اسرها الجميل، لا بد انها جمعت من الجاذبية، وقوة العزيمة، وسمو السجايا، ما لا سبيل الى التناول عنه، أو التحايل عليه». يعقب: «لكأنك وصفتها هي».

تعال يا زمن، ورح يا زمن، ثم التقينا من جديد في باريس هذه. واذا بذلك الزواج وقد أثمر ولداً في زهاء السابعة عليه مخايل النجابة والجراة، وطفلة تصغره بعامين، فطفل وليد. قدمني صديقي اليها فبادرني منها ادب واحتشام. لم يطل مكوثها معنا، فانسحبت لما هو احرى باهتمامها. وظل هذا دأبها كلما زرتهم، إلاّ ان تخلف زوجها لعذر طارىء وطلب مني انتظاره. عندئذ تستقبلني بحفاوتها الودود، وبعد حين تكلني لأطفالها الاذكياء نقضي وقتاً حافلاً حتى يصل ابوهم. والحق، لم أكن ازورهم إلاّ لماماً، فقد كنت اشن حرباً دون مواربة على طغيان النميري، لا يهون عليّ فيها تسبيب حرج لأحد، لا سيما لمن كان له وضع رسمي كصديقي.

سالتني سيدة سودانية في باريس تنبهني احياناً: «هل زرت اكرام في المستشفى؟» «لا، ماذا بها؟» خفضت صوتها وما بقربها اذن صاغية، كأنها تخشى ان يسمعها ما ستنطق به فتلفت بذاك اهتمامه اليها: «الم تسمع؟ الداء العضال». هكذا لا يسمونه باسمه. وأياً كان نعتهم له سواء كان «العضال»، او «الخطير»، أو «الخبيث»، او «القاتل»، او ببساطة «المرض ذاك» ـ وأياً كان تعقيبهم عند ذكره سواء كان «نعوذ بالله»، او نسأل الله السلامة»، او «سمعنا وسلمنا»، الى آخره، فالحقيقة هي ان كل ما يفضي بالمرء الى موت اكيد وجثيث ليس بأقل منه. فلماذا الهمس والوجل يا أختاه؟ ولا تدري نفس بأي ارض تموت، واينما تكونوا يدرككم الموت؟ فلماذا الهمس يا أختاه، نحن بنو الموتى مما بالنا نخاف ما لا بد من شربه؟

عدتها يومي ذاته، بعد ذلك قيل استجابت للشفاء وقيل انتكس بها الداء. ثم زرتهم. قادني صديقي الى غرفة مجاورة وعاد لضيف معه. هناك كانت اخته الكبرى التي استدعاها للملمة النازلة، وهي قوية الارادة، باهرة الحضور، لها أسهامها في الحركة النسوية وصديقة شقيقتي «فاطمة». اخذت تسمعني رثاءها للشريف الهندي. اما «اكرام» فكانت مستلقية بطوالها على سرير ـ تنازلها الاوحد للمرض ـ متدثرة بثوب جرته حتى حنكها. لا تظهر عليها آثار علة. سالتني بتلطف عن صحتي. اخذت اشكو عقابيل نزلة حادة، من طعنات صدرية تعززها أوجاع السكري المعتادة. لعلني بالغت في الوصف كعادتي ما بين جاد وهازل. ولكن لدهشتي وجدتها تهتف بان ما اصف قريب مما تحس به. بقيت مدة لا تقصر باستعجال ولا تطول لاثقال، ثم استأذنت لالتحق بصديقي الذي آثر انتظاري بعد انصراف ضيفه في حجرة الاستقبال.

وجدته في شبه عتمة وكانه عين تمثال الحيرة والوجوم، ينوء تحت وطأة المحنة وهي تستنزل عليه الهموم وان صبره لعجيب. قلت له «اخشى ان اكرام لا تعرف حقيقة ما بها، تحسبه مجرد نزلة حادة ازمنت». جفل وكأنه كان بانتظار فرصة ليفضي بسر هائل يتملكه ولقيها: «بل هي اشجع من رايت في حياتي. وتعرف تماماً ماذا بها. فقد اراها الطبيب صورة صدرها بالاشعة، فاذا بالداء استشرى كحريق تتعالى السنته ويتطاير شرره في كل اتجاه. أعدت وصيتها سلفاً، وبعثت بطفلها الاصغر مع شقيقتها التي في ليبيا حتى يعتاد. لا، مثل شجاعتها لم أر قط».

عجبت لها، تمنحني انطباع كونها لا تشكو من شيء كبير، وهي قد ودعت طفلها الاصغر الى الابد، لن تراه ولن يراها ثانية، فلكأنما اقتطعت بيدها فلذة من فؤادها وجادت بها. فمن اين لها اذن تلك الابتسامة الهادئة والسكينة؟ ولقد سافرت اختها بالفعل منذ وقت ليس بقصير، فلم تفضح عذاب امومتها ولو بنظرة ساهمة امام عائديها او بادرة وهن. يا للثبات، ويا للقوة، ويا للتحمل! أسأله «والآخران يا حسن؟» يخبرني «تهيئهما الآن، والصغيرة على اية حال طيرة لا تعي. افهمتهما لو كانا يفهمان ان مرضها لن يتركها معهما طويلاً. لا، مثل شجاعتها لم ار قط».

في آخر لقياي بها تلك، كان رونقها على حاله: وجه كأنه ببشاشة خفية يبوح، ومحيا صريح طاهر يثير في رائيه التجلة كأنه مصحف مفتوح. ومع ذلك كانت في اخريات مراحل مرضها، بل حياتها، سوى انها معنويات تزري بالجبل شموخاً ورسوخاً. لم يخطر ببالي وهي تبادر بسؤالي عن صحتي وتتبع وصفي باهتمام ان عين صحتها كانت في تلك اللحظة تتعرض للخطر الاكبر، وهي بذلك عليمة. وفي اليوم التالي، نقلت للمستشفى حيث عاجلتها المنية دون امهال طويل.

امسكت بيد صبيها البكر اقوده بعيداً عن الباكين. سألته هامساً «اتذكر سيرة نبينا الكريم التي حدثتني عنها من قبل؟» يرد متجهماً: «اذكر». «وهل تذكر انه ولد لم ير وجه امه قط؟» يمسح بظاهر كفه الاخرى دمعة جرت، ويغمغم: «اذكره». «وهل تعرف ان علينا ان نقبل ما اختاره الله لنا؟» يرد بعناد وقد انتزع كفه الصغيرة من كفي وتوقف عن السير «اعرف، ولكنني لا اقبل». كان بلا ريب يحس بأن غبناً فادحاً وقع عليه لا يمكن قبوله هكذا. لم يترك رده العفوي البريء لي سوى غصة في الحلق وغمامة في العين فأمسكت بكفه ثانية وعدت به من دون قول مزيد.

اصطحب صديقي جثمان تلك التي اختطفتها منه المنية في عنفوانها ليواريه ثرى السودان. ثم التقيت به بعد زمن. حدثني انه نفذ لها وصيتها كما احبت لها ان تنفذ. وباح لي بأنها صممت على الا تغادر الدنيا الا وقد ابرات ذمتها من كل كبيرة حسبتها كذلك او صغيرة، ورغم وطأة العلة لم تغفل عما راته حقاً عليها، تريد ان تخرج منها طاهرة تماماً بمثلما دخلتها به اول مرة.

وكشجاعة «اكرام» هذه لم ار انا ايضاً. استمرت تنظر للموت بين عينيه الحمراوين على افضل تقاليد شعبنا العريقة، لا تطرف قط وهي سائرة اليه بخطوات ثابتة، وهامة سامقة، وابتسامة واثقة فما كان احراه بالاستحياء. كانت تلك هي البطولة القصوى بعينها سوى انها اسمتها لنفسها «اليقين». وفي بسالة تامة اخذت تواري حكم اعدام صدر عليها بلا جريمة، كانت به عليمة، تتوقع نزول مقصلته على عنقها بين لحظة واخرى، لا يتفلت من بين اسنانها الضاغطة على الوجع الهائل غير تلك البسمة الصبور الجسور.

هكذا ضربت المثل الأعلى في التماسك الوقور امام المنية الكاسحة، لم تسمح لنفسها بأي تناقض ما بين ايمان ظلت متمسكة بأهدابه، وامتحان مزعزع تجتاز هول عذابه، دون تجزع، دون تمارض، دون ربكة، دون رثاء للنفس، دون سخط على الاقدار، دون وهن. وكالشمس التي حين تغمض عنها عينيك تظل تتراءى ما بين جفنيك، خلفت «اكرام» وراءها ذكرى شجاعة نادرة من الطراز الارفع الارفع، ما خطرت لذاكرها إلاّ احني الهامة تجلة واحتراماً ■

«... ثم استدارا منصرفين حيث اشتد التهطال وقد ابتعدت الحافلة تماماً، حتى اذا نات الديار تلفت القلب، اتمتم لنفسي: صدقت العرب، رب اخ لك لم تلده امك. لكانني والله في عين وطني بين هؤلاء لا فرق إلا في تفاصيل. ولقد وجدت في اولئك الاماجد الذين ابتسمت لي بهم اكادير ذات يوم، فضلاً جديداً سليل فضل تليد...».

خلال تناول كاتب كبير لبواكير التعليم النظامي في بلاده السعودية، وعقب تنويهه بسابقة المرحوم احمد الطيب المراكشي، اشاد بالدور الذي لعبه العلماء «الشلوح» في نشر العربية والاسلام. فسررت لارجاع فضل لذويه. ثم طفقت أتأمل العروبة، هذه الظئر (أي المرضعة) العجيبة، كيف اجلستنا جميعاً في حجرها الرؤوم، من الشارقة الى شنقيط، ومن أعالي النيل الى أعالي الفرات، بكل تنوعنا الفسيفسائي البهيج. ورايتها اليوم كالام الحقيقية في قصة عدالة سليمان الحكيم، تنازعها حق امومتها «فلانة» الرومية، التي لا يهمها ان يشق الرضيع شقين طالما كان لها باية حال نصيب.

فاذا البصر والبصيرة معاً في ذلك التعريف الرحب الخلاق: «ليست العربية لكم بأب ولا أم إنما هي اللسان، فمن تكلمها فهو عربي». حتى اذا نصح محمد القرشي اتباعه ومحبيه من أعاجم واعاريب بأن: «تعلموا العربية وعلموها» وجههم في عين الوقت ـ وهو المنتصف حتى من نفسه ـ الى امرين لا يقل مغزاهما جدارة لمراعاتهما حق الآخرين، وبالاحرى لمراعاتهما الآخرين. اولهما وجوب احترام المرء لسان قومه او كما قال. (وبكلمات أرسطو: احترام المرء للغة امه هو اساس الكرامة البشرية). وثانيهما: السعي لتعلم لسان قوم آخرين، حيث ـ بمفهوم إتقاني ـ «من تعلم لسان قوم أمن شرهم»، وبمفهوم ارتقائي: «لتعارفوا» ـ بكل ما تعنيه ـ ثم لا فضل لعربي على أعجمي.

فاذا بهذا الانفتاح الانساني، المتمثل في التعريف المحمدي لعروبتنا، يصير اساس هذه الأخوة التي استبدلت اخاء العرق والعصبية الجاهلي، باخاء الرضاع اللغوي الثقافي، واخاء التكون الوجداني المشترك (دون غمط للخصوصيات المنبثقة من التباين السلالي والجغرافي والتاريخي، بل وحتى اللساني ـ لم لا؟ وما الى ذلك مما هو وريث او مكتسب ولا ضير)، بما صار يبعث في اوصالنا رعشة حلم وحدوي جميل ان يكون حقاً، يكن اعذب المنى. تعريف لا يحوج عنترة جديداً ـ مثلاً ـ كي يقف موقف سلفه العظيم محامياً عن حقيقته بين حمقى قائلاً «وأنا امرؤ من خير عبس منصباً شطري، واحمي سائري بالمنصل». حتى ولو نال هذا العنترة الجديد كل عروبته بانتماء عصامي لاحق، كاستعراب عبد بني الحسحاس الذي كان ينطق الحاء هاء وهو من بعد من اشعر شعراء الفصحى، او استعراب ذلك المولى البربري (أو قل «الأمازيغي») الذي أحرق اسطوله عند بوابة «هرقل» مما جعل الارض الايبرية، تبدي بهرجها بالعربية، ولا غالب إلا الله. هذا ما اعنيه بالبصر والبصيرة في ذلك التعريف السمح، وانف الذي لا تزال فيه جاهلية راغم، كانف الشانيء الشعوبي، وقد تسخر منا الانساب المزعومة.

كنت اتلمظ هذه الافكار العشوائية بخاطري، اتامل حالي انا القادم من بلاد النوبة ـ رماة الحدق ـ الى ديار «الشلوح» الذين كان لعلمائهم بشهادة مؤرخ مشرقي منصف، فضل في نشر العروبة والاسلام وقد نهضت أمامي بقشابتها «اكادير» التي استقبلت بلادي نكبة زلزالها لا كمأساة أصابت أبعدين وان استحقت المؤاساة بل كماتم قومي. واستنطق الانفعال شاعراً سودانياً مُقلاً على جزالته هو مختار محمد مختار ففاز بالجائزة الاولى في مسابقة عربية موضوعها اكادير، فتمنيت ان لو كان هناك سجل بذلك.

فور وصولي الفندق كان بجانبي عبد الله المسعودي يؤاخذني وفي الدور سعة. ثم يقول لي: هيا لنتذوق ألذ ما تقدم مدينتنا من سمك. ومن عندئذ، وانا من وليمة لوليمة، لاكتشف بعد مغادرتي «اكادير» مدى مسؤولية عبد الله المسعودي وذلك النفر «الاكاديري» المضياف في الانبعاجات التي حلت بما كان من قبل جسماً ناحلاً لو توكأت عليه لانهدم.

يطوف بي عبد الله المسعودي خزانة الكتب التابعة لبلدية المدينة، فارى ثمرة جهده فيها حيث هو مديرها. قراء وقارئات مكبون على التحصيل لا يرفعون لتطفلنا اعينهم ولا حتى مخالسة. كل شيء منضد بنسق ومضبوط بنظام: الارفف، وبطاقات الاعارة، والمراجع، وقاعة القراءة، بل وحتى الصمت المهيب. اهمس لنفسي: مواطن صالح بحق، من اخلص لعلمه، فأجاده، فاعتز به. فاذا هو يحيل عمله الرسمي ـ بادمانه له وشغفه به ـ الى مثل الهواية الخاصة، بمثلما يحيل هوايته الخاصة ـ بأخذها بمنتهى الجد والانهماك والمثابرة ـ الى مثل العمل الرسمي. لذا حين اقتحمت علينا عشاءنا بمنزله نحلة ذات ارق، حوامة في قلق، زنانة في نزق، طمأنني مستعرضاً معرفة متعمقة بمملكة النحل نظاماً وسلوكاً، مشيراً بأن العسل الطازج الذي امامنا هو غلة منحلته البيتية. وهو ـ بالاضافة ـ صائد سمك له كوخ لهذا الغرض بجانب مغارة على الشاطيء دعاني لاقرض فيه الشعر ـ أو فيهما. وهكذا تكشفت لي في هذا «الاكاديري» الجيد، بهواياته المتعددة، روح خلاقة نشطة تجمع فيه ما بين الفنان والمنتج. فلا يبدد الوقت العزيز كعادة معظم العرب فيما لا يفيد.

كرم مغربي يتدفق سليقه، يستفز فيه الجود الموجود، ويسابق فيه سخاء الاعماق الاطباق. هكذا، دون سابق معرفة بي، ودون كبير احتمال في لقاء آخر إلا ان شاء الله، ودون ابتغاء شيء من وراء ذلك غير المودة في القربى، وغير أريج زهر لا يملك إلا ان يتأرج، تلقيت دعوة من الاستاذ «مهدي الدرقاوي» المحامي باكادير. وكان بعض اغداقه ثناءه على حجاج من بلدي تحاور معهم خلال حجته في أمور فقهية لا يخوض فيها إلا اهل الدراسة المتخصصة حتى لقد حسبهم كذلك، فاذا بهم مجرد تجار عاديين. سرني تقريظه لحب بني قومي للمعرفة، و مع ذلك لم يكمل الحاج الدرقاوي شهادته. فلو فعل ـ لولا تواضعه واستحياؤه ـ لشهد ايضاً بأنه واجد امثالهم من بني قومه من يبذ اولئك علماً وادباً وطيب معاشرة. ما ذكرت زيارتي تلك ـ قبل اكثر من ثلاث سنوات ـ لاكادير، إلا وذكرت هذا المثقف المهذب البشوش.

وكذلك الاخوين عبد المجيد وعبد الغني الكتاني المحاميين ايضاً، ولكأنما ابت «اكادير» إلا ان تريني كامل زينتها ـ من ذكرت ومن لم أذكر ـ وهل تزدان بقعة إلا بأهليها؟ اكرمني هذان بأهل ودهم واكرامهم بي، فطاب لنا الانس حول خوان حافل، فأغراني تلطفهم بالثرثرة. حين انصرفنا آخذني عبد الله المسعودي برفق: «اما جعلتها سميكة؟ كيف تشرح لهم «الثريا» وكأنهم لن يعرفوها بدونك. والله لولا احترامهم لك اسمعوك في التو والحين ما لا تحب». هكذا بصراحته اراني حالي جلياً في لقطة تخلو من الرشاقة واللباقة والذوق السليم. ماذا افعل غير ان انفجر ضاحكاً على غفلتي وعلى «سماكتها» واعديه معي بالضحك. ولكنني لم اشعر بمحبة له وقربى منه بأكثر مما شعرت به لحظتها وهو ينبهني الى تعاطي في غير علم على من هو أعلم وان تك زلة لسان من غير قصد، فلا يحبك مثل من يهدي لك عيبك. والحق، لقد اخذنا في سوداننا الشرقي كثير علم من المغاربة. وحتى في علم النجوم، اذكر اشارة شاعر بدوي سوداني الى «بنتيجة السوسي» ولئن قصر شارح الدراسات السودانية بجامعة الخرطوم ـ ولكل منا جهله الخاص ـ عن تفسير ذلك، ففضل «سوس» وعلمائها باق على كل حال.

اما احمد المسعودي، مدير مدرسة العرفان في «انزكان» فقد أراني من بشاشاته الواناً. وحين أهدى لي حلة مغربية صيفية ذات «قلمون» تليق بليالي الوصل في الاندلس، مارس حرفياً فحوى الجملة التراثية: «وخلع عليه خلعة سنية». تشعرك رصانته واطلاعه بالتربوي الجيد الذي في طياته. بطلب مني اخذني الى «ايفلالن» حيث قرأت الفاتحة على قبر الفقيه المرحوم الحاج مسعود الوفقاوي الذي تخرجت على يديه من مدرسة «سيدي يحيى» العتيقة، اجيال من حفظة القرآن ودارسي علوم العربية والدين، وكان واحداً من علماء «سوس» الذين اشاد بفضلهم ذلك المؤرخ المشرقي العارف المنصف.

انتقى لي احمد مكاني في الحافلة وجلب لي شطائر للطريق. بدأ رذاذ يقطر وهو واخوه عبد الله واقفان تحته يلوحان لي. ثم استدارا منصرفين حين اشتد التهطال وقد ابتعدت الحافلة تماماً، حتى اذا نات الديار تلفت القلب. اتمتم لنفسي: صدقت العرب، رب اخ لك لم تلده امك. لكانني والله في عين وطني بين هؤلاء لا فرق إلا في تفاصيل. ولقد وجدت في هذين الشقيقين واولئك الاماجد الذين ابتسمت لي بهم «اكادير» ذات يوم، فضلاً جديداً سليل فضل تليد، ووجدتهم اخوة جديرين بالمحبة جديرين بالاحترام ■

> .. هكذا، ودون ان انسى مآثرة إولئك المهندسين السودانيين، احني ايضا هامتي احتراماً لعمال نمساويين ستة، اتخذوا قراراً ما كان لهم من ورائه اي مكسب سوى امتنان يجيش به فؤاد تربة سودانية معطاء، على ضفة النيل الازرق..».

■ في ساحة «ستيفانبلاتس» في قلب «فيينا»، اومأ شقيقي الاكبر إلى مقهى تحمل واجهته الركنية اسم «عائدة» ـ كأوبرا «فيردي» ـ قائلاً: «هذا من أرقى مقاهي المدينة. دخلته من قبل بدعوة من ممثل شركة «آندريتس» النمساوية التي كانت لها آنذاك اعمال كبرى في السودان. كنت لا ازال وزيراً للري، اقضي عطلتي هنا استجم بعد انتهائنا من افتتاح مشروع السوكي الزراعي. عطلة انقطعت بالاحداث الدموية التي اعقبت فشل انقلاب هاشم العطا وانقطاع ما بيني وبين النميري للأبد».

«حين علمت شركة «آندريتس» بوجودي هنا، كلفت ممثلها بأن يحاول جهده تكريمي بإسمها. زارني لهذا الغرض، فاعتذرت عن كل ما اقترحه لتقيدي بنظام معيشي صارم يتطلبه مرضي بالسكري. ولكن بإزاء اصراره، توصلنا لأن نشرب فنجان قهوة معاً في مكان يختاره، فكان هذا المقهى. لسبب ما، تخلفت زوجتي عن المجيء معنا، وصحبني طفلي «حسن».

«فرغت من ارتشاف قهوتي، وعجز الطفل عن أكمال طبقه، بينما اخذ مضيفنا يلتهم قطعة حلواه. لاحظت انه يتفرسني من تارة لاخرى بنظرات غامضة فاستفسرته عنها، اجابني: معذرة، ولكني في حيرة منك رغم سماعي انك صعب. فمصالحنا معكم كبيرة، ومن واجبنا اكرامك بوصفك الوزير المعني، ومع ذلك ها انت تكتفي بفنجان قهوة لك وبطبق حلوى لولدك، على حين ما اكرمتموني به حين قصدتكم فاق هذا بكثير. لقد تعودنا ان يأتينا وزراء ومسؤولون كبار من بلاد شبيهة لبلادكم، فيطالبوننا بجعل معلوم، ويقدمون لنا طلبات في شراهة وعجرفة وكأنهم يصدرون اوامر لخدمهم. ونحن مع ذلك نسر بتلبيتها لما نستفيده منهم. ولكنك على غير ما هم عليه، وهذا مصدر حيرتي».

«وافقته على ان ما ذكره صار القاعدة. ولكن في حالتي، احس بأنني الذي عليه تكريمهم وليس العكس. ذلك لان شركتهم قدمت لبلادي ـ بل وحتى لي انا شخصياً ـ خدمات تستحق امتناننا. استوضحني فأوضحت:

«كنا في اوائل السبعينات تلك، ننفذ مشروع السوكي الزراعي وتبلغ مساحته تسعين الف فدان. كان اول مشروع بهذا الحجم يصممه وينفذه من الالف الى الياء، المهندسون السودانيون. واول مشروع بهذا الحجم ينفذ في مواعيده المقررة بجدول زمني حثيث مضغوط، بحساب مضبوط باليوم والساعة. وكان اول مشروع ينفذ بالكلفة التي قدرت له قبل البدء فيه، دون اقل تجاوزلها البتة عند الانتهاء منه. ثم لم تسرق منه ولو مليم واحدة».

«لقد صنع فيه المهندسون المسؤولون وعلى رأسهم زميلهم عبد الفتاح يوسف ـ المهندس المقيم ـ الاعاجيب حقاً: تصميماً، وتحسينات لاحقة، وتنفيذاً بما يعتبر مفخرة، حيث وضعوا فيه عقولهم وقلوبهم. ولهذا حورب المشروع من داخل السودان وخارجه. لعلك تذكر ما اثير من لغط مضلل، ماكر حول انهيار البيّارة، رغم انه حدث عابر لم يخرج من حساب الطوارىء المرصود، كانت له دواع قاهرة تقبلتها لجنة التحقيق الفنية التي شكلها النميري بعد مغادرتي الوزارة، فلم تجد لها ثغرة تنفذ منها للمؤاخذة».

بلى! اذكر كل ذلك. وكيف تصدى آنذاك بنفسه وكأنه اسد جريح هذا الذي بجانبي الآن، يفند الهجوم المجحف المرير، بمقالات ذات عنوان مثير هو: «لتنهار البيارة الاولى، والثانية، والثالثة ولتبقى الحقيقة للشعب». بلى اذكر بكل حسرة، فيالضياع يوسف الصديق بين اخوته، وضياع وطن على يد غبي جاهل، او عاجز متساهل، او اناني لا يحتشم ذمته جيبه الخاص.

«ولكن كانت ثمة مشكلة عويصة تعترض حسابات الجدول الزمني المكثف، اذا لم يوجد لها حل في الحال، احبطت الغاية المنشودة منه وهو اللحاق بموسم زراعة الفول لذلك العام (حيث زراعة القطن ستأتي في موعد لاحق). فاذا لم يهن علينا فقدان ذلك الموسم، لم يكن مناص من تركيب مضخات المياه (التوربينات) في نفس الوقت الذي يتم فيه تشطيب البناء الفوقي لمحطة الضخ (الذي نال بدوره نصيبه من التعديل الذكي ليلائم الخطة الزمنية المبرمجة باستسراع من جهة، والمعطيات المحلية من جهة اخرى). على ان العقد المبرم بيننا وبين الشركة النمساوية التي تجهزنا بالمضخات وتقوم بتركيبها، لم يكن يسمح للعملين المتكاملين بالتزامن معاً ولكن بالتعاقب كما هو منطقي. اي لا تركيب الا بعد التشطيب. اشكال لا بد من حله على الفور كيلا نفقد ذلك الموسم الزراعي الذي على وشك».

«لذا قصدت المسؤول النمساوي مباشرة. بسطت له جوانب من الحرب التي ظل يشنها علي شخصياً وكلاء الشركات الاجنبية الاخرى ـ اوروبية ويابانية ـ التي خسرت امام شركته المنافسة الحرة، فلم يبق لها غير الوسائل السرية. اخبرته عن اتهامهم لي بمحاباة الشركة النمساوية. بحجة أن زوجتي لها نفس الجنسية، تارةيهمسون بأنني ارتشيت، وتارة بأنها تتلقى مرتباً من بلادها من تلك الشركة لقاء الفوز بالعطاء. اخبرته بأنني لا اكترث لهذه الترهات ولكنني اطلب منه عدم خذلاني في الحرب التي اتعرض لها».

«سألني: وماذا اتوقع منه بالضبط. اجبت: موافقتكم على تركيب المضخات في نفس الوقت الذي تكمل فيه الانشاءات الفوقية، وليس بعد انهائها وتسليمها كما ينص الاتفاق. فبذلك فقط نتمكن من تنفيذ برنامجنا المكثف في موعده المحدد. رد بان طلبي مستحيل. فالقانون النمساوي يمنعه منعاً باتاً لما يتضمن من مخاطر على سلامة عمال التركيب في المستوى التحتي. ونقابتهم في تربص دائم لضمان تطبيقه حرفياً. فالامر يتوقف على اولئك العمال لا عليه. وهو لا يملك حتى حرية مفاتحتهم فيه ولو على المستوى الشخصي. على ان بامكاني اذا شئت مخاطبتهم بنفسي، فاذا قبلوا طواعية وعلى مسؤوليتهم الخاصة فلا اعتراض للشركة عليه عندئذ».

«نهضت منه قاصداً عماله. الساعة الثالثة تماماًوالظهيرة قائظة. وجدتهم ستة شبان في مستهل عشريناتهم. شبه عراة، بعضهم في اغفاءة القيلولة، وجميعهم جندلتهم وطأة حر خانق. رفعوا نظراتهم يرمقون تطفلي في لا مبالاة. جلست فوق خشبة وجدتها على الارض في وسط الغرفة ثم حييت بالالمانية اعرفهم بنفسي: انا فلان وزير الري. اعتدلوا في جلستهم يردون تحيتي بأدب وان ظلوا على ما كانوا عليه من سابق تعريتهم، وأنتظروا ما اريد منهم محتارين».

«اعدت عليهم ما سبق لي قوله لمديرهم عن الحرب التي اواجهها بسبب فوز شركتهم بالعطاء، وكيف اقحمت فيها دون مبرر لائق جنسية زوجتي التي كانت بمحض الصدفة مواطنة لهم. شرحت لهم المغزى الكبير الذي ننيطه بانجاز المشروع في موعده المحدد، لا سيما لحاقنا بالموسم الزراعي وما يعنيه ذلك لخزانة بلادنا الخاوية، ولمواطنين لنا ستتغير نوعية حياتهم كلية ان مكّناهم من الزراعة الحديثة لاول مرة لهم في نفس عامهم ذاك. صارحتهم: اذا قررتم رغم ما اوضحته لكم عدم البدء في التركيبات الا بعد الانتهاء تماماً من الاشغال الجارية فوقكم، فهذا حقكم القانوني دون منازع تمارسونه وانتم احرار ولا ملامة لاحد عليكم فيه. ولكنكم تقررونه وانتم على بصيرة تامة الآن، بعواقبه علينا. اطلعتهم بانه يتحتم علي لحاق اجتماع في مقر وزارتي في التاسعة من مساء نفس ذلك اليوم، ولكنني سأرجىء سفري انتظار قرارهم حتى السادسة مساء، وانني تاركهم للتشاور فيما بينهم اترقب قرارهم بالموافقة او اعتذارهم».

«في الاستراحة الحكومية بدأت مع مهندسي المشروع انتظارنا. انتظارنا في سباقنا الحثيث مع الزمن منوط تماماً بكلمة نعم او لا من اولئك الشبان النمساويين الستة عمال تركيب المضخات. انتصار اعددنا له بدقة فائقة، تند من حساب ذكي، وتخطيط مسؤول، وعزم قوي، والتزام صادق، فلا ينقصه غير انحياز اولئك الاجانب الستة اليه باختيارهم الحر. هكذا كان يتملكنا جميعاً قلق شديد وتلهف مديد ونحن في الانتظار. أنتظار في الواقع لم يطل مداه. بل ولا تزال قهوتنا امامنا لم نكمل احتساءها حين دخل علينا احد اولئك الستة وكان مندوبهم توجه لي بحديثه: السيد الوزير... انتهينا من اتخاذ قرارنا على ضوء ايضاحك. لك ان تعتمد علينا تماماً. اذ في عين اللحظة التي تحركت فيها قادماً اليك، تحرك زملائي نحو الموقع، ولعلهم قد بدأوا العمل سلفاً. ولك ان تتصور يا صلاح فرحتنا ولم تكن الساعة بالكاد الرابعة».

ويردف بأحدى استنتاجاته المشبوبة بايمانه العميق: «كما ترى، لقد ظل يقيني الدائم، انك اذا قلت للناس الحقيقة، كل الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة، اكتسبت حقاً ثقتهم ونصرتهم». مضيفاً: «لقد كنت حاضراً معنا حفل افتتاح السوكي. ولعلك تذكر اشادتي بفضل هؤلاء العمال النمساويين في خطبتي، وتكريمنا لهم بأوسمة، حيث كان لتعاونهم الفوري ذاك اثره الحاسم في انتصارنا في معركة تشغيل المشروع في وقته المناسب. لم يكن بمقدورنا للاسف منحهم مكافآت مالية، او كان هناك وقت لشراء هدايا لهم، فاكتفينا بجهد المقل وهو عرفاننا علانية بالجميل». ثم اضاف بلهجة امتزج فيها الاسى، بالرثاء، بل الاحتقار قائلاً «ومع ذلك... هل تعلم بأن النميري ظل يرفض المجيء لافتتاح المشروع حتى آخر لحظة منصاعاً لمن أوغر صدره على هذا الانجاز الكبير، لم يقبل الا بعد الحاح مني وترجي؟».

«لهذا قلت في هذا المقهى يومذاك لممثل شركة «آندريتس»: بل انا في الحقيقة ـ لا انتم ـ الذي عليه اكرام الثاني. فقد قدمتم لبلادي عملاً نظيفاً متقناً، بأقل ما يمكن من تكلفة، وباحترام تام للمواعيد المتفق عليها، بل وذهبتم بأبعد مما تعاقدنا عليه. وهذا كل ما كنت اطمع فيه بل واكثر».

هزني حديث شقيقي امام ذلك المقهى الراقي الذي اكرمته فيه شركة هندسية نمساوية بفنجان قهوة له وبقطعة حلوى لطفله «حسن»، فقلت: سأكتب كل هذا في «اليوم السابع»، وعليك تدبير ترجمة له للالمانية حتى ننشرها في صحيفة هنا تنويهاً بمأثرة اولئك العمال الستة. رد كمن نال منه الاجهاد: شركتهم على علم بذلك. قلت بعناد: انني منفذ ما انتويته على اية حال.

هكذا، ودون ان انسى مأثرة اولئك المهندسين السودانيين مخططي مشروع السوكي الزراعي ومنفذيه من الالف الى الياء، بما سيظل يقف اليوم وغداً شاهداً على علو همتهم الوطنية وشموخ قدرتهم الفنية، احني ايضا هامتي احتراماً احتراماً لعمال نمساويين ستة، اتخذوا قراراً ما كان لهم من ورائه اي مكسب سوى امتنان يجيش به فؤاد تربة سودانية معطاء على ضفة النيل الازرق، ما تمايست فيها قدود الزرع المزدهي بالينعة والنماء، وما دارت بالماء الدفوق مضخات مشروع السوكي التي تسابق اولئك الفتية الاجانب لتركيبها تحت وطأة حر سوداني رهيب، متنازلين عن حقهم القانوني دون عوض، معرضين سلامتهم الشخصية دون مقابل، لولا شهامة ليست بقاصرة على قوم دون آخرين ـ امتنان يجيش به فؤاد السودان الذي يعرف كيف يحفظ الجميل ■

اليوم السابع - ٦ حزيران ١٩٨٨

لقد ظللت اتابع ردود الحكومات على استفسارات منظمة العفو الدولية. وجدت الصادق يظهر صدقه من لهجته. والمراوغ تفضحه كل كلمة يواري بها سوآته ولقد وجدت الحاج عبدالرحمن سولي وزير العدل النيجيري. لأكثر من سبب. وبلا معرفة شخصية أو متعمقة به. جديرا بالمحبة. جديراً بالاحترام...

النور في قلبي وبين جوانحي، فعلام اخشى السير في الظلماء؟ يتساءل «الشابي». حقاً علام؟ حتى ولو كانت ظلماء مضاعفة كظلماء رهين المحبسين.

على أن التلف الذي يذهب بإحدى حواس الانسان الاساسية، ربما عوّض احياناً عند من أكرمهم الله به، ببعض تفوّق في جوانب اخرى على من سلم منه. وهو تفوق قد لا يكون بالضرورة مناقبياً يستوجب محبة او احتراماً. بل، وكم من وصف بأنه «معوّق» خشي الاسوياء منه سطوة بدن، أو سلاطة لسان، أو تسلط قاهر، أو سعي داهية ماكر. ولئن مثّلت لبعض هذا بشاعرنا «بشار»، فلعلني لم اتجنّ عليه كثيراً، وان لم يعوزني كبير اعجاب بجوانب اخرى من شخصيته كآدمي، وبملكته الفذة كشاعر. لهذا مخطىء تماماً من حسب الحرمان الناجم يبرر بذاته عطفاً أو شفقة او ميزاً يقدم او يؤخر بلا موجب رصين.

لا، بل هناك في كفة اخرى، من يدهشك بالشجاعة المتناهية والشموخ الباذخ مثل «عبدالله البردوني»، ذلك الذي ألفته سجون ائمة اليمن بكل بشاعتها وجلافتها البدائية وناكفه الموت فيها، فإذا به، المرة بعد المرة، يبدي من الثبات والاقدام والتحدي ما يغض الطرف بإزائه صناديد المبصرين. فمن كان في مثل صلادته، وتمرسه، وسعة ادراكه، ورحابة إنسانيته، صار الأحق بإبداء الشفقة والعطف والتشجيع لسواه. وفي يقيني انه فعل ويفعل.

لذا لم يكن دافعي للاشادة بالسيد «عبدالرحمن سولي» كونه كفيفاً بلغ منصباً رفيعاً، حيث هو ثاني اثنين في القارة الافريقية يصير وزيراً في حكومة بلده بعد طه حسين. وما بلغ هذا المبلغ إلا لمميزات حقيقية فيه اكتسحت امامها الحجج الواهية المجحفة التي تصدر عادة في مثل حالته. ولعل احداً لا يذكر او حتى يتذكر عنه كونه كفيفاً، إلا ليتوسل بذلك التنويه لمزيد من الثناء عليه. حيث توصل «عبدالرحمن سولي» إلى حلول ذكية وعملية للمشكلات الناجمة من فقدانه الابصار، بحيث لم يعد يشكل هذا الفقد عقبة تحول بينه وبين القرار السليم، والتدبير الحكيم، والقيادة الرشيدة، والرؤية البعيدة، بما فاق به اقراناً كانوا يتطلعون إلى عين المنصب الذي برهن على كونه الأجدر به دون جدال. فاذا بوجوده ضمن حكومة بلاده تشريف للحكومة التي ضمت مثله، بأكثر مما هو تشريف له. هذا برغم أن الرجل يعترف بواقعية تامة ودون مواربة بأن «هناك في الواقع حد موضوعي لقدرتي على الفعل، بحيث يلزمني شخص يعينني في معالجة الملفات. وهذا ما يقوم به معي مساعدي لاعوام عديدة». ولكن من منا الذي لا يحتاج في وقت ما، يطول او يقصر، لمن يعينه؟ على ان الذين ترنو ابصارهم إلى عون «عبدالرحمن سولي» يعون تماماً ان ليس لهم غيره بعد الله من معين. وهم كثيرون.

على أن ما جعلني اختاره للائحة الشرف اليوم، ان الرجل، في حسباني، صاحب فضيلة حقيقية. فضيلة منه وفيه. بوزارة أو بدونها وان ثمة نوراً ساطعاً جهيراً يغمر وجدانه ويدعو من يعرف الفضل وذويه للاعتراف. لا، لم اعرف الرجل معرفة حميمة فأشهد له عن يقين شهادة ولي حميم. ولكن بعض ذلك النور الذي أخاله فيه وصلني وأنا اقرأ كلمات الرجل وهي تفضي عن فكره ونواياه.

بلى، بإمكان الكلمات ان تكذب. بل وكثيراً ما تكذب. لا سيما حين يتوسل بها أهل السياسة والحيلة لغرض يستوجب الاستغفال. ولكن الذي بلاها في حالتي صدقها وكذبها بمقدوره أن يقول عنها كابن الخطاب «لست خباً والخب لا يخدعني». لذا فإن أول ما يحسه المجرب الخبير في كلمات «عبدالرحمن سولي» صدقها وبساطتها. فاذا هي إهاب أصلي لافكاره الحقيقية، لا مجرد طلاء لأحابيل تستوجب التمويه. فاذا صحّ ما حسبت، فالرجل إذن حري بالامانة التي تصدى لها. وأما اذا أطيح به غداً ضحية استمساكه بالمبدأ الفاضل في مصطرع حقيقته تحسب وتكبح ويفقد بذلك منصبه. فلا نقف سينتقد في جوهر عن تكليف بمهمة فعلية. وهموم تسعى الحسيب. وأرق الضمير المتيقظ. على حين ستفتقد العدالة فيه الحامي والسند. ثم لا يذهب العرف بين الله والناس.

فالرجل وزير العدل في بلاده النيجر.

ومع ذلك تحس بتواضعه المتقشف في كل كلمة ندّت منه. ولعل هذا بعض دواعي طمأنينة تغمر جوانحه وتفيض منها في البساطة التي يتحلى بها. ولكن ما التواضع ان ان لم يكن مجرد الاعتراف بان «حواء والده» كما يقول عامة السودانيين، مع إقرار بأن ليس من كبير الا الحق - وبالغاً ما بلغ امرؤ من رفعة ومنعة فعقباه التراب ولقاء الديّان الاكبر. وهذا ما يعيه «عبدالرحمن سولي» حق وعيه.

فالحاج «عبدالرحمن سولي» مسلم صادق في تدينه، والله اعلم. وفي حسباني ان المؤمن بإله حقاً - أياً كان الدين الذي هو عليه - يتجلى صدق ايمانه وتقواه، قبل كل شيء وفوق كل شيء، في موقفه من اخوته في الانسانية، بخاصة الأكثر فيهم حاجة إلى العون والمؤازرة، حيث الدين هو المعاملة - فلا غرو ان وجدته بجانب كونه المنافح عن الحقوق والحريات - بلقب رسمي أو بدونه - رئيس الاتحاد الوطني لمساعدة العميان.

بالاضافة، هو مؤلف كتب عديدة، وحائز لعدد من الجوائز الادبية. وكان آخر ما نشر له كتابه «الطريق الى الحج» يحكي فيه تجربته في اداء الفريضة. ومن تذكر الخالق مخلصاً لم يتناساه في المخلوق.

على ان الامانة التي تصدى لها، تتطلب في وقت واحد احساساً حميماً بالعدل، والتزاماً بالذود عن الحقوق مع قدرة على ذلك، ومواءمة بين الحزم والرحمة، وتسام عن الاعتداد بالاثم وعن شهوة الانتقام. ولعلني تلمست فيه اخلاصاً في القيام بالامانة التي حملها، وانا اقرأ كلماته:

«كل الفتيات والامهات اطلق سراحهن - كذلك سراح كافة المعتقلين اما بالعفو او بتخفيض العقوبة، ما عدا اولئك الذين لهم صلة بمحاولة الانقلاب عام ١٩٨٣. واما المحكوم عليهم بالاعدام عام ١٩٨٥، فقد خفضت عقوباتهم إلى السجن المؤبد. وفيما يخص حقوق الانسان فقد قدمت اقتراحاً لزميلي وزير الخارجية بتشكيل لجنة لحقوق الانسان هو الآن رهن الدراسة وان قبل مبدئياً. ستكون اللجنة برئاستي، على ان تضم ممثلين عن وزارتي الخارجية والداخلية، وعن القضاة والمحامين، وعن اتحاد النساء النيجيريات، وعن الرابطة الاسلامية، وعن نقابات العمال».

اترى يتركونه ينفذ مشروعه الطموح، فيصير المشروع وصاحبه قلادة في نحر ذلك البلد، أم سرعان ما يرون الزينة استنفدت غرضها وصارت بالأحرى عبئاً فيتخلصون منها؟ سنرى.

يسأله «فرانسيس كباتيندي» مندوب «جون افريك» في عددها بتاريخ ٢٠ ابريل (نيسان) عن الصمت المسدل سابقاً على انتهاكات حقوق الانسان. يجيبه الوزير بصراحة، ودون انكار، أو تبرير، أو امتهان للكلمات:

- لقد بدأت الصورة تتحسن من عامين، ولكن بغيتنا الا يظهر إسم بلادنا ثانية في القائمة السوداء لمنظمة العفو الدولية. نعم، لا يزال هناك سجناء سياسيون من الذين ضلعوا في انقلاب عام ١٩٨٣ ولكن صدر بيان رسمي بشأنهم وسيقدمون لمحاكمة تحسم أمرهم. ولقد اعيدت الاموال التي صودرت بغير وجه حق لاهليها حيث لا ينبغي لدولة ان تبني تصرفاتها على التخرصات.

ويستطرد وزير العدل «ان مكتب التنسيق والارتباط وهو الشرطة السياسية النيجيرية موجود دائماً. لقد كان المفترض فيه ان يشغل نفسه بأمن الدولة، ولكنه انحرف عن هذا الدور واخذ يصفي الحسابات الشخصية ويتعرض لحياة الأسر. هذا النوع من الخلط انتهى اليوم، وان كان امن الدولة بحاجة دائمة لمن يقوم عليه». هل علاقته جيدة مع وزارة الداخلية؟ يجيب:

- في كافة البلدان، للشرطة وسائلها الخاصة التي تستهتر احياناً بالعدالة. في وقت سبق، كانت هناك اعتقالات ادارية بدون حيثيات قضائية. اما الآن فالوضع اصبح اخف وطأة.

لقد ظللت اتتبع ردود حكومات شتى على استفسارات منظمة العفو الدولية. وجدت الصادق يظهر صدقه من لهجته. والمراوغ تفضحه كل كلمة يواري بها سوآته. ولقد وجدت «الحاج عبدالرحمن سولي» وزير العدل النيجيري، لاكثر من سبب، وبلا معرفة شخصية او متعمقة به، جديراً بالمحبة بالاحترام، غفرالله لي وله ■

اليوم السابع - ٢ أيار ١٩٨٨

«لقد كان اولى بمن يزعم انه يتكلم باسم مصر، او شعب مصر، او ثورة مصر، او ثقافة مصر باكثر مني ان يقول له عاليا: «كمال عبد الحليم.. شكرا يا ابن شعبك الوفي يا صيدحه الشجاع، يا صوته الصافي، يا معلم جيل جسارة، ونافخ لهب في شرايين شعب مستباح.. لم ننسك قط لأنك في وجداننا... كم نحبك وانت لا تدري!»

ما بين النيل الازرق ونهر الرهد تقع «حنتوب» الجميلة، الصرح التعليمي المؤسس في منتصف الاربعينات على تقاليد رصينة متفردة. تريك من العدوة الاخرى للنيل الازرق برجها الذي يعلوه الهدهد ـ رمزها الذي يبدو رأسه في الشارات البنفسجية اللماعة على صدور فتيانها، او ربما رايته حقيقة يتقافز بتاجه في ميادينها الخضر تقافز القردة في الغابة المتاخمة. هناك قضيت عام ١٩٤٩ سنتي الاولى والاخيرة، في مسكن طلابي كنت فخوراً بأنه يحمل اسم بطلنا القومي «نمر» ـ الذي أحرق إبن والي مصر ونصف جيشه الغازي رداً لاهانة. كنت وقتها فتى انطوائياً، حيياً غاية الحياء، يجتاحني جيشان هائل يهدر في اعماقي لا ادري له كنهاً، اتلفت في حيرة تلفت الحنفاء في الفترة.

عرفني الطالب «ع» بنفسه، قائلاً ان صديقنا المشترك «ن» زكاني بحسباني محباً للاطلاع جياشاً بالوطنية، فلماذا اذن لا نتلاقى ونتدارس فكراً جديداً؟ هكذا التقينا تحت شجيرة شحيحة الظل في الحزام المتنامي حول حرم «حنتوب» الرحب، استمع منه لتحليل حول «الصحافة الامبريالية»، أخذت تتراقص في اذني ـ انا الذي نادراً ما كنت امسك حتى بصحيفة محلية ـ اسماء عجيبة كالاسيوشييتدبرس واختها يونايتد، وكروييتر والتايمز وهكذا. ولا أسماء الجن والعفريت. ان قلت فهمت ما كنت استمع إليه، كذبت عليك ولكن ـ بيني وبينك ـ أعجبني الكلام. وكان بالامكان ان يكون آخر لقاء لي مع ذلك الفكر الجديد لو لم يدس «ع» في يدي كراسة خطية لدى انصرافنا وهو يقول: بما انك تحب الشعر وتنظمه اليك هذا الشعر. إنه «اصرار» ديوان الشاعر المصري الثائر كمال عبدالحليم.

في العاشرة تماماً مساء ذلك اليوم، اطفئت الانوار في مهاجع الطلاب وفق التقليد الصارم. على انني لم الق بالكراسة بل استعنت بالشعاع المتسلل عبر النافذة لاتابع قراءة ذلك الشعر المتأجج المتوهج واستعادتها مراراً حتى وقت متأخر او قل مبكر. كنت استمد معرفة ومتعة من التيجاني يوسف بشير ومن المهجريين ومن الشابي وناجي وسواهم، اما هذا فوجدته شيئاً مختلفاً تماماً. كأنه لا يكتب بقلم بل بخنجر. كأنه لا يغمس يراعه في مداد بل لهب. كلمات مشعة، متفجرة، مثيرة، مستفزة، محرشة، متحدية. «كلنا اصرار، حتى نبني لنا حياة نستحق ان نحياها». واذا بزلزال يرجني رجاً، ويقتلع روحي اقتلاعاً، وأنا لا اكف اردد الاعلان الذي لا تأتأة فيه او غموض، او مجاملة أو مواربة او غمغمة: «ليس جوع الجياع صوماً، ولكن كل من جاع مثل من باع عرضاً. يا رفاق الشقاء هل من مريد لنزوح إلى بلاد بعيدة؟ حيث تحت السماء قوت وستر وحياة يقال عنها سعيدة؟ بل تعالوا نحطم الصنم العاتي ونبني هنا الحياة الجديدة».

واذا في اهابي صبيحة اليوم التالي شخص آخر. ومن قمقم انطوائيتي ورومانسيتي يتصاعد مارد في اعصار جهنمي لا يحوشه حائش. واذا بالبصر حديد، والعزم مريد، واذا بالرؤى تتشكل في وجداني من جديد. وبمثلما جعل الله الارض مهاداً، والجبال اوتاداً، نهضت في مداركي حقائق جديدة اوطاداً، بما جلا باصرتي، وأرهف بصيرتي، وحدد غايتي ورسالتي ومسيرتي، ووضع على كتفي وجبيني خاتم البسالة والفداء والاقدام.

السودان عندئذ ـ اواخر الاربعينات واوائل الخمسينات ـ تحت النعال الاجنبية. السودان بركان كظيم يتململ. ما من سيل بشري عارم إلا ويهب غالباً فيه محرض بكلمات كمال الشهيرة «ايها الشعب تحرك، افلا تبصر قبرك». وما من رفقة كفاح إلا وانهوا سمرهم بنشيد كمال عبد الحليم لطالب الطب السوداني «صلاح بشري» الذي قضى عليه في سجون مصر زبانية صدقي باشا، يرددن في اللحن البطيء الحزين مع كمال: «بين صخر وحديد، واعاصير وسُل. وسدود وقيود، قتلوا منا بطل، حسبوه سيساوم، حينما يدنو المصير. وجدوا حراً يقاوم، وهو في النزع الاخير. فلتعش ذكرى صلاح».

وما عتمت ان تصرمت السنون وتشعبت المسالك، وتغيرت الهموم والهمم والمهام، وانطوى عهد وحل عهد، فاذا بالنصير الأمين عدو مبين، والرفيق مفارق وظللت رغم دوران دولابي اسأل عن كمال عبدالحليم سؤال التائه كما نقول. واذا ببعض رفاقه السابقين او من ينوب يجيبني انه مات، او انه صار مديراً لمصنع ثلج مؤمم، او انه نزيل مستشفى للأمراض العقلية. حتى فقدت الرجاء في اتصال له مغزاه. وفيما بعد سأقرأ هجوم مؤرخ يساري وأياً كان نصيب ذلك الهجوم من الحق او نقيضه فانه يخلو جلياً من الانصاف شيمة الاصطراع العقائدي العقيم في مصر، الذي أودى بذلك النفر مراراً منذ بواكيرهم.

قبل أعوام خمسة سألت زميلي محفوظ الانصاري عنه فاذا به يحيلني إلى الاستاذ جمال الغيطاني الذي كان منا بمقربة. اجابني الغيطاني «انه لا يزال كدأبه لا يفارق قط اصدقاءه عمال السكك الحديدية». سررت. فالشاعر إذن حيّ، وفي تمام مداركه، ولا يزال على سابق ولائه وما بدل تبديلاً.

ولما كان الغيطاني هابطاً مصر غداته، رجوته ان يوصل مني للشاعر بعض مال يعين الشاعر ان احتاج، مجرد تصرف أخوي لمن يحب جاء بعفوية. على ان الغيطاني انتفض هازاً رأسه في تصميم «مستحيل، فسيقذف به في وجهي إن فعلت». خاطبني محفوظ «جمال على حق.. لو شاء كمال ان يصير مليونيراً لصار. كان يدخل على عبدالناصر في أية لحظة شاء، ولم يكن عبدالناصر يرد له طلباً. على انه ظل يرفض كل عرض قدم له في كبرياء وعفاف». التفت للغيطاني اقول بثقة مفرطة «لو قلت له من سوداني لن يرفض». أصر جمال «ولو!» اخيراً قصرنا الأمر على هدية رجاني جمال بأن تكون على أخف ما يمكن.

هدية كادت تقتصر على خطابي الذي قلت فيه: «مؤامرة على اسمك، نفس المؤامرة على صوت الشعب الحقيقي. يتفادون اسمك كالبيت المسكون، لأنه شعر يضع كل انسان امام ضميره أمس واليوم وغداً». وما أسعدني حين وصلني رده، رفعني عالياً في نظري، وما فعلت غير ان سطرت رسالة لمن يستحق.

يسألني الاستاذ عبدالعظيم المغربي المحامي «صلاح، ماذا فعلت لكمال فقد هززته هزاً؟» قلت: لا اكثر من انني قلت له ما كان ينبغي ان يقال له منذ أمد طويل، ولكن ما اقسى الجحود وأمضّ الظلم. أعلينا ان ننتظر حتى يختفي من بين ظهرانينا كي نقول من ورائه ما ينبغي اسماعه له، وهو حي؟ لم افعل اكثر من الشيء المهذب البسيط الذي يقوم به منصف يحفظ الجميل. ولقد كان أولى بمن يزعم انه يتكلم باسم مصر، أو شعب مصر، أو ثورة مصر، او ثقافة مصر، أو قيم مصر، بأكثر مني ان يقول له عالياً: شكراً يا ابن شعبك الوفي، يا صيدحه الشجاع، يا صوته الصافي، يا معلم جيل جسارة، ونافخ لهب في شرايين شعب مستباح، ونافض شبابه كبرياء واصراراً. قلت له لم ننسك قط لانك في وجداننا، فيا من لحبك مصر علمتنا حب مصر، كم نحبك وانت لا تدري».

اتصلت به هاتفياً «كمال! لماذا لا تأتي وتبقى بضعة أيام في باريس ترتاح. سأرسل لك بطاقة السفر». جاءني صوته الحنون الدافىء، صوت مغن او عاشق حالم بأكثر مما هو صوت مناضل لم يرهبه القهر والاضطهاد «إعذرني. ليت على نفسي الا اغادر مصر ابداً حتى ولا لزيارة إبني في بلد اشتراكي». من الذي وصفه لي بأنه «قديس»، هذا العاشق لمصر؟

لئن لم يكرموه، فتمثاله في قلوب كل من اثر فيه كمال وشعر كمال، يزرى بالمرمر والرخام. ولا نزال بحاجة إليه والى امثولته الرائعة ـ عاشقاً «للأمل الحلو الحبيب المرعب»، عاشقاً لمصر، مصر «هذه أرضي انا، وابي مات هنا، وابي قال لنا: مزقوا اعداءنا». عاشقاً لشعب مصر الذي انجبه، شاعراً ومعلماً وإنساناً جسّد ارفع الفضائل الانسانية واشاعها، جديراً بالمحبة جديراً بالاحترام■

اليوم السابع - ٧ آذار ١٩٨٨

وما من احد عاشره الا وصادقه. وما احد من صادقه وانمحى من ذاكرته وبعض من استحسن فيهم بنزق خانوه ولكنه لا يتوب وما من صديق إلا وباب هنري مفتوح له في كل وقت. وسقف بيته متاح ولقمة خبزه محدودة انه فرنسي جيد. خفقة من قلب لفرنسا يجيش بالانسانية. وخلجة من ضمير لفرنسا يؤمن حقاً بمثلها الرفيعة.. صديقي الفرنسي الذي اعتز به....

■ إتصلت به هاتفياً في نيويورك مستأذناً: «اسمع! هل تسمح لي بكتابة مقال عنك؟» رد بجفاف «حان الاوان. ليكن من حلقتين». خشيت ان يأخذ عليه شيئاً فيما اكتب عنه، من يؤول الامور على غير وجهها الحسن، وهو من بعد موظف دولة. لذا اردفت مهوناً: «على كل حال، ماضيك كله في ملفك». علق متذمراً. «لي ماض يسبقني دائماً». اجبت «على انك تسبق مستقبلك دائماً».

ردّه على طرف لسانه لا يطيق له امساكاً، كانه جاهز سلفاً لسؤال يعلم مسبقاً انه سيلقى. هتف «هنري! يلزمني التقاط الدرر التي تخرج من فيك اولاً باول. دعني أدونها». اجاب «افعل. لكن لا ترهق نفسك. «السي آي ايه» تعني بذلك هذه اللحظة. لديهم النص الكامل». وفي إحدى نقلاته الفجائية تلك: سألني كمن يهنىء نفسه «أتعلم ان بي فصاماً (شيزوفرونيا)؟» قلت «ليس ما يدهش. بكل الفنانين فصام». رد «بكل الفنانين فصام، ولكن ليس كل من بهم فصام فنانين». لمته: «غلطتك! الى متى استحثك سدى لاستخدام مواهبك؟ انت طيار قرر الاستمرار في الجثوم ارضاً قبل الانطلاق». يتأفف: «مواهبك، مواهبك، اية مواهب تلك التي تزعم؟».

في اوائل الستينات، في غانا، قدمه لي «هودجكن»: «صلاح! اريدك ان تتعرف على شاب فرنسي جيد». ان كان الشاب جيداً، فانكليزيته لم تكن كذلك. يعاظلها بلكنة فرنسية أثقل من أصفاد الباستيل وحجارته. سرعان ما تخلص منها فاذا به يتكلم بأفضل مني. دقيق التقاطيع بشفة سفلى مكتنزة على خلاف الاوروبيين. اسرّ لي فيما بعد ان رفاق المدرسة كانوا يطلقون عليه «الزنجي» بسببها. قال لي «انا زنجي ابيض، زنجي من الداخل» - مفتخراً. ومع ذلك يحرص على ان يسمعني آخر النكات العنصرية، لا ادري اي معشر يخالط. اما الشابة التي على يمينه فبوجه ملائكي ولون نبيذي على جيد نفرتيتي. ابوها «ريتشارد رايت» الكاتب الزنجي المعروف الراحل، اول من قرأت له من الكتاب الزنوج وانا صبي «الطفل الاسود». قال لهما نكروما: «لا تدخلا عليّ ثانية تحت اسمين مختلفين» فتزوجا فوراً.

كان «هنري» يشرف على الطبعة الفرنسية من «الشرارة» جريدة نكروما، او كما تصف نفسها «لسان الثورة الافريقية». حين سأله «نكروما» عن الراتب الذي يطمح له، ردّ: ليس اكثر مما تعطي الغاني، فلم اقصدك لمال او امتياز. حين حدث الانقلاب على نكروما، وكان الرصاص لا يزال مستحراً، هرعت لاطمئن عليهم. وجدت زوجته تحمل طفلتهما واجمة. قالت: ذهب يشترك في تنظيم المقاومة. ولكن الذين ذهب باحثاً عنهم لذلك الغرض كانوا قد اختفوا. اختفى بدوره لم يمهد له الخروج الآمن غير تدخل عال. ولكنه في منتصف الطريق بين «اكرا» و«باريس» ودع اسرته ليلتحق بنكروما في منفاه بكوناكري. رأى ذلك واجبه، فما هو ممن يقبلون حين تقبل ويدبرون حين تدبر. على أن صغائر من كانوا حول الرجل الكبير واوقعوه فيما وقع فيه، اضطرته الا يبقى طويلاً.

اسرّ لي مؤخراً جداً وبعد تردد «ساقول لك ما لم أقله من قبل أو أبوح به لاحد - بكيت عليه حين مات كما لم ابك قط. كان بمثابة اب لي. حقاً كما قال اميلكار كابرال عنه: «لم يمت نكروما بسرطان هنا، او سرطان هناك كما يزعمون. مات بسرطان الخيانة». وهكذا أسمى هنري فيلمه عن نيكروما: «سرطان الخيانة». اما فيلمه الثاني فعن حرب انفصال «بيافرا». اسماه «نيجيريا، نيجريا... واحدة». لقد احب افريقيا بصدق، والآن هو في اميركا يحب التكنولوجيا. «هنري! متى ابتدأ حبك لافريقيا؟».

«منذ أيام الدراسة، أنحزت للثورة الجزائرية وقدمت ما بالوسع. وحين اراد ابي وهو ضابط كبير متقاعد سبقت له الحرب في الهند الصينية ان ينخرط ثانية في حرب الجزائر لمغرياتها المادية حذرته: «لن تصل الجزائر قط». سألني: «ومن سيمنعني عن ذلك؟» اجبته «انا، قبل الجزائريين». اخذ يضربني ضرباً مغيظاً بلا شفقة وانا اتلقى لكماته العنيفة حيثما اتفق لا ارد عليها ولا اقي نفسي منها حتى كلت يداه. على انه لم يذهب. لا، لم يكن ذاك عن ارتباط حزبي أو التزام عقائدي. مشاعري الخاصة وايماني الشخصي وحسب. لن انسى قط طيبة ذلك الجندي الجزائري الذي كان يخدم ابي، وكيف كان يعاملني بحب وانا طفل صغير».

حبه لافريقيا هو من حبه لفرنسا، اوضح لي ان الحسنى التي تبادر بها فرنسا اليوم افريقيا، ستجني ثمارها فرنسا الغد حين تقف مع سواها على قدم المساواة في منافسة مفتوحة على قلب افريقيا التي استردت قرارها المستقل. والبشرية من بعد اسرة واحدة الفرنسي كالافريقي، واكثرهما حرماناً اولى بالتقديم.

اقرب ما اعتنقه من معتقد افكار نكروما، على انها لا تشكل بحد ذاتها معتقداً اصيلاً متماسكاً متسقاً. فيما عداها، له مراحل فكرية كمراحل بيكاسو الفنية، لا يتحكم فيها غير آخر ما اثر عليه من فكر رصين، اجتذبه. صرعات يتمنى ان لو صرعتني ايضاً. كثير الاطلاع، سريع الاكتشاف، قليل المكوث. صبور على الكد، قوي الذاكرة.

عند اللقاء الاول قررت إلا اعود ثانية لمن افهم من كلامه النصف واخمن الباقي ولكن ذات ليلة وانا اتأهب للنوم في العاشرة إذا هو بباب سكني الجامعي يهيب «ارتد ملابسك وهيا معي. احضرت حماماً من كوماسي واحب ان تشاركنا التهامه». اعتذرت فتجهم وجهه: انت لا تريد صداقتي اذن. اريدها ولكن بدون حمامك هذا. قال: الصداقة اللحظة هذا الحمام. سألت نفسي افرنسي هذا ام عربي آخر؟ كاد يستدير بنفس التجهم لولا أن وقعت عينه على رقعة شطرنج. الشطرنج لا الحمام الآتي من بلاد الاشانتي هو الذي ساقنا للقاء جديد يظل يتجدد حتى بعد ان أعطى ظهره - كعادته - للشطرنج إلا الصداقة فانه لا يعطيها ظهره.

صداقة بعمر ابنته. قال: ليس لي اخ وانا اعتبرك اخي، قلت: وانا كذلك. ان اخترت فرنسا منفى اضطرارياً فليقيني ان لي فيها اخاً اجده عند الاضطرار. الذي ينهض بامر من يعرفه ومن لا يعرفه متى جاءه، يعتم به باكثر من صاحبه ويظل يهتم حتى بعد ان يكف صاحبه عن الاهتمام. هنيهة وتجده مع من لم يعرفه إلا قبل هنيهة وهما يتضاحكان من «الكليوشار» الى الشخصية المهمة. ينجذب للصغير والمستصغر ولا يعاملها إلّا كند وفي حنو انساني صادق.

كان يقوم بانجاز فيلم في الاستديو الذي اسسه - سمعنا جلبة وصياحاً فهرعنا الى مصدرها جميعاً، وكل اصحاب المتاجر - اصدقاءه - في نفس الشارع المزدحم. افريقي بائس سكران تحاول الشرطة كبح غلوائه وهو يزداد صراخاً. وقفنا نراقب. كان عليه ان يعود تواً لعمله. قال لابنته: لا تبرحي المكان وراقبي، اذا مسّوه بأذى اخبريني فوراً. سألته بتعجيز: وماذا بأمكانك عمله؟ انتهرها: «افعلي ما اقول وانا آعرف عند ذاك ما يجب عليّ عمله».

او تلك الصبية التعيسة الهاربة التي جاء بها من الطريق. اقول له قد تجر عليك مشكلة. يرد: اكثر من يحتاج الى عطفنا ونصرتنا لاحداث الذين في ورطة. لن اتركها هائمة تبيت ليلتها مهمومة مستباحة دون حل. التقط دليل الهاتف وامسك بالقرص يديره بانهماك.

قبض تعويضه المالي عن عقد اخلت به جهة وادخلته في اضرار فادحة، رمى في يدي بحزمة ضخمة لم يعدها. حين رآني استنكر قال: «ليس سداداً لدين لك، أو مكافاة لما بذلت، اسيء لصداقتنا ان فعلت. إنما يسرني ان تشاركني الفرجة به، اعتبر هذا لا شيء».

يقول معتزاً: «لعلي الاوروبي الوحيد الذي فتح له ليبيون ابوابهم دون كلفة وفي اي وقت. الذي دعي لعرس ليبي ووقف يدفن جنازة ليبية. اسأله: الم تضايقك ظروف ليبيا المعيشية؟ ابداً. انا احب الصحراء ومناخها ولي اصدقاء فيها فماذا يهم بعد ذلك؟ هنري، ماذا فعلت مع شهر رمضان؟ كما يفعل الليبيون، صمته، كله. احقاً صمته كله يا «مصيبة»؟ ولماذا لا، إذا كانوا يفعلون. عطش واختناق في الايام الاولى واعتدت. كانت تجربة جديدة ومفيدة، بل وقرات القرآن كما ترجمت معانيه بالفرنسية.

صوته ثانية عبر المحيط الاطلسي «انك لا تطلبني كعادتك، انا الذي يفعل دائماً ويدفع القيمة لانك تحب ان تحافظ على فلوسك» ولماذا لا، اذا كانت كل مكالمة بساعة، يقرأ لي صفحات عما قال نيتشة وما جاء في فلسفة «الزن» البوذية ويلقي بالسماعة ليفتح معجم «روبير». اتملص «انا انا في منتصف المقالة، لماذا لا تدعني اكملها» «حسبتك تمزح. أانت جاد؟ في هذه الحالة انت حقاً انسان موهوب. انني متأثر صدقني. تنازلت لك عن كافة حقوق سيرتي الذاتية. قلت لك لا مقالة واحدة بل سلسلة».

آخر ما وصلني منه كتيب صغير فيه الاسماء الحسنى بالعربية والانكليزية. مكالمة اخرى لنطقها العربي الصحيح. اقول «المهمين بالهاء لا المؤيمين» ولكن «ايمان» طفلة «محمد الكابلي» تصير «هيمان». والكتاب الآخر عن آخر «هايكو» عن الموت للرهبان البوذيين. يقول «سأسمعك آخر هايكو لي قبل موتي. اسمع» فيها خياله واقتداره على الانكليزية وانضباط مقاطعه وسخريته من الحياة. اضحك. ففي الكتاب الذي ادانيه ذكر لمحتالين يعدون «آخر» ما قالوه قبل موتهم مباشرة، بسنوات طويلة قبل ذلك. اعده بأن اهيء انا أيضاً «أخيرتي» لنتداولها السرمدية من بعدي ولا احد افضل من الآخر.

اقول لابنته «عرفتك منذ ولادتك». ترد متخابثة «بل قبل ولادتي، حين كنت مشروعاً». صداقتي لابيها بعمرها وبحلاوتها. حضرت عقد قرانها وسهرة عرسها قبيل اشهر في مدينة فرنسية صغيرة. قضينا - هي وانا ابيها الروحي - قبل ذلك وقتاً نتفاكر في اخف صيغة تفضي بها لخطيبها بان جدها كان زنجياً (ولو كان في ضخامة ريتشارد رايت). سألتها بعدئذ: ماذا كان وقع ذلك عليه؟ قالت هز كتفيه وقال لي وماذا يعنيني ان كان؟ اعرفه، طبيب فرنسي هو الآخر جيد لا اعرف ايهما الرابح فيهما. ولكنني كلما تذكرت مفاكرتنا تلك والقلق على نضارة قسماتها الحلوة اعتصر شيء ما قلبي اعتصاراً، فلا زالت في دنيانا هذه عقابيل تفاهة.

لاكثر من عشرين عاماً ما لمست منه غير المروءة والوفاء والاستعداد الدائم. يصافح بقلبه قبل يده. تقوده للناس لا فكرة ماذا سأجني من التعرف عليهم، ولكن لأن التعارف بحد ذاته يمنح غبطة. لا ينسى من منحه لحظة سعيدة وان مر زمن وتباينت الدروب. يظل يستفسر عن صديقنا بائع رافعات الاثراء المستضخمة في سوق الخرطوم، حتى بعد ان ترك بيعها، والذي دعاه لبيته الكالح من الخارج الانيق من الداخل يبرم لفافة «البنقو» السوداني وكأنها سيجار هافانا. ويذكر لي «بابا» النيجري الذي حدث له حادث حركة فاذا بداخله حرفياً خارجه وخارجه داخله، كيف عاش بالمقلوب فهذه معجزة. واصدقاءه احفاد الازتيك المكسيكيين الذين صور لهم رقصاتهم وكافأوه بتميمة. واصدقاءه الاشانتي الذين جعلوه اشانتي ووهبوه ذلك الحمام. ما من احد عاشره إلّا وصادقه، وما من احد صادقه وانمحى من ذاكرته، وبعض من استحسن فيهم بنزق خانوه ولكنه لا يتوب. وما من صديق إلا وباب «هنري» مفتوح له في كل وقت، وسقف بيته متاح، ولقمة خبزه ممدودة.

صدق الانكليزي الذي اثق في حكمه وحكمته عليه رحمة الله حين زكاه لي قائلاً انه فرنسي جيد. انه لكذلك. خفقة من قلب لفرنسا يجيش بالانسانية، وخلجة من ضمير لفرنسا يؤمن حقاً بمثلها الرفيعة صديقي الفرنسي الذي اعتز به، جديرا بالمحبة جديرا بالاحترام ■

اليوم السابع - ٧ كانون الأول ١٩٨٧

«كبر الآن ذلك الفتى الصغير. لقد كان والله حتى وهو في صغر سنه كبيراً ربما لا يزال الآن من ذلك الجرح القديم أثر. ربما اضاف - ان بقي - ذلك الاثر الى وسامة الفتى الذي كبر الآن، او ربما اخذ منها شيئاً. المهم حقاً، ان ذلك الجرح القديم سيظل وساماً لمسلك شامخ باذخ وكما قال الشاعر: وإذا رأيت من الهلال بداية، ايقنت ان سيكون بدراً كاملاً...»

لا يضير عائلة «الشيباني»، في مدينة «العين» بالامارات العربية المتحدة، الا يعرف عنها كثيراً جاهل مثلي، ان علم شيئاً فقد غابت عنه اشياء، اللهم الا ما اماطته لي عنها تلك الواقعة التي رواها لي شقيقي الاستاذ الرشيد احمد ابراهيم، والتي مر عليها عشر سنوات.

كان شقيقي وقتها معلماً بمدينة «العين». وكان من افضل تلامذته كما وصف لي - فتى على قدر عال من التهذيب وسماحة الخلقة والاخلاق، والجد والاجتهاد. كان دائماً - كما قال - في تمام الفطنة والتنبه، عيناه معلقتان، واذناه منوطتان، بكل كلمة تند من استاذه، يكاد يتشربها بهما تشرباً، افتتانا منه بالمعرفة والتحصيل. فالطالب النجيب يحب لا محالة استاذه المتفاني، مثلما يحب الاستاذ المتفاني تلميذه النجيب، فكلاهما يجد في الآخر افضل معين له. هذه المحبة الحقيقية هي التي جعلت كليهما يأسف من صميم احساسه لذلك الحادث الأليم. قال لي شقيقي سأحدثك عن تصرف ذلك الفتى وشقيقه حيالي إبان ذلك الحادث. الا فاسمع:

كان لذلك الفتى بكل صفاته الحميدة تلك زميل جار له في قاعة الدراسة. وكان نقيضه في كثير. كان فدماً، مستغلظاً، ساهياً، لاهياً، ولعل في ذلك كله الدور الاكبر فيما حدث. فذات يوم (الحديث لشقيقي) بينما كنت مستغرقاً في القاء درسي واقفاً على المنصة الامامية في الصدر، اذا بي الاحظ ذلك الجار يحاول الهاء زميله عن تتبع ما كنت بصدد شرحه. وقبل ان اتمكن من تحذيره، ركل قدم زميله ركلة اطارت من قدم هذا نعاله ليقع مباشرة امامي، بطريقة مجافية للذوق والادب. لم اشعر الا وانا في وطأة الغضب الذي اجتاحني، اركل النعال الذي كان امامي ركلة مضرية اطارت حذائي الصيفي هو الآخر نحوهما. كان حذاء بنعل قوي حاد، فإذا به لسوء الحظ يصادف الفتى المهذب الرقيق الجاد في خده، محدثاً فيه جرحاً بليغاً يجري منه الدم انهماراً. ترنخ الصبي وسقط على الارض.

سيق الفتى للعيادة المدرسية حيث اجريت له اسعافات عاجلة. ولكنهم قدروا بأن الاصابة اكبر من استعداداتهم المحدودة فبعث به للمستشفى. هناك رؤي الا مناص من اخطار الشرطة بمقتضى القانون وقد كان. على ان الفتى المصاب اصر في اقواله انه وقع على الارض اثناء لهوه مع لدّاته، وحدث ما حدث دون مسؤولية لاحد فيه. ومن ثم رفعت الشرطة يدها.

قال شقيقي:

انهيت ما كان امامي من عمل بأسرع ما استطيع، ثم اصطحبت معي ابنائي زملاء الفتى وذهبنا حيث كان للاطمئنان عليه وابداء مشاعر المواساة وتمنياتنا بالشفاء. وما بين المستشفى وداره لم اتمكن من رؤيته وانصرفت مباشرة لاخبر شريكة حياتي بان تكون على اهبة لمغادرة البلد في اقرب فرصة، فقد كنت على يقين بان ذلك اقل ما سيتوجب علينا. ففي سابقة حدثت قبيل اشهر، اتخذت اجراءات اصرم من ذلك لمعلم لم يحدث ما احدثت من أذى. فما بالك والفتى الذي اصيب بهذه الصورة، كان ينتمي الى عائلة متميزة ذات نفوذ مرموق في مدينة «العين» هي عائلة «الشيباني».

استلزم علاج الفتى من الحادث عدة غرزات على الخد المجروح، وطلب منه الجراح البقاء في الراحة اسبوعاً باكمله حتى يلتئم الجرح.

في اليوم التالي استدعاني مدير المدرسة الى مكتبه. قصدته وفي مخيلتي اسوا الاحتمالات. قلت انه لم يكن من بد فليكن ما يكون. وجدت في مكتب المدير الفتى وشقيقه الاكبر بانتظاري. خد الصبي متورم بشكل ملحوظ وعليه ضمادات مضاعفة. نهض ثلاثتهم رداً على تحيتي ثم طلب مني المدير التفضل بالجلوس. جلست، واخذ الشقيق الاكبر يوجه لي الحديث. ولكي تاخذ فكرة عنه، كان في ذلك الحين مديراً لمكتب الشيخ طحنون، ممثل رئيس الدولة بمنطقة العين وحاكمها. ماذا كنت اتوقع اذن من شخص كانت هذه مكانته الرسمية ومكانة عائلته؟

بادرني قائلاً:

قبل ان تفوه بكلمة، دعني اوضح لك ما داعي مجيئنا ورغبتنا في لقائك، لقد اصر شقيقي على الحضور بالرغم من تنبيه الطبيب بخلوده للراحة سبعة ايام، لكي يقدم لك دون ابطاء اعتذاره عما سبب لك من كدر بالخطأ الذي ارتكبه. في الواقع، ظل طيلة الامس، بل وحتى قبل ان يفيق تماماً من المخدر، يلح علي بالمجيء اليك لاطمئنك عليه ولاعتذر لك بنفسي عما حدث. وها قد جئنا لهذا السبب.

قال لي شقيقي:

نهض الولد السمح المهذب يعتذر لي بمقدار ما اتاح له ذلك الهه البليغ. ثم استأنف شقيقه القول:

لقد عرفناك جيداً من خلال اطرائه الدائم عليك. فهو ما فتىء يتحدث عنك في كل آونة بتبجيل واعجاب شديدين، وتأثير كهذا لا يأتي الا من مستحق. لهذا فاننا نثق تماماً بأنك لا تكن لابنائنا غير المحبة، وانك تتفانى حقاً في سبيل منفعتهم. لهذا، فما حدث في نظرنا امر طارىء وقدر مكتوب. ولكنني اقول لك صادقاً، اعتبر شقيقي هذا ابنك، وتصرف نحوه كما ترى لائقاً اياً كان، يقيناً مني بانه لا يصدر من مثلك نحوه مهما حدث الا الخير. وارجو الا يبقى في نفسك من هذا الحادث شيء، تماماً مثلما لم يبق في نفوسنا - نحن اهليه - شيء منه قط.

بهذه الكلمات - وبعد شكري المستحق له وامتناني - انصرف كلاهما. استأذنت اخي «الرشيد» في تسجيل هذه الواقعة كما جاءت على لسانه، وانا في حيرة عن ايهما اكتب. اعن الفتى الذي لم يغفل حتى في لحظة معاناته الهائلة عن دره مساءلة سلطات القانون ونقمة الاقربين المفهومة من استاذه، ام عن الشقيق الذي لم تسلب منه محبته وشفقته نحو اخيه الاصغر او النفوذ الذي لديه من الحكمة والحكم السليم ومن الادب الجم والتوقير ازاء معلم غريب لا حيلة له او حامي غير شهادة تلميذه عنه، حتى وان كان قد الحق بتلميذه دون قصد أذى.

كبر الآن ذلك الفتى الصغير. لقد كان والله حتى وهو في صغر سنه كبيراً. ربما لا يزال الآن من ذلك الجرح القديم اثر. ربما اضاف - ان بقي - ذلك الاثر الى وسامة الفتى الذي كبر الآن، او ربما اخذ منها شيئاً. لا اهمية البتة لذلك. المهم حقاً، أن ذلك الجرح القديم - تبقى منه اثر او لم يتبق - سيظل وساماً لمسلك شامخ باذخ. وكما قال الشاعر. واذا رأيت من الهلال بداية، ايقنت ان سيكون بدراً كاملاً.

اعن ذلك الفتى بمسلكه الشامخ الباذخ اكتب اذن، ام عن شقيقه الاكبر الذي بما ابدى من تواضع وتحلم وحميد اعتذار برهن على اكبر مما كان عليه من منصب رفيع ونفوذ منيع. فما يفتقده الوجدان هيهات ان يعوضه السلطان. ام اكتب عن عائلة «الشيباني» التي الى دوحتها انتمى الفتى والشقيق، حيث لا تنتج نبتة طيبة الا في مكان طيب. فلقد وجدتهم - الصغير والكبير، الفتى والشقيق، واستطراداً عائلة استمدوا منها هذا الخلق - وجدتهم بما علمت من هذه الواقعة الجديرة بالتأمل في زماننا هذا الكظ الفظ، جديرين بالاحترام

«... قال انني المسؤول عن تنفيذ القانون وليس رئيس الوزراء الموقر. وانني ما دمت كذلك ارى من واجبي ان اطمئنكم بان السيد رئيس الوزراء وخصمه السياسي عبد الخالق محجوب سيان في نظر القانون، لا ميزة لاحدهما على الآخر...»

■ اسرّ لي صديقي «سيف الدين» وانا اودعه بمطار باريس يهمس بأسى حقيقي: «هناك نبأ بأن الأمير «نقد الله» نقل الى لندن في حالة شبه ميؤوس منها». هكذا سافر مخلفاً بي شعوراً مقيتاً بالفاجعة الوشيكة والفقد الشخصي. طفقت اسأل الله اللطف وانا اتساءل في اعماقي ماذا يعني الرجل لسيف الدين ولي حتى ينزل خبر مثل هذا عنه، كسيف بتّار معلق فوق رؤوسنا. وتراءت لي الاجابة جلية، جد جلية.

ولكن قبل ذلك، لك الحق ان تسأل يا قارئي عمن يكون «الامير نقدالله» هذا.

«اميره ـ يا رعاك الله ـ لان والده كان من «امراء» الثورة المهدية، اي قادتها المقاتلين. بل ان اباه هذا ان جهلت عنه كل شيء آخر، كان في الواقع، الذي استنقذ عبدالرحمن (اصغر انجال امامنا المهدي) من القتل والمتربة حين انهال الجيش الانكليزي المصري الفاتح تذبيحاً في آل المهدي وغلاة انصاره (لا سيما بعد مذبحة الشكّابة) كي لا يستمروا بؤرة للمقاومة. ولكن، لئن كان الأب اميراً مقاتلاً، فقد كان ابنه اميراً بالشمائل، فلا تسأل عمن يكون الانسان بل اسأل عما يفعل. اما كلمة «نقد» ـ بضم النون وتسكين القاف أو ضمها إذا لم تقترن باسم الجلالة ـ فهي في اللغة النوبية رديف كلمة «عبد» في اللغة العربية. «نقد الله» اذا هو عبد الله، واسم الرجل بالكامل «عبدالله عبدالرحمن نقدالله». وخير الاسماء عند المسلمين ما حُمّد وعُبّد.

هزني النبأ وغلبني التأثر واخذت ادعو الله للرجل بحرارة ـ واذا حُمّ القضاء بَطَل الدعاء..لا اذكر ان كنت صافحته او حييته الا ان كان ذلك لماما وفي مناسبة تستوجب الا يكون حديث. ولكن صورته تظل محفورة في ذاكرتي بكل الحب الذي اكنه له لما علمت عنه. كان سودانياً صميماً في كل شيء، مخبراً ومظهراً وهذا للوصف لا للتحيز. ابرز ما فيه البساطة المتناهية التي تخفي كل شيء فلا تدري ما ينضوي عليه ـ ماهية ومقداراً ـ إلّا حين تبلوه. يتوارى حياءً وتواضعاً، وحين تكفهر النازلة يتصدى ويتصدر ويتلقاها بصدره. من تراه ساعة الفزع لا ساعة الطمع، كالفولاذ الغائص في كيان البنيان، فالمرء، عرف بوجوده أم لم يعرف، هو به في أمان. هتفت وأنا عائد من المطار: يالله! هذا الرجل هو نحن. صورتنا الحقيقية وحامي حقيقتنا. لئن مات هذا الرجل اذن مات منا والله كبير.

ما ان وصلت حتى شرعت اكتب رسالة متمنياً الشفاء. قلت له ما معناه ان جاءه مثل خطابي هذا ممن كان من اهل نهجه الطائفي او السياسي او ممن عرف بأنه كان من اهل هواه، لما كان له مثل ما لخطابي من قيمة. حيث لم اكن واحداً من اولئك في يوم من الأيام، بل بالاحرى كنت من مخالفي حزبه، ومعارضي نهجه السياسي وكثيراً ما كنت في الخصوم. فلئن كتبت ما كتبت فلأن الحق يملي، لا فضل لي غير الاعتراف بجميل من اولى للوطن الجميل. قلت له وهذا الامتنان سيظل ديناً على كل مواطن منصف بمثلما ستظل مكانته أثيرة في ضمير شعبنا. كلام كان في هذا المعنى، وفي خاطرتي تتألق، ماثرة للرجل ان لم تكن له سواها ـ وما اكثر ما كانت للرجل من مآثر مذكورة ومشهورة ومشكورة ـ لكفته شرفاً وفخراً وكفتنا به افتخاراً.

حدث ذلك على عهد ديمقراطيتنا الثانية (١٩٦٤ ـ ١٩٦٩) ما بين انهاء ديكتاتورية الفريق ابراهيم عبود وانقلاب جعفر نميري. حدث ذلك وكان بعض ما اطاح بديمقراطيتنا الثانية ـ صنم العجوة ـ مقدماً لجعفر نميري المبرر لانقلابه وما كنا نظن اننا مرحبون ثانية بعد انتفاضة ١٩٦٤ الشعبية على الحكم العسكري، بموسيقى عسكرية، فبيان اول، فأمر جمهوري رقم كذا وكذا.

كان رئيس الوزراء عندئذ السيد الصادق المهدي، قد ضاق ذرعاً بالنواب الشيوعيين على قلة عددهم فقام بطردهم من البرلمان بقرار مستصدر من عين الهيئة النيابية التي كانوا جزءاً منها، مستغلاً في ذلك حادثة ملفقة نسبت إليهم. حمل النواب المطرودون قضيتهم لمحكمة البلاد العليا التي افتت فيما بعد بعدم دستورية هذا الاجراء الذي يسمونه في السودان «الانقلاب المدني» على الدستور.

في ذلك الجو المدمدم بالفتنة، المستنفر بالتحرشات والاعتداءات والاتهامات والتهديدات المتبادلة، اعلن رئيس الوزراء في بيان متلفز بانه سيضرب «بيد من حديد» على خصومه اولئك. ساد الوجوم المواطنين وزاد الجو توتراً على ما كان عليه. وهنا حدثت ماثرة الامير نقدالله التي خط بها سابقة لم اسمع بأخت لها، لا في السودان ولا في اي بلد عربي سواه، والا... أجيبوني.

بعد قرابة نصف ساعة من انتهاء رئيس الوزراء من القاء بيانه «الحازم» و«الصارم» قطع الارسال واعلن المذيع بان هناك بياناً هاماً آخر آتياً لتوه، هذه المرة، من السيد وزير الداخلية. وماذا كان للمواطنين ان يتوقعوا من وزير الداخلية في اعقاب بيان سبقه بنصف ساعة من رئيس الحكومة يتهدد ويتوعد فيه خصومه السياسيين الذي اقر البرلمان باغلبية كبيرة اجلاءهم عنه لانهم كذا وكيت؟ وماذ يتوقع المواطنون من وزير الداخلية ان لم يكن تقديم الاجراءات العملية والخطوات التطبيقية والتعليمات المحددة لما ورد معمماً في بيان رئيس الحكومة؟ حبس المواطنون انفاسهم لهفة وترقباً، وربما قلقاً واشفاقاً او تحفزاً ـ بإحساس هائل بان التوتر السياسي والصراع المستحر قد وصل ذروة تصاعده وقرب الانفجار النهائي.

ما لبث ان ظهر وجه «الامير نقدالله» ـ بكل ما فيه من طيبة وسماحة ومروءة ـ هو هو بفصوده الدنقلاوية، في هندامه السوداني الذي لم يعد يلبس سواه منذ زمن طويل جداً: الجبة الانصارية ـ التي يسميها اخوتنا المصريون بحسهم الفكاهي اللاذع «ماشي جاي» حيث هي من الجهتين سيان تلبسها كما اتفق وتكاد تكون الشيء العملي الوحيد الذي اخترعه اخوتنا السودانيون والا فليذكروا لي بقية الاختراعات ـ والملفحة التي على كتفه، والعمامة ذات العَذَبه (العمامة تاج العرب، والعذبة اقتداء بالرسول العربي الكريم).

بعد ان حيا المواطنين بأدبه الجم قال لهم انني استمعت مثلكم لبيان السيد رئيس الوزراء، اقلقني ما سمعت. ورغم انني طريح الفراش من وعكة طارئة، سارعت اليكم بحسباني وزير الداخلية لاضع الامور في نصابها. (انني انقل لك يا قارئي تلخيصاً مبتسراً ولا اورد نصاً اميناً، ولقد عرا الذاكرة شحوب).

قال انني الوزير المسؤول عن الامن والنظام وعن تنفيذ القانون وليس السيد رئيس الوزراء الموقر. وانني ما دمت كذلك، ارى من واجبي ان اطمئنكم بان السيد رئيس الوزراء وخصمه السياسي السيد عبدالخالق محجوب سيان في نظر القانون لا ميزة لاحدهما على الاخر، ناهيك في ان يكون له حق تهديده. وانني ما دمت الوزير المعني مباشرة، والمسؤول الاول المكلف بهذا الامر، لن اسمح بأي انتهاك للقانون باسم القانون.

ان لم يذكر السودانيون الآن كلماته تلك بنصها فانهم ليذكرون الموقف تماماً. هذا بعض ما جعل قلبي يوجف حين علمت من «سيف الدين» ان الرجل كان في فراش موته بلندن. هذا بعض ما جعلني اسارع بكتابة رسالتي تلك اليه. هذا بعض ما جعلني ابكي عليه بحرقة حين مات، وجعلني احس بان شيئاً عزيزاً وغالياً ونقياً وأصيلاً فينا قد مات ـ رجل والرجال قليل. رجل ولا كالرجال. بعض كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع، وبعض كالدخان يعلو بنفسه الى طبقات الجو وهو وضيع. وكان من النفر الاول. كبير دون ان يستكبر قوته منه وفيه فليس بحاجة لان يتقاوى، يسترها كما ستر الفرلي سفاده من خشية الله وخيفة الحق وقهراً للنفس ومعرفة بهشاشة الانسان، فلا يعتو الا على من عتا وانه حينئذ لشديد. ولكن كم من جرابيع جبناء، يتقاوون على الضعفاء، فاذا وجدوا من هو اقوى تطامنوا استخذاء. تلفت حولك يا اخ العرب العاربة والمستعربة وقل ماذا ترى؟

مات وقد وصلني رد خطابي، رسالة بتوقيع ابنه يقول لي ان والده قرأ خطابي وتأثر جداً بما جاء فيه، ويشكرني عليه، وقد كلفه بأن يخط لي تلك الرسالة. فرحتي باستباق خطابي لمنيته، عانقت حزني بالنبأ الذي وصلني، فاذا الفرح والحزن يبكيان معاً ويبكيانني. كان رجلاً على قمة جهاز بطبيعته باطش فتسامى على مغريات السلطة وشهوة التسلط وحلاوة التلويح بالبطش وصغار الخصومة السياسية. رجلاً بحس انساني عميق وحس وطني رفيع وكان بالاضافة حارساً لتراث البلاد وللبلاد. ما خطرت ذكراه بخاطري إلّا واحنيت الرأس اجلالاً لذكراه. يذهب الجسد الفاني وتبقى المأثرة ■

«... انصافاً لنيكروما اقول انه عاد وادخل العربية كمادة اختيارية في التعليم الثانوي ببلاده، وكانت له اذاعة عربية، بل كان بصدد اصدار صحيفته «الشرارة» في طبعة عربية.. وفي خطابه الرائع في الافتتاح الرسمي للمعهد، اشاد نكروما بفضل العرب ودورهم.. ولم يكن قلم توماس هودجكن بعيداً عن الخطاب...»

■ في مطار «اكرا»، قال مستقبلي ان مدير معهد الدراسات الافريقية – توماس هودجكن – غائب، ولكنه أوصى بوضع منزله تحت تصرفي. في الصباح دنا مني اثنان يستاذنانني في المكوث لأيام اخر. قالا: «توماس» لا يمانع ان قبلت. اجبتهما ما أنا الا ضيف مثلهما. وكان هذا مذاقي الأول من توما الذي – كصاحب الدير – لا يوصد بابه في وجه قاصد. والذي يشير اليه ويخاطبه الكبير والصغير، والرفيع والوضيع باسمه الاول مجرداً – توماس، ودائماً توماس – لا عن استهانة ولكن عن محبة.

المعهد الذي اسسه من عدم، خلية نحل، تدفع به روح الانجاز والاعتزاز. تحسبه يسير بالبركة وهو يسير كالساعة. مديره مذلل عقبات لا خالقها. قوامه الغانيون، ولكنه في الجانب العلمي يعتمد باكثر، على محاضرين زوار من الغرب والشرق – بعرب احياناً كجميل ابي النصر الذي حاضر عن «التيجانية». الدراسات تشمل كل موضوع افريقي (تاريخاً، ولغات، واقتصاداً، وسياسة، وآداب، ومجتمعات) ماض وحاضراً. لاسيما اسهام العربية والاسلام في الثقافة الافريقية والمقاومة الافريقية. ملحقة به شعبة للموسيقى الافريقية والرقص.

«توماس» ينعت بمرح طالبات الرقص الغاني «الحوريات». وبالمعهد مجموعة من المخطوطات العربية او الافريقية بالحرف العربي ومكتبة متخصصة. وكان مقرراً آنذاك الا يتسلم طالب اجازته الجامعية من اية كلية كانت، الا ان يمر في منهج جانبي مختصر عن افريقيا، بغية تزويده باستنارة قارية، ووعي بشخصيته الافريقية، وتحرر من الاستلاب الثقافي الغربي. فما عبثاً استعان «نيكروما» بتوماس لوضع اسس تعليم عال وطني افريقي تنهض عليه غانا الجديدة، انموذجاً لافريقيا الجديدة. أفنتوقع ان يترك العدو الخفي القائد يحقق طموحه، فيفسد عليه البقرة الحلوب؟

فوجئت يوماً بتوماس يرقد على حشية ضيقة على سرير سفري أقحم في مكتبة المنزل. فقد تنازل عن غرفته الخاصة لاثنين طردا من سكن جامعي بفرية سلوكية منافقة. ثرت: «انت مريض ومرهق. عد الى فراشك ودع ثلاثتنا نتدبر حلاً اليق».

ابتسم «اتقصد اللاجئين؟ هذا لطف منك. ولكن دع الطفلين في هدوء فهما في محنة نفسية». قلت مغتاظاً: «وكفّ عن نعتهما بالطفلين فهما محاضران بالجامعة. هذه تضحية لو كانا كريمين ما قبلاها منك، مهما كان». غمغم مدافعاً: «ولكنهما في سن اولادي. لا، ستبقى حيث انت، وسيبقيان حيث هما. الأمر بسيط فلا تسمه مبالغاً تضحية. دعنا نتكلم عن شيء يفيد النضال».

استلمت متاخرات مرتبي ومسكناً. بحثت حتى وجدته: «توماس! بقيت معك ثلاثة وثلاثين يوماً آكل واشرب. ثلاثة ايام ضيافتي – اذا سمحت لي – على عادة العرب. وها نصيبي عن الثلاثين يوماً الاخرى». بابتسامة حنون وتربيتة رفيقة على كتفي علق: «هذا لطف منك. ولكن ثلاثة ايام هي الحد الادنى، لا الاقصى، عند العرب. اذا سرّهم نزيلهم استبقوه، ولقد سررت بوجودك معي. ولكن لاصدقائي السودانيين جميل واجب الرد. امكث في بيت أخي «يوسف بدري» شهراً وشهرين لا نتحاسب بهذه الطريقة. اعتبره رداً لجميل يوسف. ولكن أعلم، انني منذ حللت بغانا وانا لا احول بنساً من مرتبي للخارج. يلزمني انفاق نقودي لذلك هنا. فاعتبر نفسك احد مكافحي الحرية الذين لهم حق فيها. صلاح! دعنا نتكلم في شيء أجدى». ارنو اليه ملياً في صمت. استعيد كلماته فيما بعد لنفسي مراراً، اكتشف مغزاها. فالنبل حقاً هو ما يفعل النبيل.

«صلاح! غداً سنذهب لمقابلة الاوساجيفو. الديك ما تثيره معه؟». «بلى. الخطوط الغانية تمر عبر الخرطوم شبه فارغة. لماذا لا تمنح طلاب العربية بالمعهد تخفيضاً يتيح لهم زيارة السودان؟ بامكاننا ان نطلب من جامعة الخرطوم استضافتهم لقاء معاملة مماثلة متى شاءت». هتف محبذاً: «فكرة جيدة! حدثه فهو متفهم ومساعد. وساكلمه عن مسجد للجامعة. اليس من العار ان يكون في كل مبنى جامعي مصلى مسيحي، ولا يكون للمسلمين واحد؟ انه التحيّز الاستعماري الموروث. فللاسلام والمسلمين على غانا وافريقيا يد كبيرة».

خرجنا مسرورين. اجرى الاوساجيفو اتصالاً امامنا وحصلنا على تخفيض تسعين بالمئة. وعدني توماس بأن تتحمل الجامعة الفرق.

«صلاح! سنقابل «نانا كوابينا» رئيس مجلس الجامعة في منزلي الآن. انه شخص جيد وسيسرك. هيا بنا. كان «نانا» قد اختير ليرأس وفد غانا للتحضير لاول قمة افريقية انبثقت منها منظمة الوحدة. افريقيا عهدئذ لا تتبع الخارجية بل الرئاسة مباشرة. و«نانا» هو الذي اشتهرت صورته يجثو حافياً في مطار اديس ابابا، يصب على الاسفلت بين قدمي نيكروما خمر المباركة التقليدية الغانية. قدمني اليه توماس بكلمات من كرمه. الرجل ودود بحق.

سرعان ما استحر نقاش، اكتفى فيه توماس بالاصغاء اليقظ لا يتدخل الا ملطفاً. زعم «نانا» في استعلاء بأن العربية لغة آسيوية وحسب، دخيلة على القارة. دافعت: كيف يمكنه دعوة قوم بحفاوة للدخول ويأمرهم بخلع السنتهم على الباب؟ ومن اين له سلطان الاجازة والمنع؟ متسائلاً: أهل يحسب أسلافه اقدم سابقة على ارض افريقيا من اسلاف عربها ومستعربيها؟ والا فمن اين جاءني – انا العربي الجالس قبالته هذا – إهابي الاسود – امن آسيا ام من جبال القوقاز؟ ولماذا ينكر على لغة – وان تكن آسيوية بدءاً – ولكن تافرقت من قرون عديدة بالمصاهرة وارتضيت بالحسنى، ما لا ينكره أو يستنكره على لغة اوروبية فرضت أمس بحد السلاح، هي التي كنا نتفاهم بها لحظتئذ؟ عاتبته: بل لك معياران يا «نانا»، وانني لأرى موقفك – معذرة – مناقضاً لموقف الاوساجيفو.

اخطأت. كان موقفه عين موقف الاوساجيفو، بل وموقف الاكثرية في المؤتمر القاري. ولعل «نانا» قصدني يتنطس استعداداً لذاك. ولكن عبد الناصر كان مستعداً ونداً للموقف. احتال بلباقة ودهاء حتى جازت العربية لغة رسمية لحظة توقيع الميثاق. تباً لعرب لا يزالون حتى اليوم يستنكفون عن استخدامها برغم ذلك داخل المنظمة، بذريعة او اخرى، زراية بها. ولكن انصافاً لنيكروما، عاد وأدخلها مادة اختيارية في التعليم الثانوي ببلاده، وكانت له اذاعة عربية، بل كان بصدد اصدار صحيفته «الشرارة» في طبعة عربية سئلت بشانها. وفي خطابه الرائع في الافتتاح الرسمي للمعهد – وما قلم توماس ببعيد عنه – اشاد بفضل العرب ودورهم. كذلك نهض داحضاً بعنف «زنجية سنغور» الجوفاء ومتضمناتها الخطيرة. ولكن عدواً مخاتلاً لافريقيا وللعرب نجح في المحو والاثبات. والعرب في غياب وغيبوبة وغفلة وغباء وغنى.

كان توماس – لا شك – متلطناً بانني ساسمع الرجل في جراة مصادمة ما لا يستطيع هو الاوروبي الاعراب عنه الا باعتذار وايماء. ولكيلا تضام العربية، اوفدني عن المعهد لمؤتمر للغات الافريقية بسيراليون، بما المعت له في مقالتي عن الدكتور كولينز. هذا بعض تفسير كلمة «النضال» التي يرددها بمحبة. كل مسعى «نضال» من اجل غاية. وفي افريقيا تتخذ الكلمة مغزى ابعد دلالة.

تقابلنا بعدها مرتين كلتاهما في اكسفورد. المرة الاولى اعتزبانه هو الذي اعد لنا العشاء. اعلن بانه حجز غرفة لـ«ج» بالوالدورف «معاملة متميزة لسفيه». وأما انت يا صلاح فقد اعددنا لك غرفة معنا بحسبانك «عامل». تعتع العين في قرارة حلقه كعادته في الحرص على سلامة مخارج حروفه العربية من العجمة. بلباقة اكرم كلينا. قال لي هناك مفاجأة سارة لك. دعوت «ج» ليتعشى معك.

حين سافرنا لجمع مخطوطات ومعلومات من «كيتاكراتشي» قبل ان تغرقها الى الابد بحيرة سد «اكسومبو» على الفولتا، صحبنا «ج» وكان يرتاح لدى توماس. لم يضحك احد كما ضحكنا ليلتئذ في قاع البحيرة التي ستكون. تعشينا بدجاجة واد رقطاء، ثم اعتلى سائقنا الغاني في مرح المنضدة حيث كانت الدجاجة المسكينة مرقداً له، متكوراً على هيئتها تماماً. ظللنا نكفكف ضحكاتنا وتعليقاتنا التي لا تنتهي، خشية ايقاظ توماس، لوقت متاخر. كاتبني «ج» لدي عودته من مصحة للنقاهة النفسية. قال يقضي وقته يحرر صحيفة للنزلاء ينشر فيها شعره ويشرح لهم الحق الفلسطيني. لفتة كريمة دعوته من توماس، ذلك الذي أوصاني عليه في «اكرا» بان اعامله كاخي الاصغر. سر كلانا باللقاء. قال تزوج ورزق طفلة ويعيشون في مقطورة كالفجر.

شاركنا ضحكنا في قاع البحيرة ليلتئذ، «أ»، الحجة في تاريخ غرب افريقيا وصديق توماس. أسرّ صديق لنا بأن توماس واجد عليه لهجرانه زوجته الافريقية واولاده الحلوين من اجل غرام مفاجيء. قضى معي ليلة بنيويورك هو وغرامه المفاجيء. ولكن تفاديت اي ذكر للماضي بما فيه توماس. المرة الوحيدة التي سمعت فيها بتوماس يحاسب احداً على مسلك خاص، لولا انه لا يحب ضيماً لاحد.

ثم دعاني للغداء، آخر لقيا لنا. «صلاح! انت متاخر تاخراً دموياً قالها كما لو سير أسحق نيوتن حين قال: «آه منك يا دياموند». سالني بعد ان جلسنا «ابحاجة الى مال؟». قلت «لا يا توماس، ابحث عن طريقة للاقامة في لندن بغير لجوء سياسي». قال لي ذكرني بعد ايام لدى عودة دوروثي من الصين فهم يحترمونها باكثر مني في «الهوم اوفيس». لم افعل. طالبو معروفهما كثيرون وبامكاني حل مشكلتي، على ان توماس أخو أخوان.

في طريقنا للمحطة قال لي فجاة «هناك ما اطلعك عليه ولكن لا تلمني. لقد رجعت للحزب!» قلت «ولم الملامة ما تظنني؟ ولكن لماذا فعلتها؟» اجاب باسى: «العنصرية والفاشية هنا في تنامي. لهذا انضممت لفرع برمنجهام بالذات. لن اكون ممارساً بطبيعة الحال، ولكنها ايماءة رمزية ضرورية». وكان توماس عندئذ في اعتاب السبعين او اعقابها بالاحرى. لم أزد ان قلت «كم انت مدهش يا توماس!».

لاحظته يسعل مراراً باكثر مما عهدته. يتوقف وينحني مسترسلاً في تمزق وانا واقف بجانبه لا ادري ما افعل حتى يهدأ قليلاً، ريثما يستانف سعاله. رجوته «اترك هذا الطقس اللعين يا توماس، واذهب للسودان فطقسه ارحم». اجاب «لا اقدر. اصدقائي اما في السجون او غادروه». قلت: «صحتك أهم. انت انفع لاصدقائك معافى». غمغم: «ربما كنت على حق. قد افعل». ذهب ومكث قرابة شهرين في منزل صديقه الحميم يوسف بدري، ما غادره الا ليرحل عنا للابد. اذكره قال لي مرة «يوسف يتحمل افكاري هذه لأنه صديقي». امد الله في عمره فما احوجنا لحكمته وانسانيته، بطريقته الخاصة يحملك على حبه كصديقه توماس.

توماس المحب للحرية المكافح لها. العارف بالحق الواقف معه. الخالي من الصّغار، الخدوم للآخرين. المعتذر حين يرد عليك، المتعاطف حين يصغي لك، القاصر حاجته على كتاب وصديق وعمل مفيد. الودود الفطن بسخرية خبيئة بريئة من خبث. السخي المتواضع ابداً. متعته العلم والعمل به. كل البشر اصدقاؤه واحباؤه. كل وقته مكرس للخير، ومآثره باكثر مما علمت. يا الله! كم احببت توماس معلماً وقدوة وصديقاً ومعيناً – انساناً فاضلاً جديراً بالمحبة جديراً بالاحترام.■

اليوم السابع – ٢٢ كانون الأول ١٩٨٦

«دوروثي هودجكن وأهلوها. "الذين يوزنون بالذهب فيرجحون به، ويوضعون في الجرح فيبرئونه، لا تنقصهم من صفات المسلم الحق غير النطق بالشهادة».

قلت لها معابثاً: «انكم لتحبون الانكليز... هذا ما أعرفه» ازاحت بتؤدة نظارة القراءة عن عينيها، تنحي الصحيفة اليومية التي تمسك بها جانباً وتعلو اساريرها ابتسامتها الحليمة قائلة: «بالحيل يا ولدي، ولكنهم ليسوا الانكليز الذين على بالك. ناس اذا وزنتهم بالذهب يرجحون به. واذا وضعتهم في الجرح يبرؤونه. لا تنقصهم من صفات المسلم الحق غير النطق بالشهادة. حذار يا ولدي من أخذ الناس بالباطل. حذار وظلم من تعرف أو من لا تعرف». قلت لها تعجيزاً: «أريني واحداً منهم لا ينطبق عليه قول شاعر «هتاف الجماهير»... الانكليز عرفناهم ونعرفهم، كالذئب غدراً وكالحرباء تلويناً. ندت منها ضحكة مهذبة مقتضبة خافتة وردت «أقال شاعركم ذلك؟ انتم والله شياطين مصرّمة. حاشاهم ان يكون آل كروفورد كذلك». سألتها «ومن يكون آل كروفورد هؤلاء يا أمي؟».

«كان المستر كروفورد أول مدير للمعارف بعد الفتح مباشرة في مطلع القرن. وكان جدك محمد أحمد فضل يرحمه الله ويحسن اليه، أول ناظر لأول مدرسة تفتتح في الخرطوم والمدرسة الحكومية الوحيدة. المدرسة التي لا يزال مكانها في قلب الخرطوم عند ميدان ابي جنزير، وكنا نسكن منها آنذاك في حيث أقيمت الآن لوكاندة فيكتوريا. نشأت بينه وبين جدك الناظر صلات احترام وود وتواصل متينة. ولقد عاشرونا فأحسنوا والله العشرة. بل كان لزوجه - مسز كروفورد - جميل خاص عليّ. تعهدتني وأنا صبية برعايتها، وأولتني اهتمامها الخاص، فكانت ما سمعت بامرأة تحذق مهارة الا وأمرت بها تعلمني طرفاً مما مهرت فيه. حتى لقد استجلبت لي ذات مرة على نفقتها بدوية من «أبي دليق» علمتني طريقة صنع شمال الصوف العربية. ان لها في ذمتي جميلاً لا انساه لها حتى يسترد صاحب الوديعة وديعته. ومن لم يشكر المخلوق يا ولدي لم يشكر الخالق. اياك واخذ البريء بذنب المذنب. اياك وظلم من تعرف أو من لا تعرف يا ولدي. فالذي تسويه المعزة في القرظ تجده دباغة في جلدها». واذكرها بعد هنيهة صمت تهز لي أصبعها محذرة «لسانك حصانك يا ولدي! نعم، نحبهم والف كرامة».

وبرغم كل ذلك ترعرعت يزدحم صدري بمقت الانكليز، فبيني وبينهم «كرري» وشهداؤها. وصوت جدتنا عائشة بنت مصطفى تردد صباح مساء «حليل أهلي ال رقدوا في كرري»، أو «يوم أسود كالذي قتل فيه أبو عثمان» - عثمان شيخ الدين قتل في كرري وابوه الخليفة عبد الله قتل في «الجديد». ثم قبة المهدي عليها تجاويف قنابل كتشنر، امسك بيدي النحيلتين سورها الحديدي الصدىء، تستهيج الضغينة في قلبي انقاضها، اظل واقفاً لا أملّ ولا احس بالوقت متحرقاً ليوم الثأر. السلام للمهدي الامام!

المرأة التي أجالسها في منزل آل هودجكن في «ليقون» حيث جامعة غانا، هي زوج «توماس هودجكن» مدير معهد الدراسات الافريقية حيث كنت أعمل. صديقي، صديق الجميع. اسمها «دوروثي هودجكن». وتشاء المصادفة ان تكون هي بنت جون كروفورد. وتكون امها تلك التي تعهدت باهتمامها صبية سودانية فاذا بذلك الجميل يظل مخضوضراً يانعاً حتى استرد صاحب الوديعة وديعته، ولا يذهب العرف بين الله والناس. بنت أولئك الذين قالت لي عنهم والدتي بتحدي: «نعم، نحبهم وألف كرامة». ها هي بنتهما التي تجلس بقربي في ذلك البيت الذي لا يقفل بابه في وجه أحد قط في «ليقون» بغانا.. دوروثي كروفورد هودجكن!

«وماس» مادد رجليه في احدى غفواته الارتجالية المقتضبة يغمغم بكلمات لا تستبين بين حين وآخر معتذراً. قليلاً ما التقيت بها فما كانت تأتي الا لماماً في احدى عطلات اكسفورد القليلة، ثم كان لديها دائماً ما تعمله في مكان آخر. قلت لها، انا الذي لا يفرق بين كوع وبوع في الكيمياء، مردداً كالببغاء ما قرأته في كتاب روسي، مترجم: «دوروثي! احقاً نظرية الريزونانس (التتالي المتطابق في الجزيئات كما في الكربون مثلاً ان لم اخطيء) رجعية؟» لم تبتسم في سخرية أو رثاء أو استعلاء. لم تنصحني الزم يا هذا مواعينك، أو تنهرني - وحق لها - أرع يا ولد في قيدك (بالعربية ان أمكن والا فبالانكليزية) ولكنها في كرم شرعت تقدم لي شرحاً جاداً بصوتها المتمهل الخفيض المنساب كموسيقى رتيبة خافتة. لم أفهم من ذلك الشرح حتى هذه اللحظة ما اذا كانت نظرية «الريزونانس» في الكيمياء رجعية - كما قال ذلك المؤلف الستاليني - أم غير رجعية. فقد كنت سارحاً بفكري مع شارلي شابلن.

حين زار شارلي شابلن العلامة البرت اينشتاين، طلب منه ان يشرح له «النسبية» رد عليه العالم الجليل: «هذا كما لو طلبت منك يا شابلن ان تمثل لي دوراً من ادوارك في هذه اللحظة». ولكن بما ان الممثل الكبير كان على قدر من الاطلاع وقد استعد للمقابلة، فقد أثار عدة تساؤلات جادة استغرقتها معاً مناقشة زهاء الساعة. في اليوم التالي بعث شارلي شابلن بصورته موقعاً عليها تحت هذا الاهداء: «الى اعظم عبقرية في القرن، ارجو ان يكون اعجبك تمثيلي بالامس»، يقصد النقاش.

ويل الشجي من الخلي. ولكنها طيبتها وتواضعها وعظمة نفسها. يعلم الله وحده كم جليل كان يتلهب في ذهنها المتفجر بالجهد الخلاق كبتته في لحظة «كبر ان يقال بها كبر» كما قال ابو تمام. وقد ينحني رسول كريم ليغسل اقدام البسطاء والمحزونين.

ومَيُوستربتون». كما أعلنت في عام ١٩٦٩ بانها نجحت - وفريقها المساعد - في تحديد التركيب البللوري للأنسولين. ودوروثي تحمل بجانب عشرات الألقاب الاكاديمية الفخرية من جامعات استراليا وهولنده والمانيا ويوغوسلافيا والنمسا وبريطانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وما لا أعلم - وهيئاتها العلمية، نوط ميخائيل لومونوسوف الذهبي من اكاديمية العلوم السوفياتية، والنوط الملكي من الجمعية الملكية البريطانية.

حدثني احدهم بان شركات العقاقير الاميركية دأبت على التقول على نتائج ابحاثها في الكيمياء الطبية بينما هي عازفة عن الكسب المادي، مكتفية بما تؤديه في صمت من خدمة للعلم والانسانية، حتى أقام اخيار هيئة تقوم عنها وعن امثالها من العلماء المتعففين الزاهدين بتسجيل الحقوق القانونية واستغلال ريعها في المزيد من البحث العلمي. والحق، ما رأيت اناساً بمثل تنسك آل هودجكن ولكأنهم من طينة غير طينة البشر. ألم يتنازل زوبين هودجكن، مدير معهد المعلمين ببخت الرضا عن كافة تعويضاته المالية لدى «السودنة» عقب الاستقلال - بكلماته - «لشعب السودان»؟ فلا نسي شعب السودان مأثرته ان كان في السودان من يرعى الجميل. فقل لمن لا يرى خلف مساعي البشر غير دوافع الاستفادة الانانية والمصلحة الخاصة والنفع الشخصي وحسب، عدتك الحقيقة وعاداك الصواب. فها اليك من لا يكترث لمال او يجري لصيت، بل كرس نفسه خادماً للمعرفة، خادماً للانسانية، خادماً للخير، لا يرجو لقاء ذل شيئاً غر الفعل نفسه ثم لا ينتظر جزاءاً أو شكورا. لهذا «كان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه» كما قال ابن المقفع. الدنيا بمعنى لعاعاتها العارضة، ولباناتها العابرة، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض. صدق الله العظيم.

اعتبرتها اكسفورد، اينما ذهبت في أي وقت ولأي غرض، تقوم لها بعمل. في غانا لم تضن خلال وجودها بوقت أو جهد في تقديم خبرتها وعلمها ومشورتها. وفي آخر مرة التقيت فيها باكسفورد بزوجها الغالي قبل رحيله المفجع، ذكر لي انها غائبة في الصين تقدم لجامعاتها خبرتها ومشورتها في تنظيم البحث العلمي. وبينما كانت هناك، كانت ابنتها الوحيدة اليزابيث - التي خلفتها بالسودان تدرس وتقدم العون الجسور لمن مسهم نظام النميري بضيم - وقد انتقلت الى «فيتنام» تقدم خدماتها الصامتة لشعب مقدام من الفلاحين. بينما كان اخواها يمارسان المهنة الشريفة - التعليم - باكسفورد، تلك المهنة التي ارتضتها لنفسها دوحتهم العريقة، ولا تثمر البذرة الطيبة الا طيباً. «نعم نحبهم يا ولدي والف كرامة! ولكنهم ليسوا الانكليز الذين على بالك». هكذا قالت امرأة سودانية عنهم ذات يوم وكأنها لسان شعب باكمله حافظ للجميل.

ودوروثي من بعد، ليس ممن أوصد نفسه في مختبره معتذراً لهموم البشرية بعطائه العلمي او الاكاديمي وحسب. وكان في ذلك ما يكفي ويزيد. فهي تعمل مع علماء اخيار في لجنة عالمية مقرها سويسرا، تنبه ضد اخطار العربدة النووية ونزعة التسلح النووي الشريرة، رافعة صوتها الامين ضد من يوجهون ثمار العلم للدمار وتعريض كوكبنا لما لا يمكن تلافيه أو اصلاحه أو تعويضه. بنفس المسؤولية التي خلف لنا تقاليدها العلامة «هالدين» ورفاقه.

رحل رفيق عمرها «توماس» مخلفاً في نفوس كل من عرف فضله المحبة والامتنان، وذكراه الخالدة. وبقيت دوروثي تكافح في وقار، هي هي في تواضعها العظيم وعظمتها المتواضعة. تدحض بما قدمت وحدها - معلمة وباحثة ومناضلة وأماً - كل هراء تاريخي مجحف من مكذوب القول وخبيثه عن دونية المرأة للرجل. المرأة التي هي - بكلمات الشاعر الاميركي والت ويتمان - «عظيمة كالرجل ولا أعظم من أم الرجال». يتنطع المتنطعون الجهلة بعجز المرأة وقصورها الذهني، وها هي امرأة يدين لها عين هؤلاء المفترين بعافيتهم أو عافية اعزاء لهم، بما حماهم من بنسلين او انسولين او فيتامين أو ما لم يصل بعد الى علمي من عطائها غير الممنون. ثم هي من بعد، اخرجت أجيالاً قبسوا من نور معرفتها وسمو مبادئها ومناقبها يخدمون الانسانية بدورهم. وتزيد على ما هو كثير سلفاً، حين تحامي عن الوجود البشري نفسه وعن سلامة كوكبنا من الدمار. واحد من جميع هذه الجهود الهرقلية كان يكفيها عظمة وعطاءاً، لولا انها عظيمة معطاء..

يعرف شموخها العلمي من يعرف عطاءها العلمي، ويحني الهامة اجلالاً من اطلع على قائمة مفاخرها الاكاديمية، وانجازاتها في مجالي العلم والتعليم. ولكنني افكر بها انسانة كان لي شرف اللقاء بها وجهاً لوجه، ربة بيت في بيتها، فاذا بجبروت الذهن الوامض بالعبقرية والنبوغ له قلب نابض بالانسانية والتسامي. واذا بمرادف كلمة «الحياة» لديها هي كلمة «الخير». انسانة استغنت عن الاقتناء بالعطاء، واستعلت على النعمة بمعناها الترفي بالخدمة، فكانت الأمثولة الحية في البساطة والقناعة وشرف المسعى وسمو الغاية وحب الانسانية، باخلاق الأولياء والقديسين، واستقامة الرسل أولي العزم اصحاب الرسالات، وزهد النساك المتجردين لما يمنح كينونتهم المدركة على الارض مغزاها المؤثر والملهم ابداً.

من اجل عين ألف عين تكرم. كانت دوروثي وأهلوها احر اعتذار لبلد عن تغوله على غيره من بلاد. وابتسامة شعب في حنو وإخاء لكل من اهين واضير باسم ذلك

«... عندئذ فقط عرفنا ما فعله عبد اللطيف».. هتفت قائلا «لا تقولي لي يا فاطمة افعل عبد اللطيف هذا حقا؟» ردت. «انه شخص عظيم بحق.. انسان نادر، لهذا قلت لك انت وهو وبقية اخواني في نظري سيان لا فرق...»

كان العم «نصر» حلاقاً للجيش البريطاني بالخرطوم في الاربعينات. ولدى تقاعده ظل يقيم بمفرده في منزل يواجه اهل بيته عبر الشارع. على واجهة المنزل لوحة حديدية صغيرة مكتوب عليها: «متحف السودان للنقود». بحق، فلم يكن بالسودان متحف لنقود سواه، على تواضع متحفه. عند سماعه طرقك الباب، ينهض من مصلاته، ابتسامة على محيّاه تحييك، يتقدمك هاشاً باشاً لغرفة يتصدرها مجهود عمر باكمله، خزانة زجاجية بطول القامة، نضد عليها معروضاته من شتى العملات الورقية والمعدنية من بلاد شتى. يحدثك عن كل واحدة بمحبة واعتزاز، لا يتقاضى عن ذلك غير المسرّة. لقد صنع الرجل ما لم تصنعه جهة رسمية هي الاولى بذلك: أسس متحفاً للنقود في الحي هو الوحيد من نوعه الذي كان في السودان اذا استبعدنا مجموعة بيت الخليفة الخاصة بغردون والمهدية وحسب. ولكن المسؤولين لم يسمعوا به، ولئن سمعوا ما اكترثوا. وحين طعن العم «نصر» في العمر كلّ بصره، سطا من لا موهبة له غير السطو على مجهود سواه، كنز العمر، آخر مكافاة له على ما منح كثيرين من متعة وعرفة. على إن الكنز الحقيقي الذي خلفه، دون ان يقدر أناني انتهازي خسيس على السطو عليه، هو ابنه هذا... جارنا عبد اللطيف نصر.

الى مكان عمله او عائداً، الى مصلّى الحي او قافلا، الى مجاملة اجتماعية او راجعا، لا يتوقف عبد اللطيف لثرثرة او لغو او فضول. يحييك طلق المحيا وينطلق لطيته. لا يستوقف نظرك فيه ـ سودانيا بين أمثاله ـ غير أدبه الجم. وحيائه المحتشم ووثوقه، مقتصراً على ما ينفع النفس او الناس. متدين في غير تظاهر او استعراض او مغالاة، خدوم ومبتدر الى الخدمة، يسخو بالسلام وفي الضوء الأول من الصباح تراه يكنس في تواضع جانب بيته من الطريق قبل ان يتهيأ للخروج الى العمل. نظيف مظهراً ومخبراً، عفيف لهجة ويداً، شريف خاطرة وتعاملا. ما كان في الحي من فرح أو ترح، فهو اول من تراه مهنئاً او معزياً، وأول من ينصرف حين تتكاثر الأرجل. اما اذا افتقدته عند اشهار مأتم، فلأنه في الغالب الأعم ذهب في بلد ليس في تقاليده بعد حتى الآن الحنوطي المحترف، ليحفر القبر شهامة وتقربا لله، او ليأتي بسرادق الجمعية الخيرية التي بادر مع آخرين كرام في انشائها لهذا الغرض، ينصبه مع شباب اخيار لا تحس بوجودهم الا عند الحاجة، تتعرف عليهم بتشميرهم، وبالجد الذي يكسو ملامحهم، والعرق المتصبب على الاصداغ، لا يريدون من احد بذلك جزاءا او شكوراً.

تقول العرب: الجار قبل الدار. ومن نعم الله علينا ان اكرمنا بجارنا عبد اللطيف هذا. فقد ظل يرعى حق الجيرة المقدس في بلد يردد أهلوه «لقد اوصى النبي حتى سابع جاره». تحكي لي شقيقتي في اعجاب مآثر جارنا في هذا الصدد، تقول لي انه يوازي مرتبتي لديها ورب اخ لم تلده الام. تقول الم تسمع بما فعل عبد اللطيف عند زواجي بالشهيد الشفيع؟ لا لم أسمع يا فاطمة، ماذا فعل؟ اليك اذن:

ما كان بامكاننا وكلانا منخرط في العمل الجماهيري الا ان يكون حفل زواجنا مفتوحاً للجميع ولذا اكتفينا بدعوة عامة في الصحف وأقمنا الحفل بميدان «الربيع» المجاور. يعجبك السودانيون في مثل هذه المواقف شهامة وكرماً وتصدياً. ولكن الوالدة رحمة الله عليها أعدت عشاء لمن لا مناص من دعوتهن للعشاء، وهكذا غص البيت بالمدعوات.

صادف ان تفاقمت العلة بجارتنا ام عبد اللطيف ظهيرة ذلك اليوم وفي المساء اسلمت الروح بالمستشفى لبارئها يرحمها الله. في ذلك الموقف المهول، ولا اقسى من فقد الام، تجلى شموخ عبد اللطيف الذي لم تزعزع المصيبة جنانه النبيل. جمع أختيه وزوجه وقال لهن بحزم لقد ذهبت عزيزتنا الغالية الى لقاء ربها راضية مرضية ولا راد لقضاء الله. ولكنه لن يسمح للفجيعة على هولها ان تحول دون القيام بما يليق وينبغي، لذا لن يقبل من ايهن ان ترفع صوتها بنواح او عويل، كما لن يعلن الخبر حتى تنصرف آخر مدعوة للمناسبة فلا والله لن نفسد على الجيران الاعزاء فرحتهم.

الدموع تنذرف حارة دراكا في صمت مرير وتصبر أمر. الجثمان بالمستشفى وعبد اللطيف وأهل بيته يطوون احشاءهم على الألم يغالبون النفس ونحن يا صلاح في بهجة الفرح وضوضاء المهنئين دون تفطّن لما حدث. وفي اليوم التالي صباحاً حين اعلن الخبر الحزين حسبناه ابن ساعته، قيل لنا بل حدثت الوفاة امس، تساءلنا لائمين كيف لم تبلغونا بها في لحظتها. عندئذ فقط عرفنا ما فعله عبد اللطيف.. هتفت بها «لا تقولي لي يا فاطمة.. افعل عبد اللطيف هذا؟» ردت: «انه شخص عظيم بحق يا صلاح، انسان نادر. لهذا قلت لك هو وانت وبقية اخواني في نظري سيان لا فرق».

عظيم عبد اللطيف، وقلّت عليه الكلمة. مجرد عبد من عباد الله مثلي ومثلك حين تقع عليه العين. خالٍ من المحسنات الخارجية ولكن وجدانه يضيء ويضج بالمحاسن. في بساطة واقبال يحييك وبنفس البساطة يفارقك لا يضيع وقته او وقتك. يؤدي الفريضة الاجتماعية مبادراً على الوجه الأليق، لا يطيل او يثقل، ولا يلومك او يحاسبك على تقصير سبق حياله. كل شيء عنده بمقدار الا سخاء قلبه. ما رأيت فيه منذ نشأتنا في الحي عوجا او شيئاً او شططا. وخلال سني غربتي الاضطرارية، حين كان القادم من ارض الوطن يتحسر على اصالة طمسها ومسخها النميري ونظامه الخبيث وما افرز من هوام البشر، وعلى اخلاق القوم التليدة تبدلت، اتذكر ان لها اوتاداً لا تكاد تتوقف لديها الابصار من امثال جارنا عبد اللطيف. وهكذا حتى في اليأس تتنزل على فؤادي الطمأنينة حيث طينة الشعب باقية بخير ما ظل امثاله هم ملحها الأصيل.

في زيارتي الأخيرة للسودان طرق باب بيتنا، اصيلاً، عبد اللطيف. اعتذر عن الدخول لمرة اخرى كما قال فبين يديه عمل كثير. ولكنه جاء ليخبرني بأن ختان انجاله صبيحة الغد بإذن الله وأنا مدعو لحفل الافطار. لن أعتذر بارتباط سابقه وهامة، غدا يوم فرحة جارنا فهي فرحتنا ايضا. قلت له مبروك، اتمم الله على خير، سأكون لديك غداً بأذن الله.

اخواننا السلام عليكم وألف مبروك ـ اين عبد اللطيف؟ تفضل تفضل، عبد اللطيف خرج لأمر هام وسيعود فوراً. لا يمكنك الانصراف هل انت قادم للفطور ام لعبد اللطيف، الفطور جاهز... تفضل. وهكذا، من استخلفه عبد اللطيف على المدعوين لن يترك احداً يعتذر او يهمل احد الغياب الداعي. جاء خوان عامر. ما اشهاه من مأكل ولكن الاشهى منه ان يؤاكل المرء أناساً يحبهم. بسطاء كاصحاب رسول الله. نظاف ظاهرا وباطنا كعبد اللطيف او ما يقارب. يجود كل واحد منهم فيما كنا نخوض فيه من حديث بقليله، ولكن في اعتزاز من لا يرى نفسه أقل من سواه مهما كان سواه، وفي تواضع من خلا تماما من الصنعة، ويود من جاء الود منه سجية دون تكلف.

جماعة تنهض وجماعة تجلس والداعي لا يزال غائبا. اعرف بعضا ولا اعرف الباقين. ويعرفني بعض ولا يعرفني آخرون. يخاطب الواحد الاخر وكأنه يعرفه منذ زمن، ولا يأبه بسؤاله من هو او بتقديم نفسه له الا عند الاقتضاء، هكذا يفعل السودانيون. قلت لمن حولي ناهضا، اسمحوا لي وقبل اتمامها صاح من استخلفه فينا عبد اللطيف: لا بل الشاي فهو في الطريق، يا ولد جيء بالشاي. ورضخت منتظراً الشاي.

وقفت على المدخل في ثلة من اهل الحي والاقارب. قلت لهم اما طال غياب عبد اللطيف عن ضيوفه. كيف يدعو كل هؤلاء الناس ويختفي. ما الذي اضطره للذهاب في مناسبة كهذه؟ همس أحدهم: لقد استعان به من احتاج لان يدبر عبد اللطيف حلاً لمشكلته في قطار اليوم، فاصطحبه لحل الاشكال. قلت: اما كان الاولى به ان يبين لهؤلاء النفر عذره القاهر يوم ختان اطفاله وملء بيوته ضيوف؟ هز رأسه: منذ متى اعتذر عبد اللطيف لمن استعان به محتاجا بعذر شخصي، كأنك لا تعرف عبد اللطيف؟

انصرفت بعد ان شربت الشاي وقد داخل الضحى الزوال وما ظهر عبد اللطيف. ولكن ما ضيّع الله ضيفانه وهو غائب. من منهم انصرف دون حفاوة واكرام وكان الداعي لم يغب قط، وهو من بعد في مكان آخر يحل كُرْبة سواه.

علمت انه يعمل الآن بمحطة السكك الحديدية بوادمدني. لا اخال ان عينه ستقع على كلماتي هذه الا ان ينبهه اليها منبه. وهو لا يتوقع بالتأكيد ان يكتب عنه كاتب حتى ولو كان جاره. بل ولست موقنا ان كان يفطن الى انني لا زلت اكتب ان تذكر انني اكتب. وهو قطعا لا يخطر بباله قط انه مستحق لان يكتب عنه كاتب او ان ما يند عنه سجية يستحق كتابة من كاتب. ثم لا اعلم كيف سيستقبل كلماتي عنه وهو الذي لا ينتظر ثناء من احد حتى يأبه للثناء. ثم لم اكتب ما كتبت عنه ليقرأه هو، ولكن ليعرف غيره بان من الممكن ان توجد العظمة دون ان يطلق عليها هذا الاسم الفخيم. ومن الممكن ان يوجد انسان عظيم من غير ان يفطن الى انه كذلك او انه يستحق ان يوصف بانه كذلك. بل أغلب ظني ان عبد اللطيف سيرى فيما كتبت اسرافا مني فيستغفر الله لكلينا. ولكنني كتبت ما كتبت، واعتذاري ان سببت له بذلك حرجا، ليستيقن القارىء الكريم بأن الانسان العظيم لا يوجد بالضرورة في فضيلة نائية في خيالنا تستعصي على الواقع أو يستعصي عليها الواقع. بل قد يكون انسانا عاديا وبسيطا ولا يميزه عن سواه ظاهريا كبير شيء، ولكنه انسان الزم نفسه بما يراه الواجب واللائق والحري والحميد، مما يرى نفسه على تواضعه السليقي اهلا له، ومما يراه على ما قد يصحبه من مشقة جديراً به... مثل جارنا عبد اللطيف نصر الذي منذ الفته وعرفته وجدته جديراً بالمحبة جديراً بالاحترام.■

«... تقصده ناقماً في امر، يقابل نقمتك بابتسامة اشفاق متفهم. يستمع اليك في أناة وصبر ودماثة. يسالك بواقعية: اكنت تتوقع ان تجد في وطنك هذا غير ما في وطنك ذاك؟ الحال بعضه هنا يا اخي يشبه بعضه هناك بزيادة او نقصان...».

لكم هو سمح عبد القادر الجزائري هذا... كم هو سمح!
يتطوع احدهم مفسراً سرّ هذه السماحة التي ليس فيها من «ولكن».. «معلوم.. لانه عروبي». يفسر آخر هذا التفسير: «بخاصة وقد تلقى تعليمه في المشرق». او «لانه ثمر الثورة الحقيقي». يتبرع ثالث بتفسير من زاوية جديدة وجديرة لا تقل وجاهة: «كيف لا، وهو القبائلي؟ القبائليون خيار الناس. ينطبق عليهم تماماً ـ ولكأنه قيل فيهم ـ وصف أمير الشعراء في الدروز: «ذادة وقراة ضيف، كينبوع الصفا خشنوا ورقوا». تهمس لنفسك: اياً كان التفسير، سماحة اخينا عبد القادر (والحقيقة تارة مسطحة وتارات مضلّعة) تجري من عين صافية دهاق. ان يكن هو قبائلياً، فهو قبائلي جيد. او جزائرياً، فهو جزائري جيد. او عربياً، فهو عربي جيد. لانه في اللب والصميم: آدمي جيد. فقد حاز من كافة انتماءاته المتواشجة هذه، خير ما فيها. فصار في كل واحدة منها على حدة، خيار الخير.

قد يغمك ـ عهدئذ وما هو ببعيد ـ من بعض المتنفذين تمترسهم في تحصينات منيعة من الانشغال والاستغناء والاستكبار... ولا خط بارليف! تحسب الصد والقلى موجهين اليك شخصياً، لانك ـ حسرتاه ـ عربي، او افريقي، او لا تهدر «الفَنْنسيه»، او لانك من بلد رجعي او غير متقادم، او من بلد مفتقر الى الله تعالى لا يملك قوت يومه، فترين عليك كآبة ووحشة. واذا بزميلك المتشكي من نفس الاغتمام، من دولة كبرى او غنية، او من دولة صديقة ذات مصالح وثيقة، او من دولة تقدمية او ثورية، او هو متفصح بلسان «ماريان»، فتشعر باغتباط سري، حيث المساواة في الظلم عدل. وتحبس لسانك عن الشكوى، إذ الشكوى لغير الله مذلة.

يغمغم زميل: «انتم على الاقل تتعزون بعلاقاتكم الشخصية بإخوتكم مواطني هذا البلد. ولكننا محصورون في «غيتو» دبلوماسي. نفس الوجوه، نفس الابتسامات، نفس الحديث، نفس النكات». آخر نكتة وان لم تتأتى بهذا القصد: طلب وفد زائر من سفيرهم التدخل لدى مسؤول يراهم ولا يرونه لتذليل صعوبات. اعتذر سفيرهم بضيق ذات التدخل «انكم لا تدرون انه لأسهل لي ان اقابل الرئيس بومدين من مقابلة ذلك المسؤول». اهابوا به «وماذا تنتظر اذن؟ قابل الرئيس ووسّطه في تحديد مقابلة لك مع ذلك المسؤول». فتتساءل ما مبرر كل هذا الجفاء والاختفاء والازدراء من بعض؟ تجيئك الحكمة «الله غالب!» ولكن ينفض وعثاء ازورار هذا النفر تلطف نفر آخرين، كان منهم لحسن حظنا اخونا عبد القادر. لحسن حظنا، لانه كان مدير الادارة العربية بوزارة الخارجية وما اصوبه من اختيار.

ادر قرص الهاتف واطلبه في اي وقت، فلن يعتذر معتذر عنه لغياب او انشغال، فهو حاضر دائماً وكأنه كان بانتظارك. اما اذا كان غائباً بحق في مهمة، فهو الذي يبادرك بالاتصال فور عودته يكفيك عناء الانتظار او المعاودة او الارتياب في انه هو الآخر يجرب طاقية الاخفاء. واذا دعوته لبّى، لا كمن يؤدي واجب المجاملة بشرود ذهن، ولكن في اقبال منشرح للقاء. واذا سامرك فاخ لأخيه، لا تحفظ او تحسس او توجس، ينتقد ويتقبل، يتفق ويختلف، بغض النظر عن المواقف الرسمية، حيث كلاكما واقف تحت نفس العلم، لا علمك ولا علمه الخاص، بل علم العروبة الواحد الذي قد يكون في مستقبل وان نأى علم كليكما. يكفي مؤقتاً احساس مشترك بخفقانه الرائع في الجوانح. ثم إذا به آخر منصرف. تودعه الوداع الحميم. تودع فيه الاخ الكريم وقد استودعك بضعة منه، افكاراً ومشاعر، في مودة وصدق اخاء.

تقصده ناقماً في امر، يقابل نقمتك بابتسامة اشفاق متفهم ـ ان كنت على حق او خطأ ـ بأكثر من حسن التخلص الدبلوماسي. يستمع اليك في إناة وصبر ودماثة. لا يسترضيك بعذر كاذب او تطمين أجوف. يسألك بواقعية «اكنت تتوقع ان تجد في وطنك هذا غير ما في وطنك ذاك؟ الحال بعضه هنا يا اخي يشبه بعضه هناك بزيادة او نقصان. فاستبق بعض نقمتك للشكوى القادمة ام حسبت هذه هي المرة الاخيرة، انك لمتفائل». تضحك. هكذا يستبدل عبوسك بابتسام. يستل بالصدق الذي في عينيه، والصراحة التي في وجهه، والبسمة التي على شفتيه، والتواضع الذي يأسرك فيه، كل موجدة حتى قبل ان تلج في الامر. واذا بكما انتقلتما الى شيء آخر اقل خصوصية وحساسية واكثر ودية. على انه لا يهمل امرك او يطمره بالكلمات الناعمة. انت واثق انه سيتدبره بحكمته او همته فور انصرافك ان لم يكن قبل ذاك. فهو حريص على حسن ظنك ورضاك حريص على اسم بلاده الغالي. ولذاك فهو ناصرك ظالماً او مظلوماً. فهو مهتم، جد مهتم، بأن يريك بتلطفه من جزائره الحبيبة وجهها البشوش. بل كان هو نفسه بعض بشاشة ذاك الوجه الكريم..

نتسامر في صفاء. اسأله في حذر: هل لاسم «قاسي» دلالة ما؟ يوضح لي «بل حذفنا منه ميماً ـ طريقتنا التقليدية في نطقه ـ وما من قسوة ان كنت تعني ذلك». نضحك. اسأله للعلم بالشيء وحسب: كيف ثمة مسيحيون في بلاد القبائل يا عبد القادر؟ يرد: وهل أعز الاسلام مثل القبائل؟ لئن كانت فعلى الاصابع... مسيحية كولونيالية غربية استعانت بقهر الاحتلال وذلة المقهور وما هي بأصيلة، تاريخية، نابعة من الذات كحال التي في المشرق ـ غالباً ما جاءت بتبني «الآباء البيض» لغلام هائم دون كنف، او مستضعف دون عائل. فهو اذن الانتهاز والاستغفال بأكثر من التنافس المتكافئ الحر، وهو الخطف والاستيلاء بقناع رحمة زائف. ومع ذلك اليك واقعة ذات دلالة. حدث ان تبنى احد المستعمرين غلاماً قبائلياً أجبره على اعتناق دينه، ولقنه ما حلا له، واطمأن على الانجاز، وانتهى بتسجيل أملاكه له. ذات مرة، بعد مضي سنوات طويلة، دخل الرجل مصلاّه، فاذا ربيبه ووريثه يصلي خفية صلاة أهليه المغلوبين على امرهم قياماً وركوعاً وسجوداً. غامت عينا الفرنسي. شكا الربيب الآبق للمحكمة مطالباً برد أملاكه اليه. قال الربيب الماكر: لا مانع لدي من رد أملاكه اليه، ولكن شريطة ان يصلي ورائي صلاتي بعدد السنوات التي اجبرني على ان اصلي وراءه صلاته.

اسأله: لماذا لم تتزوج حتى الآن يا اخي عبد القادر؟ يقول مر الوقت ولم اشعر به رغم الحاح الوالدة، ولكنني فاعل عامي القادم ان شاء الله. اتمنى له ان تتم فرحته بالخير، اذ يستأهل كل خير. نضحك.

يحدثني بمحبة ووفاء عن اصدقائه السودانيين الذين آخاهم في الامم المتحدة. يقول: «كنت استمع عندهم لاغاني علاء الدين حمزة. هل تصدق انني تعرفت على كلمات كثيرة في اغانيه النوبية لها نفس المعنى او قريبه في لغتنا القبائلية؟». نقلت ملاحظته لسوداني نوبي كان بالجزائر. اكدها وأسرّ لي انه يضمر القيام بدراسة في ذلك. ليته فعل.

آخر ما علمت عنه اختياره سفيراً للجزائر في سوريا التي تلقى تعليمه فيها. قلت مثله يصلح سفيراً للعرب جميعهم في اي مكان. نويت ان افاجئه بتنويه عنه في صحيفة عربية حتى يعرف اي أثر يترك في النفس أعمق مما خطر له يوماً ببال. كلمات تخبره صادقة بأن سجاياه السمحة، واخلاصه لوطنه وللعروبة، تتحدث عنه من وراء ظهره ـ ما ورد اسمه في محفل ـ وهو لا يدري. كلمات تؤكد له ان مكارم اخلاقه لا تمر محاسنها وحسناتها دون ان ترمقها عين منصف، وان لم تتبرج عمداً لذلك في استعراض او احساس بالذات. لكنني اسفاه تأخرت كعادتي المذمومة، ما كنت أتحسب انه ذاهب سريعاً هكذا، قبل ان اسره بمفاجأتي التي هي شهادة حق.

عوض مفاجأته بثنائي عليه للملأ، انموذجاً للعربي الجديد الملتزم في تسام، وللدبلوماسي العربي المتمثل هموم امته قاطبة في الصميم، فاجأتني «اليوم السابع» بنبأ غيابه الذي ما عودنا إياه. فاذا الفقد فيه جد جسيم وجد اليم، لا للجزائر وحدها ـ أمة الطيبة الولود ـ فنعزيها فيه، ولكن للعروبة جمعاء، وللمناقب السامية، وللهمة والاخاء، وللأمل المتجسد فيه. حقاً فقدنا فيه واحداً منا، عزيزاً لدينا، الفيته منذ ان لقيته جديراً بالمحبة، جديراً بالاحترام □

«... اين تراه الفتى الفلسطيني الذي رمى بالمسطرة والفرجار، والحاسبة والمنظار ليحمل على زنده «الكلاشنكوف» دفاعاً عن وجود اهليه ووجود المقاومة؟ اتراه يتقن الضرب بالذخيرة الحية كما اتقن الضرب بالارقام؟ اتراه يستقبل الموت بنفس البشاشة التي استقبل بها ضيفيه داكني البشرة من اقاصي دار فور؟...»

ـ اهلا وسهلا.. تفضلوا!

ثلاثة طلاب جامعيين. قال اثنان انهما وصلا حديثاً لهذا البلد العربي بعدما خاب املهما في الدراسة باسبانيا. المعلومات التي حدت بهما لمقصدهما لم تكن امينة، لذا اتيا بحثاً عن فرصة افضل، ولن يعودا للسودان بالخيبة. داكنا البشرة كما نحن، نحيلان في غير اضمحلال، طويلان طولا يلاحظ. قلت لنفسي اغلب الظن انهما من اهلك «المساليت» في غرب وطنك. اما ثالثهما فقصير، جعله كذلك باكثر من حقيقته طول زميليه غير العادي، وببشرة واضحة. سألته: من أية مدينة سودانية انت؟ اجاب بل انا فلسطيني ـ لتراه قال من «غزة» ايضاً فلا استيقن الآن. يدرس الهندسة واسمه «زياد». لا نسمي في السودان «زياداً» لا ادري لماذا. ما زاد «زياد» على ذلك وما استزدته. جاء يصحب زميليه. دعوت ثلاثتهم للغداء بمنزلي الغداة فتقبلا وصمت.

جاؤوا ثلاثة ولكن عوض «زياد» جاء طالب فلسطيني آخر لا اذكر عنه شيئاً ذا بال. استفسرتهما لماذا لم يحضر معكم زميل الامس ايضاً. ذكروا انه اعتذر خشية ان يسيء التنظيم الذي ينتمي اليه الظن ان علم انه لبى دعوة سفير. لم اسألهم لاي تنظيم ينتمي فما عناني ذلك. ولكنني علقت بانني لا اظن ان نظام النميري حتى لو اراد، بقادر على دفع سفرائه مهما بلغ بهم الاذعان، لتخريب العمل الفلسطيني، او التجسس عليه، أو التدخل فيه، او انه ينشغل بذلك. بل هو يعي ان جلهم، ان لم يكونوا كلهم، لن ينفذ له امراً كهذا، ولن يتقبلوه، ولن يكتموه. وهذه دعوة ـ على اية حال ـ للغداء لا للاستخبار، فان كان ضمير زميلكم اكثر طمانينة بدونها فالامر له والبيت من بعد بيتكم. على انني سألت الطالبين السودانيين لماذا حملاه على المجيء بالامس ان كان موسوساً بهذا القدر. ردا: لم يكن بد من الاستعانة به فهما ضيفاه. أثارا فضولي... وكيف صارا ضيفيه؟

حين وصلا لتوهما قصدا السكن الجامعي بحثاً عن مأوى. استوقفا أول طالب لقياه يستقصيانه وكان بالصدفة السعيدة هو. طمانهما ان لا عليكما وهيا معي فلا مشكلة. اخذهما الى غرفته الطلابية الخاصة، وهي كما غرف الطلاب صغيرة في العادة. صغيرة كانت غرفته ولكن الذي وسعهما كان قلبه الكبير. لقد في حينه حلا تحملت به الغرفة الصغيرة ثلاثتهما على حساب راحته الخاصة وهدوئه. فالذي ينشرح لحل مشكلة يحلها مهما بدت عسيرة، والذي يحب سواه ينتقص لسواه من ذات نفسه. هكذا تولى الطالب المسمى «زياد» ـ وما عنيت بان اسأل عن اسمه الكامل ـ امرهما باقبال وهمة. قدم لهما من جيبه بطاقات المطعم الجامعي، ثم اطلعهما ـ كما عرفاني ـ على المكان الذي يخبيء فيه نقوده حتى اذا احتاجا لشيء في غيابه، اخذا ما يريدان دون تلفت او اضطرار لانتظاره او استئذانه فالمال مالهم. وحين خطر لهما زيارتي ترك العمل الذي بين يديه وصحبهما. اما الدعوة فشيء آخر اوجد لاصطحابهما اليها آخر، زميله الذي تكرم بالحضور.

سألتهما: وكم انفق عليكما حتى الآن هذا الولد الفلسطيني الشهم؟ ذكرا رقماً بالتقريب. قلت لهما انا اولى به. تناولت بطاقة باسمي كتبت عليها كلمات تشيد بمروءته. لعلني طلبت منه الا يعد ذلك انتقاصاً منه أو تسديد حساب، فالطالب مهما كان لديه، يظل محتاجاً الى عون ابيه أو اخيه الاكبر، فليعتبرني واحداً من هذين. ولكيلا يكون حرج، الزمت نفسي فقط بالرقم الذي قدره ضيفاه والفضل من بعد باق. اغلقت المظروف على بطاقتي والدنانير وطلبت اداء الرسالة اليه.

قصداني في اليوم التالي يردان المبلغ فقد رفض استلامه. في قصاصة مرفقة شكرني مؤكداً ان كلماتي تكفيه ولكنه سيحتفظ دائماً ببطاقتي معتزاً. دفعت اليه بقلم يليق راجياً قبوله هدية رمزية. بعدها غادرت ذلك البلد بلداً فترة جديدة ألهتني بمشاغلها.

ذات يوم طرق بابي طالب سوداني يدرس في ذلك البلد، لامر يخصه. خلال المحادثة سألته عن مصير ذينك الطالبين السودانيين، وبالاستطراد مضيفهما الفلسطيني. اوضح لي ان الاجتياح الاسرائيلي للبنان وما عرض له الوجود الفلسطيني من خطر مهول، دفع به، وربما بآخرين، الى التوجه الى حيث المعركة تدور، انجاداً للاهل واداءاً لحق الوطن. لم يقل لي ان كان ذلك بمبادرة منه او باستدعاء له. حسب علمه ان الطالب الفلسطيني ـ وربما الآخرين ايضاً فهو غير واثق ـ اعتقل وهو يجتاز قطراً عربياً قبل التمكن من الوصول حيث المعركة مستعرة.

اقلقني مصير الفتى الشهم. سألت نفسي اتراه حين اعتقل عذب كما هو المعتاد؟ ولماذا اعتقل وهو ذاهب لقتال الاعداء لا قتال الاهل والاقرباء؟ اتراه أهين حين اعتقل كالمعتاد وهو الذي يحمل في مهجته نفساً عفة ابية؟ اتراهم عثروا في محفظته او متاعه المتقشف على بطاقتي التي عليها «صقر الجديان»، تشكره على همته ومروءته؟ اترى استجوبه مستنطق فج قدم في يديه جلافة وفي لسانه بذاءة كالمعتاد، عن سرّ علاقته الاكيدة بسفير دولة هي نفسها مطلوب القبض عليها، وعن الخدمات التي اعتاد ان يؤديها لذلك السفير وتلك الدولة او من هم وراءهما، بما استحق عليه الشكر والتقدير؟ اترى انتهره بفلاظة، ان: «اعترف قبل ان ننتزع من بين فكيك الحقيقة ومعها اسنانك ولسانك بالكلابة الحكومية وبتقنيتنا العالية؟» اترى مد ذلك المستجوب يده دون ان تقشعر ـ الى اماكن منه لا ينبغي لعين مهذبة لم يؤذن لها ان تنظر اليها، ناهيك من ان تمتد ـ سلكاً يتدافع فيه تيار كهربائي نشط مرح حتى يضطره مرغماً لكي يعترف بما لم يرتكب اصلاً، فاذا الفتى في حالتي الانكار والاعتراف محكوم عليه بالتنكيل؟ اتراه صفع وركل وجرح وادمى وهو يصرخ معلناً براءته «ما قلته لكم هو الحق كله ولا شيء سواه ولست اخفي شيئاً» وهم لا يصدقون ملوّحين بالبطاقة البريئة الواجمة في اعتذار امام عينيه ويزجرونه «اعلينا نحن هذا يا ابن الكذا؟ وما تكون هذه اذن؟ بل انت كذاب مدرب على الكذب لا اكثر». فاذا بالبطاقة التي ادخلت ذات يوم المسرة والرضا والاعتزاز في القلب تنقلب شاهد اتهام برغمها، تنتقل من يد الى يد، ومن تحت ضوء مصباح الى ضوء مصباح آخر، وقد صارت الدليل الدامغ على اتصال مشبوه، والمستمسك المادي على تعامل مريب؟

وطفقت اتساءل: اين تراه الآن يا رباه، فتى فلسطين الشهم الذي كان يحلم بالتخرج في امتياز مهندساً، والتزوج بفتاة لها قسمات فلسطين ورائحة برتقال يافا، وان يصير له طفل حلو يلثغ، ولكن نطقه يستوي ويستبين يوماً عن يوم كالامل الفلسطيني نفسه، وهو ينهض ويكبو ثم ينهض من جديد كالمقاومة الفلسطينية نفسها ـ أين تراه الآن وقد وضع فلسطين فوق هندسته، وفوق هنائه، وفوق مستقبله، وفوق حياته؟ أين تراه الفتى الفلسطيني الذي رمى بالمسطرة والفرجار، والحاسبة والمنظار، ليحمل على زنده «الكلاشينكوف» دفاعاً عن وجود أهليه ووجود المقاومة، وشرف شعبه وشرف أمته؟ أتراه يتقن الضرب بالذخيرة الحية كما اتقن الضرب بالارقام؟ اتراه يستقبل الموت بنفس البشاشة المرحبة التي استقبل بها ضيفيه داكني البشرة مديدي القامة من اقاصي دارفور؟ وهل سيدل المنية في أريحية على مستودع الروح في سويدائه بمثلما دل ضيفيه في أريحية على مستودع نقوده في غرفته ثم نام قرير العين؟ اتراه يتعفف عن السلب ـ ان اشار له ـ في حياء كما تعفف عن النقود التي قدمت له عوضاً عما انفق من مصروفه الشحيح على ابني سبيل غريبين مثله؟ اين تراه الآن، الولد الفلسطيني المنضبط كجندي يتباهى بانضباطه، الذي زارني في حياء وانصرف في حياء شيمة من احسن ابواه تهذيبه فاذا هو بذلك كروض نضير؟ يجلس متطامناً ـ ادباً لا غضاضة ـ حتى اذا دعا الواجب وثب غضنفراً لم يتردد او يعتذر او يتباطأ او يتخلف يا لله من الجود ومن الاقدام يفرحان ويجرحان.

ماذا استطيع فعله لمن احسن فعلاً؟ ثم العن عجزي والعن خذلان الاقربين وظلمهم. واذا بفتى كان برعم مهندس فلسطين يملأ بأريجه الواعد بالي. نسيت ملامح وجهه لا تتبين ذاكرتي الكليلة العليلة منها الا كما يتبين الركب ـ بلأي ـ واحة في السراب المتماوج في افق بعيد، ولا يتألق منه في بالي غير ان اسمه «زياد» وحسب، وانه كان يدرس الهندسة، وانه عضو مخلص لتنظيم حال بينه وبين دخول بيتي، وانه كان فتى شهماً ومتعففاً وعلى خلق رفيع، وانه بتر دراسته ليزج بنفسه في قلب الخطر حيث صبرا وشاتيلا، وان اخاً له نهض له في وجه ذلك، وانه بدل ان يجد نفسه اسير عدوه وجد نفسه اسير ابن عمه، والاسر هو الاسر.

وحيث تعذر عليّ استحضار ملامحه جعلته عصفوراً يعشق الحرية تتلاعب به مخالب قطة لعوب. او هو في قفص وراء القضبان يخبط بجناحيه الداميتين الحديد يتطاير منه ريشه المخضب بنقط من دمه. وانا لا اعرف كيف انتزعه من مخالب تلك القطة او من بين تلك القضبان. يداي واجمتان وانا بلا جدوى، بينما كان الفتى العزيز في مكان خلي موصد حصين، يهان ويصفع ويركل ويسب ويبصق عليه وربما ـ من ادراني ـ يقتل بعيداً عن اعين العرب وضمير الانسانية، وهو في طريقه ليفلتك قومه من القضبان وينقذ شعبه من الهوان. وخيّل لي انني شاركت فيما صبّ عليه، على نحو ما، بعجزي وقلة حيلتي وهواني في عين أسريه ومعذبيه.

وخلال ذلك كان يصغر ويكبر. يصغر اذ بالكاد بلغ العشرين أو تعداها، ما اتم دراسته بعد، وما بدأ عطاءه الحقيقي بعد، وما ذاق فرحة زفافه بعد، وما تلمظ بعد حلاوة ان يكون له طفل حلو يلثغ كالامل الفلسطيني.

وتارة اخرى يكبر في نظري بما اعطى سلفاً، وما أعطى سلفاً في حسباني كثير وكبير. صغير وكبير معاً. اذن كان ذلك الفتى الفلسطيني «زياد». صغيراً بسني عمره القليلة نسبياً في الحياة، كبيراً بمقدار اعماله الكبيرة في الحياة.

ومن حين لحين رغم مضي الزمن وتواتر الاحداث، تبرق في خاطري ذكرى فتى فلسطيني، قدمته لي شهامته ومروءته، وحال دون معرفة باكثر التزامه بما رآه الواجب. كان فلسطينياً، وكان اسمه «زياداً»، وكان يتعلم الهندسة، وكان شهماً وشجاعاً وكريماً في اليسر والعسر ان الكرام قليل. فلاعلق هذه الكلمات نوطاً للفداء الذي هو التعبير الاسمى للعطاء، ونوطاً للسخاء الذي لا يند الا عن شجاعة ـ نوطاً في موضع القلب منه، القلب الذي يخفق بالشجاعة والكرم، نوطاً يتلألأ على صدره حيثما كان كما يتلألأ «بالاقصى» و«القيامة» صدر فلسطين، ابناً لها جديراً بالاحترام ■

«علمني «باتريك» في صمت بليغ وتواضع بالغ، درسا لا انساه. كان ذلك في الباخرة النيلية، وفي قطار «العتمور» في اشق ظروف الطبيعة ووسائل السفر. علمني كيف يظل الانسان عظيما في ظروف لا يرضاها انسان لنفسه الا اذا كان في وئام تام مع النفس.

كان ذلك في الستينات، في الباخرة النيلية بين الشلال وحلفا على الحدود المصرية السودانية. كان يحلو لي الذهاب من وقت لآخر الى «الصندل» الملحق بالباخرة، وهو ارخص مكان للسفر فيها لانه الاقل راحة للمسافر: ارضية عارية، من الحديد الصلب وما من سقف يقال عليه. كنت اذهب لاتصنت لهجة بدونا الراجعين لوطنهم بعد ان باعوا جمالهم بمصر ـ جلهم من عرب «الرشايدة» وان كان بينهم «هواوير» و«كبابيش».

لفت نظري في ركن منفرد اربعة من البيض واحدة منهم امراة. كانوا يفترشون اعداداً قديمة من «التايمز» اللندنية، حواليهم علب المحفوظات، ياكلون او يقراون أو يسمرون. ما شغلت نفسي بهم. على انهم في مرة راوا الاستعانة بي لاترجم عنهم للوكيل السفري راجين السماح لهم بشراء خبز من مطعم الباخرة، فقد كان سوق الشلال مقفلاً بسبب العيد. قال لهم: «عليكم بمطعم الباخرة نحن لا نبيع الخبز». اعتذروا بأن المطعم فوق استطاعتهم. سألني: «اصادقون هم؟». قلت: «هذا ما اشعر به». قال: «في هذه الحالة ساعطيهم من الفائض الذي يتبقى عادة ولكن بلا مقابل فهو خبز الحكومة وممنوع علينا بيعه». لم استغرب امانة قريبي النوبي ولا توخيه حرفية القانون أوحسن تفهمه وتصرفه برغم ذلك، وان استغربوا هم ذلك. شكروه وشكروني، لا سيما وقد تنازلت لهم عن حلوى فاخرة اهدانيها صديقي المصري وهو يودعني في باب الحديد، فقد خفت ان تذيبها في امتعتي حرارة صحراء العتمور، وما ادراك ما حرارة صحراء العتمور!

في القطار السوداني بمدينة حلفا القديمة قبل ان تغمرها مياه بحيرة النوبه (بحيرة ناصر) استقلوا الدرجة الدنيا: مقاعد خشبية عارية، وغبار ناعم متهاطل كالدقيق وحر خانق وسموم لافحة ـ القطار كسفّود يشق لظى الصحراء. المحطات بلا اسماء بلا ارقام، مجرد قباب بيضاء ليس فيها غير اثنين او ثلاثة في قلب اللامكان.

في ذلك التنور الرهيب كنت اقصدهم مجالساً ومؤانساً. احدهم يقرا في انهماك كتاباً من سلسلة «بنغوين» الانكليزية المشهورة. الكتاب يحكي سيرة مؤلفه وتطورها من دبلوماسي في خدمة النظام العنصري الأبيض بجنوب افريقيا. نشأ منذ طفولته على الايمان بمقولاته العنصرية، عاملاً في الادارة القانونية بوزارة خارجيته يدبج التبريرات القانونية لوفد نظامه في الامم المتحدة، فممثلاً للنظام في الخارج مكيناً في معتقده العنصري وتحاشيه للسود وشعوره بالانتماء الى شعب مختار متفوق، حتى قابل من ازال له الغشاوة عن عينيه بعد فترة من تمحيص الضمير واعمال الفكر تحت ضوء جديد من البصيرة والحكمة، حزم امره بعد تردد. استقال من وظيفته الوثيرة وانضم الى حزب الأحرار المناوىء للحزب القومي الحاكم، حزب التعصب الافريكاني والتطرف العنصري...

يبسط المؤلف في كتابه باقتدار مكين قوانين الميز العنصري واحداً اثر الآخر بكل بشاعتها وسخفها وجورها وعنتها. يسرد تجربته الخاصة في استلال الضلالة العنصرية من وجدانه ومحاولة التقرب من اخوته السود، واستجابات هؤلاء سلباً او ايجاباً بما في ذلك عنصرية مضادة من بعض الى حد الاهانة الشخصية. وكيف مثل حزبه في مؤتمر شعوب افريقيا بتونس وتقبل المؤتمرين له كأفريقي مثلهم على حد سواء. وكيف نظم في لندن حملة المقاطعة الاقتصادية للنظام الذي خرج عليه، نظام اهليه الحمقى.

ويحكي كيف هرب من بلاده ملاحقاً مطلوباً وحياته في خطر، وكيف وصم بخيانة وطنه ومواطنيه العنصريين، كل ذلك بأسلوب ناضر وبيان مواتٍ ومعرفة محيطه وحجة دامغة. الكتاب بعنوان «الارض الآثمة» والمؤلف اسمه «باتريك فان رنزبيرج».

قال لي احد الشقيقين من رفاق الرحلة الاربعة، وفي صوت الشاب الايرلندي رنة اعجاب وحماسة «ها امامك مؤلف الكتاب نفسه، بلحمه ودمه، هذا الجالس قبالتك هو باتريك فان رنزبيرج»!

الدبلوماسي والممثل السابق لاغنى واكبر واشر دولة على ارض القارة الافريقية، تلك التي ينص دستورها بتنطع على سيادة عنصر على غيره وحقارة سواه، والتي تتحدى بوقاحة مواثيق الانسان وجوهر المسيحية السمحاء، الدبلوماسي المنحدر من الامة الافريكانية بكل خزعبلاتها العرقية والدينية، شعب الله المختار... الموعود بالأرض... ها هو قبالتي، قبالتي، في ضجيج القطار السوداني المنطلق كسهم يغور في احشاء الحريق الصحراوي، مغربلاً ركابه يمنة ويسرة بلا رحمة. قبالتي ـ طمره الغبار الناعم كالدقيق المتهاطل بلا توقف متسللاً في الحالتين اغلقت النوافذ خشباً وزجاجاً ام تركتها ينفخ بها الجحيم. قبالتي، شواه قيظ العتمور وصهده الجهنمي حيث الشمس المدارية تتنزل بكل جلالها والسراب يترجرج ميعة حيثما نظرت ـ قبالتي، على اخشاب مقاعد تلك الدرجة الشعبية وفي لغط المسافرين بسحنهم الداكنة وزحامهم وتدافعهم. قبالتي، بوجهه حريق مشبوب، وعلى شعر رأسه واهدابه وشاربه ولحيته وساعديه وفي ثيابه غبار، وفي حلقه اوار، ومع ذلك فهو لا يتأنف أو يشكو حتى كأهل البلد انفسهم.

سألته واثباً: «انت هو هو باتريك فان رنزبيرج نفس مؤلف هذا الكتاب؟» رد مبتسماً، ابتسامة حيية واهنة، شيمة من تعدى طور تهنئة النفس الى التواضع الزاهد، ولم لا؟ بلى كتبته». قلت له «ما كل يوم يلتقي الواحد منا في حياته بمؤلف، ومؤلف لكتاب كهذا، او بممثل سابق لنظام عنصري نفض يديه منه في احترام للذات وللحق ليجد نفسه في درجة دنيا من قطار افريقي وسط افريقيين سود. انه لشرف عظيم لي ولبلادي. فلأعتذر لك باسمها وباسم شعبها الذي يحب البطولة عن هذا الاستقبال الذي لا يليق».

عرضت عليه وعلى خطيبته الضيافة في بيتنا معتذراً عن تواضعه. قبل شاكراً ومسروراً. دبرت لرفيقي رحلته الايرلنديين ضيافة مماثلة بجامعة الخرطوم اعتبراها هدية من السماء وبعضهم بجاه الملوك يلوك.

احاطت الوالدة عليها مغفرة ربها «باتريك» وخطيبته بالبشاشة والعناية كما هو دابها وزادت. كانت تجالسهما وتستمع وتسأل عما يجري هناك بانتباه. بقيا معنا ريثما اتم «باتريك» اتصالاته بالخرطوم، ثم عهدت به الى طلاب جنوبيين كانوا في القطار المتجه الى اقليمهم المتاخم لخط الاستواء. عرفتهم بهما وأوصيتهم عليهما وكان هناك من يعد لهما استقبالاً لائقاً. ظلا في عناية اهل السودان لم تتخل عنهما حتى اوصلتهما على افضل ما يتاح حتى العاصمة اليوغندية.

كتب لي «باتريك» انه اسس مدرسة ثانوية للطلاب من كل الاجناس في «بتسوانا». هناك تزوج خطيبته التي كانت ضيفتنا معه. وانقطع ما بيننا حتى التقيت به صدفة في شارع بلندن وكان لقاؤنا حميماً على قصره فقد كان متجهاً لفوره الى الدنمارك لمؤتمر حول مقاطعة النظام الأبيض العنصري. دائماً في سبيل القضية، قضية الحق والعدل.

علمني «باتريك» في صمت بليغ وتواضع بالغ ودون ان يقصد، درساً لن انساه. في الباخرة النيلية وفراشه صحف قديمة على الحديد القاسي، وفي قطار «العتمور» في اشق ظروف الطبيعة ووسائل السفر، علمني كيف يظل الانسان عظيماً في ظروف لا يرضاها انسان مثله لنفسه الا ان كان في وئام تام مع النفس وبطمأنينة بل وغبطة في الضمير. كان وهو الافريكاني الأبيض يجتاز بلادي وكأنه خفقة حب في جوانح افريقيا، في القلب منها. كان بين اخوته السود اكثر اماناً واطمئناناً وأينع انسانية مما كان عليه في موطنه الابيض وبين بني جلدته المذعورين في وهم انانيتهم المسلحة. كان بشرياً بين بشريين مثله مهما تباينت السحن والقسمات ما اختلف فيهم الجوهر الانساني. لم تكن له عليهم ميزة بعرف متوارث أو قانون مفروض، ولكنهم ميزوه عليهم طواعية بما تنازل من حظوة مغتصبة لينال عنها حظوة مستحقة. فكشفت له هذه ـ لفرحته الحقيقية ـ بان المخاطرة في سبيل الحق لا تهلك أو تخسر أو تخزى، ولكنها تقي وترتقي بالمرء وتجزي. وأن التقهقر امام هيبة الحق لا يعني الاندحار أو الخسارة، بل هو الانتصار الحقيقي الذي يجعل حياة التقهقر امام هيبة الحق لا يعني الاندحار أو الخسارة، بل هو الانتصار الحقيقي الذي يجعل حياة المرء تكتسب نضارة ما عرفتها ايام غضارة العيش ورغده. فصار بذلك انساناً جديداً، حراً.

لذا احييك تحية مفعمة بالحب الاخوي يا «باتريك فان رنزبيرج»، رجلاً شجاعاً لم ينكص امام الحق حين تجلى له، ولم يتهيب التضحية حين اهابت به، ولم يشح عن الواجب حين دعاه، فأقدم في جسارة على الفعل المقدام، متحملاً تبعاته الجسام. تحية افريقي اسود لافريقي ابيض لا فرق بين الاخوين. تحية رجل يعرف اقدار الرجال لآخر عظيم القدر حتى وهو في ادنى حال، بما نافح عن الحق والحرية والمساواة، وبما كافح عن مستقبل وضيء بالاخاء والوئام واحترام الكرامة الانسانية وبمراعاة حقوق الآخرين وان عنى ذلك انتقاصاً من حق الذات. ثم شكراً على الدرس الذي اهديتنيه بالفعل لا بالقول. العظيم عظيم بفضيلته قبل ان يكون عظيماً بالمقام. وعظيم النفس بالفضيلة يستبقي عظمته فلا ينال منها خصب أو امحال. عندئذ لا تقاس قيمة المرء الحقيقية بمقدار نجاحه اوفشله في الحياة، بمقياس مادي، ولكن بمقدار تاثيره في نفوس الآخرين، ومحاولته تغيير الواقع للأفضل. تحية لك يا «باتريك فان رنزبيرج» رجلاً جديراً بالاحترام...□

«... كان دكتور كولينز مسيحياً، لكن يده ممدودة في غير غرض الى من ليس في دينه. كان داعية لدينه ولكن من غير تعصب ضد مخالفيه ومنافسيه. كان تجسيداً لما في المسيحية من سماحة، ولما في الانسانية من ترفع...»

■ اميركي كان معلماً للانكليزية والادب الانكليزي خلال الستينات بكلية في غرب افريقيا. كان اكثر من مجرد معلم. كان «مبشراً» بعثت به كنيسته ليدعو لها او للمسيحية. التقيت به في مؤتمر للغات الافريقية رعته مؤسسة «فورد»، اقيم بجامعة «فورا باي» بعاصمة سيراليون ـ فريتاون. كنت موفداً ـ ضمن وفد ارسلته جامعة غانا ـ من معهد الدراسات الافريقية بليقون قرب «اكرا»، لأقدم ورقة حول «اللغة العربية: ماضياً ومستقبلاً في افريقيا». اما هو، فقد جاء لاحدى ندوتين تقامان على هامش المؤتمر: احداهما عن تدريس الفرنسية والاخرى عن تدريس الانكليزية بافريقيا. ترددت في الذهاب ولكن مدير معهد الدراسات الافريقية ـ توماس هودجكن ـ من حكمته وامانته حيال العلم وافريقيا بما ادى لخدمته للعربية والاسلام قال لي بحزم: «ستعرف جدوى وجودك هناك حين تكون هناك. اذهب ولا تعتذر» فهمت هناك ما قصد.

اكتشفت كلانا ـ دكتور كولينز وانا ـ في الآخر حباً لشعراء بعينهم على رأسهم «والت ويتمان»، مما ينم عن مزاج مشترك. انتهز صداقته الجديدة معي ليصارحني بألاّ مكان لي في المؤتمر فانا غريب عليه تماماً، اذ العربية ليست لغة افريقية. كان ذلك قبل تاسيس منظمة الوحدة الافريقية التي تبنت العربية بعد صراع ساخن ومناورات، لغة رسمية واسهم في تحقيق ذلك تدخل ذكي من عبد الناصر. قلت له «أيّنا، لو انصفت، الذي لا مكان له في هذا المؤتمر الافريقي، هل هو انا الافريقي الاسود بلغتي التي رضعتها من ثدي امي، ام انت القادم من وراء البحار بلغة يبقيها السلاح والتسلط ويمنع ما عداها؟».

تخاصمنا في امور شتى، منها موقف بلاده اميركا من قضايا تحرير القارة ومساندتها انظمة التسلط الاستعماري او العنصري بينما ظل هو يخيفني من روسيا بحسبانها خطراً اكبر ولم يبرهن لي كيف. عاد بعد تفاد لي قائلاً وكانه اكتشف حقيقة كبرى: «بامكاننا ان نظل صديقين حتى لو اختلفنا في الراي أليس كذلك؟» اجبته: «هذا ما كنت اراه وانت الذي انصرفت عني متهماً اياي بعدم الفهم وربما التخلف العقلي. على اية، مرحباً بك صديقاً اميركياً لما فيك من فضيلة انسانية وليس لما لبلادك من حكمة سياسية».

اقترح ان ننحدر من مرتفع «فورا باي» الى مدينة «فريتاون» مشياً على الاقدام. رحبت بالفكرة وشرعنا فيها. انعطفنا في الطريق نشتري بعض الدخان. متجر صغير منعزل لا يكاد يستبان مضاء بمصباح زيت اعشى. صاحب المتجر الشعبي المتواضع مقتعداً حصيراً على الارض امامه تخت واطيء وهو منكب ينقل اسطراً من كتاب امامه الى كراسة في استغراق تام. كان يكتب من اليمين الى اليسار. يكتب العربية. هتفت: ها هي العربية التي استنكرت يا دكتور كولينز حضورها لمؤتمركم. ها هي في الطريق العام في جوانح افريقيا، على مرمى حجر من خليج غينيا. هذه الحقيقة تصرخ في الشارع الافريقي اذ انكرتموها في قاعاتكم. (وهناك قصيدة في ديواني الشعري «غضبة الهَبَباي» تشير الى هذه الحادثة..).

لقد قلت لكم اننا عثرنا على المخطوطات العربية حتى في «اكرا» وساحل الاطلسي من هذه الجهة. وان البحاثة «ايفور ويلكس» اكتشف ان دولة «الاشانتي» في القرن السابع عشر كانت تتراسل مع الدانماركيين الذين نزلوا بساحل الذهب باللغة العربية. وان طبل حرب «الاسانتي هيني» ـ ملك ملوك ـ الاشانتي كانت عليه تعويذات اسلامية بالعربية مما فسره «ايفور ويلكس» انه كان في طريقه لاعتناق الاسلام هو وأمته لولا دخول الرجل الابيض الاوروبي. وانه كانت في شمال ساحل العاج مثابة للعلوم الاسلامية لا تضاهيها في ذلك الا «تمبكتو» يقصدها طلاب العلم من كل صوب. وان الحاج عمر بن ابي بكر الكبوي الكنوي الصلفوي الذي طبعت له قصائده العشريات مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ووجدتها تباع بسور جامع ام درمان، اسس مدرسة لتعليم عروض الشعر العربي وعلوم العربية في ما هو غانا اليوم. وانه كتب بالعربية قصيدة اضافية يصف فيها توغل الاوروبيين من السنغال حتى حدود السودان النيلي اشار فيها الى اكثر من مائتي بلدة. ولقد ترجم الى الهوساوية معلقة امرىء القيس نقلها عن الهوساوية الى الانكليزية دون معرفة بالعربية تلميذه الانكليزي «رانتري» فاذا بالنص الانكليزي والاصل غير المباشر العربي لا يختلفان لولا باضافة تعبير «الدجاجة وصفارها» وبرجوعي الى العربية عرفت انها المرادف الهوساوي لكلمة «الثريا»، وان الحاج عمر رد بابيات شعرية على سؤال شعري من احد طلابه حول الكوكب ذي الذنب (مذنب هالي؟). وان الخط العربي كتبت به، في وقت، احدى عشرة لغة افريقية. هذا هو الاسلام الافريقي، والعربية الافريقية، فكيف لك ان تنكر وجودي في مؤتمر لغات افريقي، انا ابن افريقيا الذي بامكانه ان يرجع الى آدم فيها، على حين تبيحون لانفسكم هذا الحق وما انتم من افريقيا بشيء. للمسيح يا دكتور كولينز وصفه لمثل هذا المعيار المزدوج وانت اعرف بالانجيل مني. علق الرجل الطيب: «لا تفتح باب الخصام من جديد. دعنا نظل كما نحن اصدقاء ذلك افضل». قلت له: «ليكن لاسيما اذا كان الحق صديقاً لكلينا».

وصلني منه خطاب وانا في غانا، قال لي مررت عند عودتي بتجربة مثيرة بسببك. لا ادري ان علم زملائي المبشرون الآخرون بالرأي الذي رايته والموقف الذي اتخذته ماذا يحكمون به عليّ. انا نفسي لست على طمأنينة تامة من صوابه وسداده. كل هذا بسببك انت اذ كان لك تاثير كبير فيه. استغربت ان يكون لي دور في شيء لم اشرك فيه او اعلم به. اخذت اقرأ متلهفاً والخطاب بين اوراقي في السودان.

ذكر لي «في كليتنا طالب مسلم وحيد، الطالب المسلم الوحيد. دخل عليّ في غاية الاكتئاب منذ ايام. شكا لي ان بقية زملائه المسيحيين يسخرون منه ويهينونه بكونه مسلماً. هو لا يعرف عن اسلامه الاسمي شيئاً ولا يضيره بل يريحه ويغبطه ان يصير مثلهم مسيحياً حتى يتفادى السخرية والاهانة والعزلة على الاقل. ولكن شيئاً يعترض عزيمته ويثنيه. فهو ابن زعيم لعشيرة من «الماندينقو»، بل الابن الاوحد، فاذا ما خرج عن دين أبيه مات الاب في حينه غماً وحسرة، جاء طالباً النصح في حيرته والخروج من مأزقه. فاذا انا في حيرة ايضاً. فانا لا يسرني شيء مثل ان يعود ابن ضال ولكن ان اتحمل موت احد او تانيب ضمير انسان فهذا ما لم اكن على استعداد تام له، ولست على استعداد».

«هنا خطرت ببالي انت. فقد كنت المسلم المثقف الوحيد الذي تعارفت معه، والصديق المسلم الوحيد. فاذا بي اجد نفسي ازوده بنصيحة فيها مخرج له، وان لم اكن واثقاً تماماً من وجاهتها من ناحية دينية، ناهيك عما يحكم به زملائي الآخرون ولا اظنهم على القدر نفسه من التسامح. قلت له: اذهب يا ابني وتعرف على دينك، فاذا وجدت فيه ما يقنع تسلحت بذلك في وجه كل سخرية منك ومن دينك. اما اذا وجدته عارياً من ذلك وجدتَ في نفسك من القوة ما تواجه به اباك».

رددت عليه بانها نصيحة لا تصدر الا عن نزيه امين لا يخدم دينه بالتغرير بمن وثق بنصحه، او بانتهاز فرصة جهل او ضعف او غفلة لتحقيق ذلك. ذكرته بعبارة «كوليردج» التي صدر بها «تولستوي» خطاب رده على حرمان المجمع المقدس اياه من الكنيسة، ومفاد العبارة ان الذي يقدم المسيحية على الحقيقة، يخطو فيقدم طائفته او كنيسته على المسيحية، وينتهي بان يضع نفسه ومصلحته الخاصة فوق الجميع. اما من يبدأ بتقديم الحقيقة على المسيحية، فقد يفضي به ذلك الى المسيحية، ومنها الى طائفته او كنيسته وربما انتهى به الى ما فيه صالحه الخاص».

قلت: «ليقل رفقتك ما يقولون غير انني على يقين بان السيد المسيح في عليائه السماوية لا بد مستحسن هذا الموقف الأمين الذي لا يغش في النصح. ومهما يكن، فان الطرق الى الله شتى، وكل طريق برؤ من الغرض والاثرة وتوفي مخافة الله وخدمة عياله وحبهم على افضل ما علم الانسان وجهد في ذلك، لا بد ان ينتهي اليه».

تراسلنا زمناً، وحين قرأت نبأ استئصال الممثلة اليهودية القديمة «شيرلي تمبل بلاك» لورم سرطاني ذكرت انه المع لي مرة لصلة صداقة تربط بينها وبين اسرته فهنأتها على الشفاء وقد ردت شاكرة لي رسالتي، لقد تشفعت لذلك صداقتي معه.

كان دكتور كولينز مسيحياً ولكن يده ممدودة في غير غرض الى من ليس من دينه. كان داعية لدينه ولكن في غير تعصب ضد مخالفيه او منافسيه. كان مكرساً وقته وقلبه لذاك ولكن في تسامح واريحية. كان تجسيداً لما في المسيحية من سماحة ولما في الانسانية من ترفع... ووجدته من اجل ذلك رجلاً جديراً بالاحترام■

لم يخلف عبد العزيز اسحق لأهله ثروة غير الذكريات الرائعة والذكر الحميد. ونحن ايضاً نذكره بمحبة وامتنان، نذكره بما قدم لافريقيا من جهد وعون ساعة حاجتها، ونذكره لما قدم لأسرة حبيبنا الغالي باتريس لوممبا، ولاسيما باسمنا كعرب...

ساقدم لك ايها العزيز من هذا المكان، اناساً رايتهم جديرين باحترامي، بعضهم عرفته شخصياً وبعض سمعت او قرات عنه. وربما الذي حفز ذلك الاحترام كان شيئاً بسيطاً جداً، ولكن الذي يهتم بالشيء البسيط لا يضيع الشيء الكبير. تتفاوت الشخصيات التي رايت تقديمها ولكنها تلتقي في المأثرة والفضيلة.

□ □ □

كان المرحوم عبد العزيز اسحق استاذاً للأدب العربي بجامعة الخرطوم في الخمسينات. كان رجلاً هادئاً بابتسامة حيية تشوبها سخرية حبيسة. يضع على عينيه نظارات طبية يعلوها جبين مرتفع قوي يلفت النظر بشدة الى ذكاء حاد. تحسبه يتناول الاشياء باستخفاف، وما كان، يدخل قاعة الدرس بلا اوراق، يرتجل محاضرة في اسلوب خطابي مسترسل، كل جملة تند وكانها خبطة مطرقة قوية. ودائماً فيها شيء لاذع. يحدثنا عن كتاب «الادب الجاهلي» لطه حسين حين صدر الكتاب فأثار زوبعة «اهتزت شوارب الملك فؤاد. وخرج طلاب الازهر شاهرين السلاح الأحمر الا وهو المراكيب». تعرف انه ليس الاكاديمي المتجرد ولكنه رجل الموقف الملتزم، وما كان يصدر منه ما يدل على التزامه بشيء محدد. اهو مستخفف من اجل الاستخفاف؟ ما توصلنا الى شيء ولقد كانت حاسة شمّنا قوية. تثير احدى عباراته التي يلقيها من غير اكتراث مظاهرة ضده في ام درمان ظهيرة يوم جمعة. يستقبل طلابه في اليوم التالي بنفس هدوئه المعتاد وابتسامته الواهنة في غلالة سخريتها المموهة. يعلق «ما الذي احنقهم فيما قلت، هل افتريته انا؟ ليرجعوا اليه بنصه في الطبري». هو بالفعل هناك بالنص.

اختفي من الخرطوم ذات يوم. ظهر في رئاسة الجمهورية بالقاهرة مستشاراً لعبد الناصر في الشؤون الافريقية. هناك تجلت له مواهب واهتمامات ما عرفناها فيه من قبل. اخذ يذرع افريقيا طولاً وعرضاً فهو في كل بؤرة مستعرة او هدف خلف استعارها. القاهرة تعج بمكاتب حركات التحرير الافريقية - عينها التي صارت فيما بعد الاحزاب الحاكمة - ولعله كان المسؤول عنها، واليه يرجع ذلك الاعتراف بالجميل الذي تحس به حتى اليوم لدى العديد من بلاد افريقيا نحو ابن افريقيا الكبير عبد الناصر. ثم سمعنا في الخرطوم ان عبد العزيز اسحق ظهر في جنوب افريقيا وانه طرد منها. ثم انقطعت اخباره.

في باريس قابلت جوليانا بنت باتريس لوممبا. كبر الاشبال صاروا كابيهم، او لا اعرفه ذاك الزئير؟ حكت لي بعربية مصرية، لا لكنة فيها او تلجلج، كيف ان والدها البطل حين شعر بالخطر يطبق عليه من كل جانب طلب من عبد الناصر ان ياخذ بعيداً عنه طفليه: جوليانا وفرنسوا. اخرج الطفلين من بيت رئيس الوزراء الشرعي، بيته المحاصر، تحت اكوام صناديق الزجاجات الفارغة. اخرجا سراً والخوف يكاد يقتل الطفلين. كلف عبد الناصر قائد الكتيبة المصرية من «ليوبولدفيل» - وكان الشاذلي - بتهريب الطفلين وان يفتح النار اذا حاول اعتراضهما معترض. وصل الطفلان الامان في القاهرة. آخر مرة يريان فيها اباهما البطل. نزلا عند اسرة مصرية كريمة صارت اسرتهما. اسرة عبد العزيز اسحق.

حدثتني بنت لوممبا: نشأنا في كنف «بابا» عبد العزيز وزوجه الفضلى، وكنا نسميها ايضاً «ماما». ترعرعنا مع اولادهما كأولادهما. كنا جميعاً على جانب كبير من «الشقاوة»، ولكن ماكانا يبديان غير التحمل والعطف والحب وبين حين وحين يبديان الحزم الضروري فنزوي ونخاف. كنت واخي فرنسوا نظن ان لكل طفل ابوين احدهما ابيض والآخر اسود، وامّان واحدة بيضاء والاخرى سوداء. كانت تلك الأسرة المصرية اسرتنا.

ولما كان أهلنا «كاثوليك» فقد كانت «ماما» تأخذنا للكنيسة كل احد كما اعتدنا عند اهلنا، تنتظرنا في الخارج حتى ننتهي من الصلوات وتعيدنا للبيت. وفي ليلة عيد الميلاد تنتظرنا منتصف الليل في البرد حتى نهاية التراتيل الخاصة بالعيد، تنتظر في صبر حتى ننتهي فترجع بنا للبيت.

حين جاءت امي الحقيقية من «الكونغو» لاول مرة لم تجد ما ينقص التربية التي تلقيناها شيئاً يحزنها لبعدها عنا. في الواقع لم يقلقها غير، شيئين: عدم معرفتنا للغتها القبلية، وما كان هذا ذنب «ماما» المصرية، والشيء الثاني الذي هالها انها وجدتنا نأكل عشباً اخضر ونحبه بشراهة. صرخت ما هذا الحشيش الذي تأكلونه... انفجرت وفرنسوا ضاحكين. اتدري ما هو الحشيش الأخضر الذي استفظعت أكلنا له... ووجدته اشهى أكلة لنا ولا تزال... انه الملوخية!

ثم لا انسى يوم جاء «بابا» عبد العزيز ثائراً من الغضب. همس احدهم في رئاسة الجمهورية: «هذه فرصتك النادرة لتجعل من هذين الطفلين مسلمين». رد عليه «بابا» عبد العزيز «كيف تجرؤ على هذا القول؟ لقد استودعني اياهما ابوهما طفلين مسيحيين، فكيف اعيدهما له وقد جعلتهما من وراء ظهره وبلا اذن منه، مسلمين، انني لن أغدر به قط ولن أخون ثقته. حين يكبران لهما ان يقررا لنفسيهما ويختارا الدين الذي يروق لهما. لكنني لن استغل فرصة انهما امانة في عنقي لافعل فيهما ما ليس لي تخويل بفعله».

قالت لي «جوليانا» ولكننا كنا نصوم اياماً من رمضان تضامناً منا مع أسرتنا المصرية في صيامها دون ان يلزمنا احد بذلك. والحق، لقد علمنا «بابا» عبد العزيز ان نعتز بأصلنا، وبانتمائنا الافريقي، وان نحب وطننا ونحب افريقيا. كل هذا الفضل يرجع اليه. لقد كان «بابا» عبد العزيز رجلاً شريفاً عفيفاً، مات رقيق الحال حين اغتنى سواه. واعرف ان «ماما» بعد موته اضطرت لبيع بعض مقتنياتها. «ماما» تعمل الآن موظفة باذاعة بلد عربي. انني احبها حبي لامي الحقيقية. اما ربتني ورعتني وسهرت عليّ سهرها على اولادها؟

نعم، لم يخلف عبد العزيز اسحق لأهله ثروة وكان في مقدوره ولكنه خلف لهم الثروة الحقيقية التي لهم ان يعتزوا بها، الذكريات الرائعة والذكر الحميد.

ونحن ايضاً نذكره بمحبة وامتنان. نذكره بحسباننا طلبته في جامعة الخرطوم. ونذكره بما قدم لافريقيا من جهد وعون، ساعة حاجتها، بهمة وتفانٍ ووفاء وصمت. ونذكره لما قدم لاسرة حبيبنا الغالي باتريس لوممبا، لاسيما باسمنا كعرب. ونذكره لامثولة فذة في المروءة والخلق الرفيع. ولا يذهب العرف بين الله والناس.

اليك يا «ماما» - كما تسميك فتاة افريقية من بيت كريم - اليك اينما كنت. واليكم يا اولاد الراحل العزيز الاعزاء. تحية لكل أسرة مصرية من طراز رفيع، بما قدمت المعروف في صمت وتحملت تبعاته في تعفف ونكران ذات. وما انصفناكم حقكم بعد■

«هذا شعب كريمٌ لا يستحق ابداً ما حلّ به. كل لحظة من حياتي اكدت لي عملياً حسن رايي فيه وثقتي به. هل حكيت لك قصة الاعرابي معنا؟».

قالت لي شقيقتي «هذا شعب كريم لا يستحق ابداً ما حل به. كل لحظة من حياتي اكدت لي عملياً حسن رايي فيه وثقتي به. هل حكيت لك قصة الاعرابي معنا؟». قلت: اي اعرابي؟ قالت: من شرق السودان... قلت لا من شرقه ولا من غربه. حكتها لي:

«عقب انتفاضة اكتوبر عام ١٩٦٤ على الحكم العسكري، انتخبت كما تعلم النائبة الوحيدة بالبرلمان. ذات يوم جاءني بدوي من اقصى شرق البلاد ليقول لي «سمعنا انك محامية النساء وانا جئت لاوكلك عن نصيب زوجي في الارث. اخوتها استولوا عليه والقضية لا تسير في طريق الحق ولا اريد ان يستضعفوها. ارجو ان تردي لها حقها». قالت شقيقتي اهتممت بامر هذه المرأة، واتصلت برئيس القضاء الذي درس الامر واصدر تعليماته بشانه حتى بت في القضية بما رد للمرأة حقوقها.

ذات يوم جاءني زوجي الشهيد «الشفيع» من العمل وهو يضحك. سألته ماذا يضحكك، قال لي «زارني اليوم في اتحاد العمال صاحبك البدوي ليشكرك ويودعنا. اعطيته خمسة جنيهات يشتري بها زاداً للطريق. على انني رايت المبلغ قليلا ففكرت في حيلة ازيده له بها. اعطيته خمسة اخرى وقلت له حينما تصل، اذا وجدت نعجة مناسبة اشترها لنا ولكن لا تشغل نفسك بذلك». ضحكنا معاً ونسيت الأمر في ساعته. وازددت له نسياناً بمرور الزمن، وتوالي الاحداث والمصائب.

عام ١٩٦٩ جاء اللعين جعفر النميري للحكم. عام ١٩٧١ شنق الشفيع. وابتداء من وقتئذ وانا حالي كما تعلم والاحداث يدافع بعضها بعضاً، احداث عامة واحداث خاصة. ولا ادري بعد كم سنة من مقتل الشفيع جاء الرجل ثانية. ربما سنة او سنتين لا اذكر. هتف بي احد اولادنا بالمنزل يقول ان اعرابياً ينتظر بالباب يريد ان يكلمني في امر ضروري. استغربت الأمر، لبست ثوبي وذهبت محتارة في امر هذا الاعرابي الذي يصر على مقابلتي. واذا بأمامي عين الاعرابي ذاك.

قرأ الرجل معي الفاتحة ترحماً على روح الشهيد في غاية التاثر. ثم اثنى على خصاله الطيبة واردف «سمعت بالخبر المشؤوم في وقته وبكيت عليه ولعنت الظلم والظالم، ولكن الله لا يغفل عن شيء وعذابه شديد. وكنت اود لو جئتك بنفسي للعزاء ولكني ما كنت املك وقتها تكلفة السفر. ما جئتك لاعزيك فقد مر الزمن، ولكن جئتك في امر يسألني عنه الله ورسوله».

سألته مستغربة «وما هذا الذي يسألك عنه الله ورسوله يا حاج؟».

اجاب بان الشهيد كان اعطاه قبل تركه الخرطوم، في تلك المرة التي جاء فيها عام ١٩٦٤، مالاً ليشتري له به نعجة. اشترى له حين وصوله نعجة من احسن ما تكون النعاج. انتجت في عامها الاول وظلت تنتج لا تتوقف. وانتج جناها وهكذا «حتى صار لكم قطيع صغير هو الآن في ذمتي. هذا الحين، جئتك لاعرف منك رأيك هل ابيعه وابعث لك بثمنه، ام اتركه على حاله ينمو ويزكو، ام اجيء لكم به تفعلون به ما ترون؟».

قالت لي اختي ضحكت حين اتضح لي ما جاء به من شرق بلادنا البعيد وقلت له: ان خفت ان يسألك عنه الله ورسوله كما قلت يا حاج، فانا عافية لك عنه لله ولرسوله. ولكن الحقيقة هي كما عرفتها من زوجي في حينها، انه راى المبلغ الذي زودك به قليلاً عليك فأراد ان يزيده بلطف فاحتال لذلك بحكاية النعجة ولم يحسب انك ستحمل كلامه محمل الجد، فما اراد نعجة لنفسه اولنا. فالنعجة وما انتجت مالك انت وحدك لا نحن وهو حلال خالص عليك، افعل به ما شئت».

قالت شكرني الرجل ودعا للشهيد برضوان ربه ولنا بالمثوبة وبعد ان اكرمناه انصرف.

واردفت... هذا هو شعبنا الحقيقي بوجهه وضميره الحقيقي. شعبنا الذي يرعى الفضيلة ويفي بالحقوق وهو من اشد ما يكون الشظف والحاجة. شعبنا الذي تقع عليه عينك لا ترى فيه ما يستلفت النظر اذا لم تستخف به، فاذا هو في الموقف الحار يدهشك بالعمل الذي لا تتوقعه. ما تزعزعت ثقتي فيه يوماً من الايام. نعم، نرى من بعض الجانحين والساقطين والمحسوبين عليه لؤماً وجبناً وغدراً وانانية ومكراً، ولكن كم عداد هؤلاء مهما كثروا... كم عدادهم؟ انهم لن يستطيعوا اقط طمس جوهر الشعب، وفضائله التي غذي بها ورعاها والتزم بها سلوكاً وغاية. ووالله ما ندمت قط على هذه الثقة في يوم من الايام، وقليل على هذا الشعب الكريم حقاً تعبنا من اجله وتضحيتنا في سبيله. يوماً بعد يوم بعد يوم يدهشني بمثل هذه المدهشات.

حين حكيت هذه النادرة لجمع من الاصدقاء اكد واحد منهم مثل هذا المسلك، يلاقيه من اهلنا في اماكن عديدة من السودان. مثلاً ذلك النويري الذي حين توفي والد صديقي هذا جاءه من اين لا يدري، بل كيف سمع بالوفاة لا يدري، قائلاً له بعد التعزية ان المرحوم استودعني بقرة هي لكم وكل نتاجها، وشاركني في اخرى لكم نصفها ونصف كل نتاجها، ويصدر في جسابات اكثر تعقيداً وتداخلاً هو وحده يعرف سرها. لو لم يات ما كان لي علم بذلك.

«الفضيلة» تنبثق في مبداها من حاجة المجتمع المعين لضبط علاقات افراده في العمل والمخالطة بضابط يجعله معياراً لذلك، يكرسه ويقدسه، بشتى الوسائل ترغيباً او ترهيباً. وبالزمن يجنح بذلك المعيار نحو التجريد. فاذا بالفضيلة التي هي هو، وكانها ليست ابنة ذلك المجتمع المعين المحدد، منفصلة بذلك عن ابويها - الضرورة الاجتماعية والحيز الزماني وربما المكاني - انفصال السحابة عن البحر. هكذا تصير الضرورة «مناقبية» لها كيان منفصل بطابع سرمدي وربما بجوهر الهي. وتبقى طويلاً لهذا السبب حتى بعد زوال الضرورة التي انجبتها.

وهي في اصطراع دائم مع نقيضتها، «الرذيلة» الاجتماعية التي هي «عيب». لكل منهما تزيين او تبرير او تفسير من الجهة التي تستفيد من ذلك. فاذا انقسم المجتمع الى قسمين متساويين - افتراضاً - صارت فضيلته فضيلتين متناقضتين (وان لم يسمها الجانب المناوىء فضيلة) لكل منهما متبن ومدافع، وان ظلت الغلبة لفضيلة الذين لهم الغلبة. يحدث ذلك التضارب الاخلاقي لتضارب في المصلحة او زاوية الرؤية او لولادة مجتمع جديد في احشاء المجتمع القديم. فالارهاب في نظر العرب بطولة في نظر اعدائهم والعمل البطولي عند العرب ارهاب واجرام في نظر اعدائهم. وبما ان العادة لا تموت بهين لا سيما اذا التقت بضرورة جديدة، اتخذت كثير من الفضائل طابع الشمول والخلود وكونها «فطرة» و«جبلة» في النفس البشرية او كونها فوق البشر. خذ الوفاء، والاخلاص، والامانة، والشجاعة، والمروءة، والتحمل، والنخوة، والاباء، والعفة الى آخره.

من حسن حظ شعب ان تكون هذه هي فضائله الراسخة الممجدة التي لا يجرؤ على تحديها او الانتقاص منها او الخروج عليها الا القلة، ومن ثم تخفت او تقل الحكمة الشعبية التي تنصح بنقيضها. في السودان مثلاً لا يلجأ احدهم الا لماما وباستحياء للتحجج بالمثل «الخواف ربّى عياله». على حين تجد في بلد آخر ان الحكمة السائدة تنصح، في تنطح وتجاسر، بالخوف او الخيانة او الانتهازية، او الجشع او ما اشبه تبريراً او تزييناً. نادراً مثلاً ما تجد سودانياً يستسيغ تشنيعاً بالحماة كما يفعل غيرهم من العرب لان الحماة عندهم محترمة ومحبوبة واثيرة.

فالواقعة التي اوردتها لا تتعلق بفضيلة مجتمع بدوي في طريق الانقراض وحسب، ولكن لان جوهر تلك الفضيلة البدوية المستصفى يمكن ان يحقن به وريد الشعب جيلاً ناشئاً بعد جيل بحيث تستمر الفضيلة ذات جدوى حتى في ظروف مغايرة، وبحيث يصير جوهرها المستصفى ذاك جوهر الشعب نفسه. هذا ما يندرج في باب الاستمساك بالجوانب الايجابية من التراث، اي المحافظة على روح الأمة التي ترعرعت بها. على ذاتها. فالانسان ليس بهيمة همها الأكل والتناسل، انه بالاضافة الى ذاك وفوق ذاك كائن اخلاقي، لهذا قد يجد نفسه في موقف يملي عليه العمل نقيض غريزة الحياة فاذا هو يقدم على ذلك، اذ يرى في ذلك مغزى الحياة.

لذا اردفت شقيقتي «شعبنا بخير برغم ما اريد له. انه يقاوم الضرورة نفسها بالسلاح العتيق، ذاك الذي خلفه الاسلاف لنا، وفينا، ثم هو ينتصر بهذا الشيء المدهش الرائع فاذا هو نفسه مدهش رائع».

يقول حكيم امتنا المتنبي «لولا المشقة ساد الناس كلهم، الجود يفقر والاقدام قتّال» لان توخي الفضيلة يدخل في الامتحان القاسي. هذا الامتحان القاسي اليوم هو تغير الدهر، والحاق الضرورة ووطأة الاضطرار، والثمن الباهظ الذي على المرء ان يدفعه لكي يعيش المثل العليا التليدة والمبادىء السامية المقدسة التي قيل ان فيها بهجة الحياة الحقيقية وغبطة الضمير رغم ما يعني او يتطلب ذلك من حرمان وفقدان وعناء ومغالبة للنفس ومن تضحية قد تصل حد الهلاك.

هل اهلك الجفاف والتصحّر ذلك القطيع الصغير وتلك النعجة المشتراة بخمسة جنيهات كرم رجل كريم؟ وهل اهلكت المجاعة الاعرابي واهليه - الاعرابي راعي الأمانة الذي خاف سؤال الله ورسوله؟

اياً ما حدث لذلك الرجل الاعرابي فقد ذكرناه من دون الناس في باريس... رجلاً جديراً بالاحترام.

POEMES CHOISIS

(Extraits)

J'appartiens à l'Afrique, à son désert immense, au cercle de l'Equateur.
Son soleil m'a imprégné de toutes ses ardeurs,
Exposé à ses flammes, tel la victime du sacrifice sur un bûcher paien,
Calciné et noirci... comme le bois d'ébène j'appartiens à l'Afrique.

****

Arc-bouté sur son bâton,
La jambe repliée comme un héron dans l'eau,
Sans se lasser, de l'aube jusqu'au soir, il scrute l'horizon,
Espérant le nuage salutaire chargé de pluie.
La famine a décimé ses troupeaux.

Longtemps affilié au parti communiste soudanais, il n'hésita pas à le quitter dans les années 60 et à dénoncer avec courage les déviances idéologiques de ses dirigeants à un moment où ce parti était encore particulièrement puissant.

Outre de nombreux articles, Salah Ahmad Ibrahim a publié deux recueils de poésie : "Ghabat al abanus" (La Forêt d'ébène) et "Ghadabat al Hababay" (La Fureur du Hababay*), ainsi qu' un recueil de nouvelles : "Al Burjwaziyya al saghira" (La Petite bourgeoisie).

Sa langue classique et son style maîtrisé lui ont valu l'admiration de ses pairs (en particulier Tayyib Salih cet autre puriste) et le classent avec Muhammad al Fayturi, Muhammad al Makki Ibrahim et Abd Allah al Tayyib parmi les grands noms de la poésie soudanaise contemporaine.

*Hababay : mot du dialecte soudanais qui désigne un vent qui souffle en tempête détruisant tout sur son passage.

SALAH AHMAD IBRAHIM

Né en 1936 à Omdurman (Soudan), dans une famille d'intellectuels et d'hommes politiques (sa soeur Fatima fut la première femme soudanaise élue au parlement), Salah Ahmad Ibrahim entre à l'Université de Khartoum en 1954. Il étudie la littérature et la langue arabes avec des professeurs prestigieux tels que Abbas Mahmoud al Aqqad et Ali al Jarim, ainsi que la littérature anglaise. Il subira l'influence des poètes romantiques anglais tels que Byron, Keats et Shelley.

Il fut ambassadeur en Algérie et démissionna de son poste en 1978 en signe de protestation contre les condamnations à mort consécutives à l'une des nombreuses tentatives de coup d'état contre Numayri.

Il vécut par la suite en France où il collabora à la revue Al Yawm al sabi.

Il est mort à Paris le 17 mai 1993.

Nouvelliste et poète engagé, son oeuvre reflète ses préoccupations marxisantes. Il prend position pour les peuples opprimés (la Révolution algérienne lui inspirera l' un de ses plus beaux poèmes), dénonce la misère et l'exploitation, prêche l'égalité entre les sexes et la réconciliation nationale par l'arrêt de la guerre fratricide du nord contre le sud du pays. Il exprime également sa répulsion pour le régime militaire et la haine et l'ignorance sur lesquels il se fonde ainsi que son amour profond pour son pays.

Comme tous les poètes soudanais de sa génération fiers de leur africanité, il ignore les crises identitaires et revendique sa double appartenance aux deux aires culturelles africaine et arabe.



HOMMAGE A SALAH AHMAD IBRAHIM
(POETE SOUDANAIS)

Bibliothèque

Juin 1993

HOMMAGE A SALAH AHMAD IBRAHIM

(POETE SOUDANAIS)

Bibliothèque Juin 1993